د . سهيل ادريس

ملاحظات على قصيدتي نزار قباني وسعيد عقل

قرات قصيدتيّ نزار قباني وسعيد عقل في مهرجان تكريم طه حسين في القاهرة. ولست احب ان اقيم بينهما المقارنة ، ولكني اجتزيء ببعض الملاحظات والتأملات التي اوحتاها لي .

١ ــ تشرب قصيدة نزار قبانــي كالماء الزلال ، وترشف أبياتها بعذوبة ، لانها متفجرة من نبـع التدفق والطبعيّة . انها كالشجرة الفضّة ، تستمد نسغها مـن تلقائية الجذور السمحاء ، وعفوية الارض المعطاء ، بعيدة عن اي تصنع ، وان لم تكن بعيدة عن الصنعة الفنية .

اما قصيدة سعيد عقل فيغص بها الحلق ، ويصاب منها اللسان بالتقبض والمرارة . ذلك ان القاريء مضطر الى مصارعة عباراتها وصولا الى مقاصدها ، فيكاد ذلك يخلّف لديه الصداع . ومرد هذا ان الشاعر لا يتوسل الى معانيه المفردة الواضحة ولا العبارة الليّنـة ، فاذا شعره مطبوع بطابع التعقيد اللفظي والمعنوي في آن .

نزار قباني ، في هذه القصيدة ، كما في شعـره السابق ، عموديه وحرّه ، يعتمد « البساطة » في اختيار الكلمة وتركيب العبارة ، وهذه البساطة هي التي خلقت له ذلك الرصيد من الشعبية الذي يكاد لا يدانيه فيه شاعر عربـي معاصر .

على ان تلقائية نزار تتمرد على اية سطحية ، وبساطته لا تتعارض والعمق ، اذا كان العمق غنى الايحاء والشفافية ، وهو المطلوب في الشعر . وهذه نماذج من القصيدة تمثل لهذه الرؤيـة :

ــ ضوء عينيك ام هما نجمتان
كلهم لا يرى وانت تراني

ــ ضوء عينيك ام حوار المرايا
ام همـا طائران يحترقان

ــ ارم نظارتيك .. ما انت أعمى
انما نحن جوقة العميـان

هذه الابيات تتزاوج فيها البساطة والعمق عبر صور يغنيها التشبيه الموضوعي والانطباع الذاتـي فـي وقت واحد . بل لعل العمق ان يكون ناشئا من التناقض فـي الصور : العينان المطفأتـان والنجمتان . عيـون الناس المفتوحة التي لا ترى ، وتانك العينان المظلمتان اللتان تريان (الشاعر) . ثم ان تشبيه العينين المغلقتين على السواد بطائرين يحترقان يبلـغ حد الروعة . وفي تصعيد اخـر للتصوير ، يهتف الشاعر بالعبقري الغائب : ارم نظارتيك ... ما انت اعمى ، انما نحن جوقة العميان .

انني اقرأ الان عبارتي الاخيرة التي اردت ان انثر فيها بيت الشاعر ، فأجدني وقد استعملت كلماته كلها ، من غير تبديل ولا تحوير ، ولا تقديم ولا تأخير . ماذا اذن ؟ هذه الكلمـات النثرية تتحول فجأة الى كلمات شعرية ، في غير ما ضعف ولا تهافت ، لان البساطة فيها مقترنة بصدق العفوية او عفوية الصدق ، وهي التـي لا تناقض بينهـا وبين العمق .

ــ ايها الفارس الذي اقتحم الشمس
والقى رداءه الارجواني

ــ فعلى الفجر موجة من صهيل
وعلى النجم حافر لحصان

ــ ازهر البرق في اناملك الخمس
وطارت للغرب عصفورتـان

ــ ان تلك الاوراق حقل من القمح
فمن أين تبدأ الشفتان

وفي هذه الابيات لا تحول البساطة والوضوح دون المتانة في التراكيب والفنى في التصوير والتجنيح فـي الخيال . فشطرة « ازهر البرق في اناملك الخمس » مثلا تتألف من مفردات شديدة البساطـة ، ولكنها بالتزاوج السعيد تخلق استعارة مدهشة تصوّر النار التي كانت تحملها ريشة طه حسين في كتابات التحدي والاقتحام . وتشبيه أوراق صاحب « الايام » بحقل من القمح ، بهذه العفوية البسيطة ، يبعث صورة نابضة لبيدر تتهافت عليه العصافير ولا تدري اين تنقد حبوبه المنثورة .. ثم تتجسد تلك المناقير بشفاه القـراء التـي تلملـم الاحرف عن السطـور ..

هذه النماذج تحمل اذن الـى البساطـة اللغويـة البعيده عن التسطح ثراء الصور النابضة بالالوان . فهي لذلك سهلـة التلقي ، ولكنها عميقة التأثير .

اما قصيدة سعيد عقل فلغتها مقلـع احجار تعوزه ذائقـة الهندسة لدى التركيب . ولا يفهم متذوق الشعر كلف هذا الشاعر بالتعقيد وانصرافه الكلي عن البساطة ، من غير ان يلزم عن ذلك اي عمق . فانت اذا فككت هذه الاحجار وحللت مفاصلها خرجت بصور قد تكون ميزتهـا الاولى المبالغـة في الشطحات الخيالية والبلهوانية فـي البناء التركيبي ، ولكن اثرها لدى المتلقي بعيد عن ان يكون عميقا . خذ هذه النماذج من القصيـدة :

ــ ذكراك ما ذكراك ؟ قل ضربا
هام الجبال غضوب اشعل السحبا

ــ ولو لريشة عصر ان تظلله
لكنت كالليـل لفّ المنتهى بابا

ــ كما صرعت ، رفعت : الريح آيتها
ان عصفها هي ، لا ثوب ولا قشبا

ــ وشائل بفواها وهم أنّ لها
مثل الجناحين رفّا فوق .. واغتربا

ــ وما التقى الحسن من لبنان ضجّ صبا
بفن مصر تفاوى في الحديد صبا

ــ حتى غدت للألى قيلوا العقول منى
وللألى ارتحـن لاستغبائهن غبـا

ــ انزل بقلبي ، بهمّ الارز يوم أسى
بالشيح بالريح ، بالهبّات غبّ صبا

ــ . . . .

ان تعمّد التعقيد في تركيب هذه الابيات النموذجية يذهب بكل جمال الشعر والشاعرية . فكيف اذا كان شطح الخيال في تماديه يوحي لدى كل صورة بمجانية الفانتازيا التي تحرك ذهن الشاعر ؟

سنحاول هنا ان نستخرج الصور التـي ارادهـا صاحبهـا :

ان ذكرى المحتفى به تذكر الشاعر بغضوب (قـد يكون طيرا او انسانا) ضرب هام الجبل فاشعل السحب . وهي صورة لا جدّة فيها ، اذ ان الغضب الذي يرفـع

صاحبه فوق الجبال ليشعل السحب لا يكتسب بفعل ذلك ميزه خاصة تجعل من هذا الغضب او من صاحبه بدعا في البشر . فهي اذن شطحة خيال مجانية لا تقول شيئا . اما من حيث المبنى ، فلست اجد اقبح من روي اشطر الاولى : ضربا . انه يكاد يضرب المتلقي في وجهه، فيخلف لديه ، منذ ابدء ، النفور والاستهجان !

وصوره البيت أثناني تريد ان تقول : اذا كان لفنم في عصر معيَّن أن يظلل بقيمته واهميته هذا العصر ، فان قلمك فيما يظلله أشبه بالليل الذي يلف الدهر كله ، أي ان قيمته واهميته تنسحبان على التاريخ كله فتظللانه دون سائر الاقلام والعبقريات. أهل يمكن لخيال شاعر ان يفقد ميزان الكلام كهذا الخيال ! اما قافية هذا البيت فملصقة به الصاقا ، اذ ما دخل الاباء او الخنوع بهذا كلـه ؟

واما البيت الثالث ، فقد افتقدنا فيه حقا وجه الشبه بين الريح التي آيتها انها هي عصفها بالـذات (وكم هو سقيم قلب التركيب : ان عصفها هي !) وبين صرعه ورفعه ..

واما الابيات الثلاثة التالية التي تتحدث عن تمثال نفرتيتي الذهبي ، فهي مثقلة بالتراكيب المعقدة التـي لا تستبين فيها الصورة الا بشق النفس ، وتكاد لا تفهـم بيتها الاخيـر :

حتى غدت للألى قيلوا انعقول منى
وللألى ارتحن لاستغبائهن غبا

بقي اخر بيت من النموذج الذي اوردناه ، وهـو ترحيب بطيف طه حسين ان ينزل بقلب الشاعر ، وبهم الارز اذا نابه الاسى وبشجر الشيح وبالريح (وهذه طبعا مجرورة باغراء الجناس) وبالهبَّات .. وواضح انه كـان بوسع الشاعر ان يطيل اللائحة الى مـا لا نهاية ، من غير ان يزيد شيئا على المعنى العادي المبذول .

أعود ، عند هذا الحد من الاستشهاد ، الى التأكيد بأن التعقيد الذي يلف هذه القصيدة يحرمها من مزايـا التدفق والعفوية ويشل فيها ، على الصعيد الفني ، امكان الايصال والتلقـي . (١) .

٢ ـ اما على صعيد الموضوع، فتعتبر قصيدة نـزار قباني شاهدا على العصر الذي يعيشه ، نقصد هنـا على المجتمع الذي يعيش فيه . وهو شاهد اخر يدل على ان هذا الشاعر يمدّ جذوره في ارض بلاده ، ويغمس قلمه في امراضها ويعمل مبضعه في آفاتها .

ان حديث نزار قباني عن سقوط الفكر في النفاق السياسي ، مثلا ، موجة عارمة تنبض بالصدق والصراحة:

سقط الفكر في النفاق السياسي
وصار الاديب كالبهلوان
يتعاطى التبخير ، يحترف الرقص

(١) يقتضيني التجرد ان اقول اني توقفت في هذه القصيدة عند ابيات قليلة وجدتها جيدة ، لان الشاعر جرى فيها مع العفوية واليسر وابتعد عن التعقيد المعهود ، ومنها قوله في الاشارة الى انطفاء النـور في عيني طه حسين :

ـ والليل وحدك تدري اين منبعه (...)
ـ كذاك انت رمت عيناك ليلهمـا
ثقلا على الشرق عاد الشرق ملتهبا
ـ تعلم الجيل من طفل تمرّ بـه
أزاهر فترى في وجهه العطبا
ـ فتكتم الحزن عنه خوف تجرحـه
لكنه هو لا يستعذب الكذبـا



نزار قباني — سعيد عقـل

★★★

ويدعو بالنصر للسلطـان
عند الينا فان ما يكتب اليوم
صفير الرؤى صفير المعاني

ونراه يستغل روح التحدي التي كـان طه حسين يتحلى بها ليخرج الى فضح التزلف والخنوع لدى فئة من الكتّاب الجبناء الذين باعوا نفسهم للشيطان :

ـ انت أرضعتنا حليب التحدي
فطحنّا النجـوم بالاسنان
ايها الغاضب الكبير تأمل
كيف صار الكتّاب كالخرفان
قنعوا بالحياة شمسا ومرعى
واطمأنـوا للماء والفدران
ان اقسى الاشياء للنفس ظلما
قلم في يد الجبان الجبان

هذه الصيحة التي يدين بها نزار النفاق والتكسب والتزلف تنضاف الى صيحاته الكثيره السابقة في تعرية المجتمع العربي ، فتجعل منه شاعرا في طليعـة الشعراء الرافضين ، بل الثائرين .

ولكن التصاقه بالواقع ، وانغماسه في اتون الصراع الذي يعيشه الوطن العربي انما يبرزان في ذلـك النداء الذي يطلقه من اجل مصر في محنتها الحالية حين يقول :

تستبد الاحزان بي فأنادي — آه يا مصر من بني قحطان
تاجروا فيـك ساوموك استباحوك — وباعوك كاذبات الاماني
حبسوا الماءعن شفاه اليتامى — وأراقوه في شفاه الفواني
تركوا السيف والحصان حزينين — وباعوا التاريخ للشيطان

انه هنا يدين التناقض الفظيع الذي يشل الوطـن العربي بين فقرائه العاملين من اجـل مجده وعظمته ، واغنيائه الآسنين فـي حياة الخنى والمذلة . وهو في هذه المفارقة المبكية يتذكر وطنه السوري ووطنـه الاخـر الفلسطيني :

يشترون القصور ، هل ثم شار — لقبور الابطال في الجولان
يشترون النساء هل ثم شار — لدموع الاطفال في بيسان
يشترون الدنيا واهـل بلادي — ينكشون التراب كالديدان
آه يامصر ! كم تعانيـن منهـم — والكبير الكبير دوما يعاني

ان نزار قباني يقتحم الواقع ولا يخشى نبشه وتجريحه وتعرية فضائحه ، فيشارك بذلك في خلق الادب الثوري المناضل الذي هو اليوم طليعة انتاجنا الحديث ، هذا الانتاج الذي لا تنفصل فيه الهموم الفنية ، في وجدان الاديب ، عن هموم الشعب والمجتمع .

فما هو موقف سعيد عقل ؟

ان بوسعنا ان نعد قصيدته هذه ، بالمقياس نفسه ، شاهدا على انقطاع صلة الشاعر بمجتمعه الحقيقي ، بل هي شاهد على انه يشوه هذا الواقع في كثير من الاحيان حين يكتفي بالتمجيد والتعظيم والتفاخر والمباهاة ، توهما منه ان هذه هي الوطنية الحقيقية !

يقول سعيد عقل :

انا مني زهر لبنان وكنت صدى
لثورة في بنيه تنزل العصبا
نيست من النار لكن من ارادتها
تعطي الهنيهات نبضا ، تشرب الغضبا
انزل بقلبي ، بهم الارز يوم اسى
بالتسبيح بالريح ، بالهبات غب صبا
انزل بما ضج في لبنان من وله
بالكبر لم ينجرح ، بالورد ما التهب
بماردين ابوا الا الحياة على
بممسكين بقرن الدهر مطلبا
بجبهم ، بضروب العزم في يدهم
بقولهم للزمان اركض ام انت هبا
لكن نزلت ببعض الصخر من جبل
له على المجد فضل المجد ان صعبا

ان « حس الكرامة » الذي قد ينبعث من هذه الابيات هو ادنى الى ان يكون ضربا من جنون العظمة حين يتجاوز مفاسد الواقع ويغضي عن الآفات الكثيرة التي تنخر المجتمع اللبناني وتشل فعالياته وتجعله بالطائفية والاقطاع والاقليمية والاستغلال مجتمعا متخلفا لا يقل تخلفا عن اي مجتمع شرقي مريض .

فاذا قيل ان مناسبة لتكريم ذكرى طه حسين لا تحتمل اطلاق اصوات النقد الذاتي والتجريح النفسي ، قلنا ان هذا غير ممتنع بالضرورة .. ولكن تلك المناسبة لا تحتمل كذلك تشويه الواقع والاسترسال مع مرض التفاخر الفارغ الذي يملأ به سعيد عقل اعمدة بعض الصحف اللبنانية منذ سنوات .. واذا كانت المناسبة تحتمل التنويه ببطولات مصر في الحرب في قوله مخاطبا روح طه حسين :

تلك الكرامات في العقل ارتجتك اخا
تلك البطولات في الحرب ارتضتك أبا

اذا كان الشاعر يذكر بطولات سيناء وحرب تحريرها ، فكيف يجيز لنفسه ان يتناسى تقاعس لبنان بالدفاع عن ارضه وكرامته ، ولا يذكر الا « الماردين الذين أبوا الا الحياة على » ؟

ان التباهي الزائف الذي جعله سعيد عقل دأبه وديدنه في كل ما ينتجه يفسد الاجيال اللبنانية اذ يغريها بالقعود والاسترخاء ويزهدها بالكفاح والصراع من اجل مجتمع لبناني افضل . وبهذا يتبدى الشاعر هنا كقوة رجعية تشد البلاد الى وراء .

٢ ـ اذا كان نزار قباني يدين الواقع العربي الفاسد، فلانه يملك حسا تاريخيا سليما ، هو الحس الذي لا يعكر لديه الرؤية الشمولية للتاريخ العربي .

فهو يشير الى « مصر بني قحطان » والى التاريخ الاسلامي والى الشعراء العرب ، ثم يتحدث باسم مصر عن دورها في صنع التاريخ العربي :

قد رددنا جحافل الروم عنكم
وردنا كسرى انوشروان
وحمينا محمدا وعليا
وحفظنا كرامة القرآن

ومن هذا الوحي بالذات ، يخصص نزار القسم الاخير من قصيدته لادانة تقصير العرب في دعم مصر ومدها بما تستطيع ان تواصل به رسالتها العربية .

اما سعيد عقل ، فلا يذكر من مصر الا تمثال نفرتيتي المذهب والهياكل .. وهذا طبعا من تاريخ مصر، ولكنه جزء يسير من هذا التاريخ . وهو بالتالي تشويه للتاريخ الحقيقي ، لانه اسقاط لتاريخ مصر العربي ولحضارتها العربية . والواقع ان سعيد عقل لا ينفي ينكر صراحة اي تاريخ عربي لاي بلد عربي ، تستوي في ذلك مصر ولبنان . وقد سبق له ، اثر زيارة منذ بضعة اشهر للقاهرة بدعوة من وزارة الثقافة المصرية ، ان طالب وهو على ارض مصر بما سماه « تمصير مصر » كما اشار مندوب جريدة « النهار » في القاهرة آنذاك .

ولكن ، وهو في ذكرى تكريم طه حسين ، الا يجد في نتاج صاحب الذكرى ما يحمل التعبير عن ذلك التاريخ العربي والفكر العربي والحضارة العربية ؟ ما الذي كانت ترمي اليه جميع دراسات طه حسين الادبية ؟ وما الذي كانت ترمي اليه « اسلامياته » على الخصوص ؟ أكان يقصد الى تحقير ذلك التاريخ والانتقاص من شأن الحضارة العربية ؟ فلماذا يسقط سعيد عقل هذا كله من حسابه فيشوه تاريخ مصر اذ يهمل الحقبة المتأخرة منه ، وهي التي تمتد حتى ايامنا هذه ، وهي التي تعيش فيها مصر حقيقتها وقيمتها ، في حين ان تاريخ الحقبة المتقدمة التي يتغنى بها سعيد عقل قد باد ودرس ، ولم يبق الا للذكرى ؟

* * *

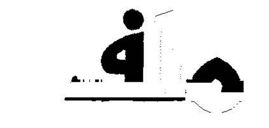
وبعد ، فهذه هي بعض الخواطر التي اوحت لي بها قراءة القصيدتين . واود ان اختم هذه الملاحظات بالاشارة التالية :

ان سعيد عقل ، صاحب هذه القصيدة ، يدعو الى هجر الفصحى ، واحلال العامية محلها .

ونحن اذا نظرنا الى الموضوع نظرة سطحية ، وجدنا في الامر مفارقة وتناقضا .

اما اذا تعمقنا الامر قليلا ، فلن يمتنع علينا التفكير بان مثل هذه القصيدة انما يندرج في الدعوة نفسها والمخطط نفسه : تعقيد الشعر الفصيح الى حد تنفير الناس به وصرف القراء عنه ، وهو بالذات ما تؤدي اليه قصيدة سعيد عقل هذه ..

ولكن الجواب على ذلك ان هذه الدعوة صائرة حتما الى الاخفاق لان المؤمنين بها لا يتجاوزون اصابع اليد الواحدة . اما الشعراء العرب الذين يحببون الناس بالفصحى التي تصبح بين ايديهم لغة الحياة الواقعية الحقيقية ، فهم كثيرون . وليس نزار قباني الا واحدا منهم ، وان كان من أبرعهم !



و تحقيق

(الاونسكو واسرائيل)

يضم هذا العدد ، في الصفحات التالية ، ملفا كاملا وتحقيقا ضافيا .

اما الملف فيتناول قضية « الاونسكو واسرائيل » ، هذه القضية التي لا تزال تثير منذ اواخر العام الماضي اهتمام الاوساط السياسية والثقافية في آن واحد ، والتي نعتقد ان القراء العرب لم يطلعوا عليها اطلاعا كافيا لان صحافتنا لم تولها العناية التي تستحقها .

واهمية هذه القضية تقوم على ان منظمة الاونسكو قد اتخذت في دورتها الثامنة عشر الاخيرة قرارات هامة بشأن عدم ادراج اسرائيل في النشاطات الاقليمية الثقافية وادانة سياستها حول الحفريات التي تقوم بها في مدينة القدس . وقد قامت اجهزة الاعلام الصهيونية ، وخاصة في الصحافة الفرنسية ، بحملة فظيعة على الاونسكو ادت الى قرار الولايات المتحدة بقطع مساعدتها عن منظمة الاونسكو (وهي تساوي ربع ميزانية المنظمة) والى انقاص مساعدات بعض الدول الاخرى ، ومنها فرنسا .

وما زالت المنظمة تعاني حتى اليوم من ضغوط كبيرة لثنيها عن قراراتها التي اتخذت باكثرية كبيرة . ومن الطبيعي ان يقف ممثلو الدول العربية والدول الاشتراكية ودول العالم الثالث في وجه هذه الضغوط دفاعا عن تلك القرارات . والمقالات المنشورة في هذا الملف والتي رغبت « الآداب » الى الشاعر والكاتب اللبناني الاستاذ صلاح ستيتيه ، المندوب الدائم المعاون للبنان لدى الاونسكو ، ان يطلبها من ممثلي الدول العربية في المنظمة ، فلبوا الدعوة مشكورين ، تكشف عن محاولات اسرائيل وعملائها من الصحفيين الفرنسيين واصدقائها من موظفي الاونسكو السابقين لتشويه حقيقة قرارات المنظمة .

غير اننا نود ان نتجاوز هنا توضيح الحقائق لندعو الى ما هو ابعد اثرا واكثر فاعلية : نقصد تمكين الاونسكو من ان تظل صامدة في وجه جميع الضغوط . ولا يكون ذلك الا بدعم ميزانيتها دعما ماليا هو الذي تحاول الولايات المتحدة وبعض الدول الغربية الاخرى سحبه منها لتضعها في موضع العجز الذي يضطرها الى التراجع عن مواقفها .

واذن ، فاننا ندعو الدول العربية الغنية ، ولا سيما دول البترول ، ان تبادر الى سد العجز الذي احدثه انقطاع الدعم الغربي الراسمالي عن المنظمة لتمكينها من الصمود ، وهو ما يشكل واجبا قوميا على الدول العربية دفاعا عن القضية العربية الاولى : قضية فلسطين .

* * *

(نـدوة الفيليبين)

واما التحقيق بشان ندوة « الادب والاجيال الجديدة » الذي كتبه « للاداب » الاستاذ ادوار خراط ، نائب الامين العام للكتاب الاسيويين الافريقيين ، فهو يتناول اعمال الندوة التي دعا اليها في مانيلا ، عاصمة الفيليبين ، اتحاد الكتاب الفيليبينيين ، باشراف اتحاد كتاب آسيا وافريقيا ، في اوائل شباط الماضي .

ولما كنت قد شاركت في اعمال هذه الندوة ، فاني اود ان اورد الملاحظات التالية التي لم يتطرق اليها التحقيق .

١ ـ كنت شخصيا من الذين يعتقدون ان اتحاد الكتاب الفيليبينيين يتمتع بقدر من الاستقلال يجعله غير تابع لحكومته المرتبطة ارتباطا وثيقا بعجلة السياسة الاميركية . ولكن المناقشات التي جرت ، وخاصة في لجنة الصياغة التي كنت احد اعضائها ، ازالت هذا الوهم ، بل اثبتت ان تبعية اتحاد الكتاب ذاك تبلغ حد العمالة .

٢ ـ من هنا كان شعوري وشعور بعض المندوبين العرب بان اتحاد كتاب آسيا وافريقيا ارتكب خطأ جسيما بقبول الدعوة لاقامة هذه الندوة في الفيليبين . اذ ان الندوة استغلت للتغطية على سياسة قمعية تتبعها الفيليبين ، بمباركة من الولايات المتحدة ضد الحركة الوطنية وثورة المسلمين في الجنوب . وقد اتخذت هذه التغطية الوانا من تكريم الوفود كانت تثير الشكوك ، لا سيما دعوة المندوبين لقضاء ليلة احتفالية في جزيرة تملكها زوجة رئيس جمهورية الفيليبين .. (وقد امتنع مندوبو فلسطين والجزائر ولبنان من تلبية هذه الدعوة ..) .

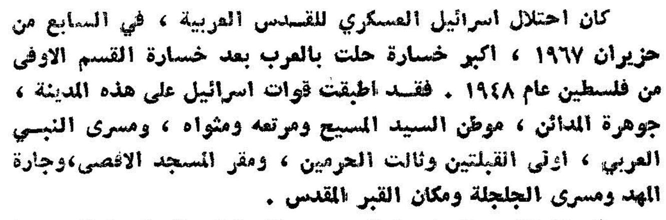
٣ ـ يتزايد الشعور بان منظمة كتاب آسيا وافريقيا تحتاج الى « اعادة نظر » في اوضاعها وانظمتها ، بحيث تخرج من حالة « الشيخوخة » التي اصيبت بها في الاعوام الاخيرة بسبب الروتين ونفوذ بعض اعضائها اللذين يحولان دون اتباع خط ثوري واضح هو الذي يجب ان تتمتع به المنظمة دونما ارتباط تبعي بالحكومات ..

ان اعادة النظر هذه ضرورية للحيلولة دون ان تفقد منظمة كتاب آسيا وافريقيا ما بقي لها من اهمية وفعالية ...

س١٠



د. حليم ابو عز الدين



كان احتلال اسرائيل العسكري للقدس العربية ، في السابع من حزيران ١٩٦٧ ، اكبر خسارة حلت بالعرب بعد خسارة القسم الاوفى من فلسطين عام ١٩٤٨ . فقد اطبقت قوات اسرائيل على هذه المدينة ، جوهرة المدائن ، موطن السيد المسيح ومرتعه ومثواه ، ومسرى النبي العربي ، اولى القبلتين وثالث الحرمين ، ومقر المسجد الاقصى،وجارة المهد ومسرى الجلجلة ومكان القبر المقدس .

المدينة التي حنا عليها العرب وحفظوها لاربعة عشر قرنا ـ عدا قرنين منهما استولى عليها خلالهما الفرنجة ـ كانت فيها مفتوحة لجميع المؤمنين ، يحيطها العرب ، مسلمين ومسيحيين ، بافئدتهم ومحبتهم وتقديسهم ، ويرنو اليها العالم بالتجلة والاحترام .

دخلت القوات الاسرائيلية المدينة واحتلتها ورفعت فوقها العلم ذا النجمة السداسية ، وبادرت الى التصرف بها تصرف الغزاة المستوطنين ، وامعنت فيها هدما وتغييرا . ازالت حي المغاربة لتفسح المجال لانشاء ساحة كبيرة امام حائط المبكى ، وحائط المبكى ، كما قد لا يعلم الكثيرون ، هو جزء لا يتجزأ من الاوقاف الاسلامية في القدس .وبهذا افتت حتى المحاكم البريطانية العليا ، خلال الانتداب البريطاني على فلسطين ، في الوقت الذي كان الانتداب يستهدف فيه سياسة انشاء الوطن القومي اليهودي .

وازالت القوات الاسرائيلية الحدود بين القدس العربية وسائر القدس المحتلة ، وضمتها الى اراضيها،واستصدرت قانونا من((الكنيست)) الاسرائيلي يقرر توحيد المدينة ، محاولة ان تسبغ على هذا الاحتلال العسكري القسري صفة التوحيد الشرعي .

ثم عملت سلطات الاحتلال على تغيير معالم المدينة فاضافت اليها احياء جديدة، وانشأت فيها عمارات شاهقة شوهت مقاماتها التاريخية، ونقلت اليها بعض الادارات الحكومية الاسرائيلية زيادة في الامعان في تهويد المدينة . وقامت فيها بحفريات عديدة بالقرب من الحرم الشريف وكثير من المقدسات الاخرى الاسلامية والمسيحية ، معرضة تلك الاثار الثمينة للخطر والضياع . ثم عمدت الى احاطة المدينة الغالية بسوار خانق من العمارات الشعبية العالية ، حتى طمس افق المدينة ، وتغير شكلها، وحشدت في تلك العمائر اعدادا كثيفة من المهاجرين اليهود ، محاولة بذلك ان تضع العالم امام الامر الواقع .

ولم تكتف بذلك ، بل حاول بعضهم حرق المسجد الاقصى ، كما يعلم الجميع ، والصقوا هذه التهمة بمخبول ، وتطاولوا على حرمة عرش السيدة العذراء .

سارع العرب لكشف هذه التصرفات غير القانونية لدى الرأي العام العالمي ، وتقدموا بشكاوي حولها الى الامم المتحدة التي قامت، منذ عام الاحتلال ١٩٦٧ ، بانذار اسرائيل ، وبشدة ، للامتناع عن اجراء اي تغيير في وضع المدينة القانوني، او في معالمها التاريخية ومقدساتها او في مخططها المدني .

فقد اصدرت الجمعية العمومية للامم المتحدة في ٤ تموز ١٩٦٧ القرار رقم ٢٢٥٣ ((بدعوة اسرائيل لالغاء كل الاجراءات التي اتخذتها (في القدس) ، وبالطلب منها الامتناع عن القيام باي عمل يغير وضع القدس)) .

وفي ١٤ تموز ١٩٦٧ اتخذت الجمعية العمومية قرارا اخر رقم ٢٢٥٤ ((يستنكر عدم قيام اسرائيل بتنفيذ قرار الجمعية العمومية رقم ٢٢٥٣ (المذكور انفا) ،ويدعو اسرائيل مرة اخرى ، الى الغاء جميع الاجراءات المتخذة ، والى الامتناع عن القيام باي عمل يغير معالم القدس)) .

وفي ١٤ كانون الاول ١٩٧٣ ، اتخذت الجمعية العمومية القرار رقم ٣٠٩٢ الذي تعرب فيه عن ((اهتمامها العميق بنقض اسرائيل لاتفاقية جنيف الخاصة بحماية الاشخاص المدنيين في زمن الحرب ، المؤرخة في ١٢ اب ١٩٤٩ ، وغيرها من الاتفاقات الدولية .. وذلك بنهبها الاثار الثقافية والتاريخية في الاراضي المحتلة)) .

ونصت المادة الثانية من هذا القرار على ((اعتبار كل الاجراءات المتخذة من قبل اسرائيل لتغيير المعالم الطبيعية والتركيب الديموغرافي، والنظم الاساسية ، او وضع الاراضي المحتلة ، او اي جزء منها لاغيا وغير معترف به)) .

ودعت المادة الثامنة من القرار سائر الدول والمنظمات والوكالات الدولية ((لعدم الاعتراف باية تغييرات اجرتها اسرائيل في الاراضي المحتلة الخ ...)) .

اما مجلس الامن ، فقد اتخذ في ٣ تموز ١٩٦٩ القرار رقم ٢٦٧ وفيه يستنكر ، باقوى الالفاظ ، كل الاجراءات المتخذة بهدف تغيير وضع مدينة القدس ، واعتبرت المادة الرابعة من القرار كل الاجراءات التشريعية والادارية التي اتخذتها اسرائيل في القدس ((لاغية وغير ذات مفعول)) .

وكذلك اتخذ مجلس الامن قرارا بالمعنى ذاته ، مضيفا اليه استنكاره لعدم تجاوب اسرائيل معه وذلك تحت رقم ٢٩٨ بتاريخ ٢٥ ايلول ١٩٧١ .

* * *

اما اليونسكو ، وهي منظمة الامم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة

والاعلام ، فقد تناولت الموضوع من ناحيته العلمية والثقافية . فاصدر المؤتمر العام الخامس عشر لليونسكو ، في خريف عام ١٩٦٨ القرار رقم ٣٣٤ ويتضمن دعوة اسرائيل « للمحافظة بدقة على كل المواقع والمباني وسائر الممتلكات الثقافية (في الاراضي المحتلة)، وخاصة في مدينة القدس القديمة » . ونصت الفقرة الثانية من نفس القرار على وجوب « امتناع اسرائيل عن القيام باية حفريات ، او نقل ملكية ، او تغيير معالمها ، او تغيير طابعها الثقافي والتاريخي » .

لم تأبه اسرائيل لكل هذه القرارات ، بل استمرت في طغيانها والفتك بمعالم المدينة المقدسة ، فاصدر المجلس التنفيذي في منظمة اليونسكو سلسلة من القرارات تدور كلها حول استنكار ما تقوم به اسرائيل من حفريات خطرة في المدينة المقدسة ومن تغيير لمعالمها ،وتنص هذه القرارات على استنكار ، ثم ادانة اسرائيل لقيامها بهذه الاعمال غير الشرعية ، وتطلب منها التوقف الفوري عنها .

وتحقيقا للبحث العلمي حول الموضوع ، اشير الى ارقام هذه القرارات الصادرة عن المجلس التنفيذي لليونسكو :

١ ـ القرار رقم ٣٣٤٣ الصادر عن المجلس التنفيذي لليونسكو في دورته الخامسة عشرة بتاريخ ٢٠ تشرين الثاني ١٩٦٨ .

٢ ـ القرار رقم ٤٤٢ الصادر عن المجلس التنفيذي لليونسكو في دورته الثانية والثمانين بتاريخ ١٦ ايار ١٩٦٩ .

٣ ـ القرار رقم ٤٣١ الصادر عن المجلس التنفيذي لليونسكو في دورته الثالثة والثمانين بتاريخ ١٠ تشرين الاول ١٩٦٩ .

٤ ـ القرار رقم ٤٣١ الصادر عن المجلس التنفيذي لليونسكو في دورته الثامنة والثمانين بتاريخ ٢١ تشرين الاول ١٩٧١ .

٥ ـ القرار رقم ٤٤١ الصادر عن المجلس التنفيذي لليونسكو في دورته الرابعة والتسعين بتاريخ ٢٤ حزيران ١٩٧٤ .

ولما بقيت كل هذه القرارات بلا جدوى ، فقد عرضت الوفود العربية والمؤيدة الموضوع على المؤتمر العام لليونسكو في دورته العامة السابعة عشرة في خريف ١٩٧٢ الذي اتخذ قرار رقم ٣٤٢٢ بتاريخ ١٠ تشرين الثاني ١٩٧٢ يستنكر فيه استمرار اسرائيل بقيامها بالحفريات في القدس وبتغييرها معالم المدينة ويطلب منها ، في الفقرة الثانية من القرار :

أ ـ « ان تتخذ التدابير الكفيلة بالحفاظ بدقة على كل المواقع والمباني وغيرها من الاثار الثقافية (في الاراضي المحتلة) وخاصة في مدينة القدس القديمة » .

ب ـ « ان تمتنع عن اجراء اي تغيير في معالم مدينة القدس » .

ج ـ « ان تمتنع عن اجراء اية حفريات ، او اي نقل للملكية الثقافية ، او اي تعديل في معالمها او في طابعها الثقافي والتاريخي ، وعلى الاخص فيما يتعلق بالمعالم الدينية المسيحية والاسلامية » .

د ـ « ان تحترم اسرائيل بدقة القواعد التي نص عليها الاتفاق الدولي الخاص بحماية الملكية الثقافية في حالة النزاع (لاهاي ١٩٥٤)».

ودعا القرار في فقرته الثالثة المدير العام لليونسكو لاقامة « وجود » لليونسكو في القدس من اجل التحقق من تنفيذ هذه المقررات.

استمر موقف اسرائيل المتعنت من هذه القرارات حتى تمكن المدير العام السابق لليونسكو ، السيد رينه ماهو ، من اقناعها بقبول « وجود » اليونسكو في القدس ، وعين عام ١٩٧٤ الاستاذ ريمون لومير Raymond Lemaire البلجيكي ، والسكرتير العام للمجلس الدولي للمعالم والمواقع الاثرية ICOMOS ،ممثلا في القدس للاشراف على تنفيذ مقررات المنظمة الدولية .

وقد قام السيد لومير بزيارة القدس في الفترة ما بين ١٦ و٢٣ نيسان ١٩٧٤ ، ووضع تقريرا رفعه الى المدير العام لليونسكو الذي احتفظ به واودع المجلس التنفيذي للمنظمة نبذة مختصرة عنه .

وهذا التقرير لا يتجاوب تماما والمهمة التي كلف المدير العام بتنفيذها بواسطة ممثله في القدس ، فقد اقتصر التقرير على ذكر نواح فنية بحتة تتعلق بالحفريات التي تجريها اسرائيل في القدس وما زالت مستمرة فيها ، رغم قرارات اليونسكو التي تمنعها من ذلك .

على ان التقرير ، رغم الهنات التي وردت فيه ، دل بوضوح على امعان اسرائيل في تحدي قرارات اليونسكو ، وفي استمرارها في اجراء الحفريات في القدس وفي تغيير معالم المدينة المقدسة .

وتقدمت الوفود العربية والمؤيدة بمشروع قرار الى المجلس التنفيذي يدين اسرائيل لمخالفاتها الكثيرة ولاستمرارها في تجاوز قرارات الامم المتحدة واليونسكو في موضوع القدس ، ويطلب طرح الموضوع على المؤتمر العام الثامن عشر لليونسكو . وقد فاز مشروع القرار هذا باقرار المجلس التنفيذي له باكثرية ٢٤ ضد لا شيء وامتناع ١١ . وكان ذلك في ٢٤ حزيران ١٩٧٤ .

وطرح الموضوع امام المؤتمر العام الثامن عشر لليونسكو بموجب قرار اعدته الوفود العربية والمؤيدة وفيه سرد تاريخي لقرارات الامم المتحدة واليونسكو السابقة حول الموضوع ، وتبيان موقف اسرائيل الرافض منها ، ودعوة المؤتمر العام ، بالتالي ، لادانة اسرائيل، وقطع اعاناتها عنها . وقد كان لهذا المشروع ضجة كبرى في اوساط اليونسكو، وكذلك في الاوساط الخارجية ، وسرت اشاعات حوله بانه يسيس موضوع القدس الثقافي ، ويسيس المنظمة الثقافية العالمية ، كما وانه سيؤدي الى اخراج اسرائيل من اليونسكو ، وبالتالي الى وقف مساهمة بعض الدول في موازنة اليونسكو واعمالها احتجاجا منها على هذا الموقف .

وقد لاقى العرب ومؤيدوهم واصدقاؤهم الكثيرون عراقيل جمة خاصة من بعض الدول الكبرى وغيرها من الدول الغربية ، ولكن ذلك لم يفت في عضدهم وتمكنوا ، برغم تلك الصعوبات ، من طرح مشروع القرار على المؤتمر العام الذي صوت عليه ، بعد مناقشات طويلة اشترك فيها بالاضافة الى اعضاء اليونسكو منظمة التحرير الفلسطينية ـ التي كانت قد قبلت في مطلع الدورة كعضو مراقب في اليونسكو ـ وعدد من المنظمات اليهودية والصهيونية .

وفي ٢٠ تشرين الثاني ١٩٧٤ ، فاز المشروع العربي باكثرية ٦٤ صوتا ضد ٢٧ وامتناع ٢٦ وغياب ١٧ صوتا .

واذكر فيما يلي الفقرات الثلاث العملية للقرار .

١ ـ يؤكد جميع القرارات المشار اليها انفا ويصر على تنفيذها » .

٢ ـ « يدين اسرائيل لموقفها المنافض للاهداف التي تتوخاها المنظمة كما وردت في ميثاقها التأسيسي ، باستمرارها في تغيير معالم مدينة القدس التاريخية وفي اجراء الحفريات التي تشكل خطرا على اثارها ، وذلك عقب احتلالها غير الشرعي لهذه المدينة » .

٣ ـ « يدعو المدير العام الى عدم تقديم اي عون في ميادين التربية والعلم والثقافة الى اسرائيل ، وذلك الى ان تحترم بدقة القرارات المشار اليها انفا » .

ومن المفيد ان نشير في هذا المجال ايضا الى ان المؤتمر العام لليونسكو قرر ، بالاضافة الى ذلك ، وفي موضوع اخر ، حرمان اسرائيل من ان تنضم الى المجموعة الاقليمية الاوروبية الغربية في اليونسكو . وهذا القرار يعكس ، في الواقع ، استياء مجموعة الدول من تصرفات اسرائيل ، كما انه يدل على ان بعض الدول في اوروبا الغربية لم تكن ايضا راغبة في ضم اسرائيل الى مجموعتها الاقليمية (مثلا ، اسبانيا صوتت ضد قبول اسرائيل ، وفرنسا امتنعت) .

وفي هذا الصدد ، تجدر بنا الاشارة الى ان المؤتمر العام السابع عشر لليونسكو المنعقد في خريف عام ١٩٧٢ ، كان قد اجل النظر في

طلبين كانت قد تقدمت بهما كل من الولايات المتحدة الاميركية وكندا للانضمام الى المجموعة الاقليمية الاوروبية الغربية ، وفي طلبين اخرين تقدمت بهما كل من استراليا ونيوزلندا للانضمام الى المجموعة الاقليمية الاسيوية . وقد قرر المؤتمر العام في حينه ، تحاشيا للخلافات التي ظهرت بين الاعضاء حول هذا الموضوع ، تأجيل البت في تلك الطلبات لحين انعقاد المؤتمر العام الثامن عشر . وكان ذلك القرار ، في حينه، بمثابة قرار سلبي في الموضوع . وقد تقبلته الدول المعنية بصمت ولم تثر الضجة حوله .

اما فيما يتعلق ، هذه المرة ، بالقرار الخاص برفض ضم اسرائيل الى المجموعة الاقليمية الاوروبية الغربية ، خاصة وانه جاء بعد القرار السالف الذكر ، القاضي بانزال العقوبة باسرائيل بقطع اعانات اليونسكو عنها ـ اقول ، انه فيما يتعلق بهذا القرار ، فقد اقامت اسرائيل واصحابها الدنيا عليه ، ولما تقعدها بعد .

هذان القراران الصادران عن اليونسكو بحق اسرائيل ، وبسبب تصرفاتها اللا شرعية ، كانا بمثابة الاشارة لاطلاق حملة شعواء ضد اليونسكو في الكثير من الدول الغربية ، حملة تعدت كل نطاق ممكن، حملة تنادي بالويل والثبور وعظائم الامور ، وترى في هذين القرارين نهاية لليونسكو ، حملة سخرت لها جميع وسائل الاعلام الصحفية والاذاعية والسمعية والبصرية ، كما سخرت لها ، ويا للاسف ، عقول غربية ناضجة كبيرة لم تقصر سوى عن تفهم قضية فلسطين ووضع القدس .

دول كبرى وصغرى تعرب عن استيائها من هذين القرارين، وتنذر بالقطع او تخفيض مساهماتها المالية والبشرية في اعمال اليونسكو ، ومفكرون وعلماء ، وصحفيون واساتذة وادباء ، وسياسيون وحملة جائزة نوبل ، يلتقون ، في الغرب ، على التنديد بهذين القرارين ، منساقين وراء دعايات شريرة تنافي الحقيقة ، ورافضين تفهم الواقع الحقيقي كما حاولت اظهاره سكرتيرية اليونسكو ، المحايدة ، والكثير من الوفود التي اشتركت في المؤتمر العام .

لقد انغلقت عقول هؤلاء الكبار على وجهة نظر واحدة تنادي بها اسرائيل واصحابها ، ومع انها تجافي الحقيقة والواقع والمنطق والقانون ، الا انها في نظر هؤلاء تمثل الحقيقة والواقع والمنطق والقانون لانها وجهة نظر اسرائيل .

ولكن ، ومن اجل اكمال الصورة بتوضيح كل جزئياتها ، نحمد الله على ان هنالك عقولا نيرة وافكارا متحررة عرفت الحقيقة وقالت بها ، ورفعت صوتها بالواقع ، وكان لذلك الصوت ، ولا شك ، اثره لدى الراي العام الغربي .

هذا هو الواقع في موضوع اليونسكو والقدس . وهو ايضا الواقع العلمي الجدي الحقيقي حول ما ذر من خلاف بين اليونسكو واسرائيل .

لقد بدا العالم يتنبه الى وجوب تقصي الحقائق ، وما الذي حدث في السنوات الاخيرة في الامم المتحدة ، وفي اليونسكو ، وفي سائر المنظمات والمجتمعات الدولية ، سوى دليل واضح على ان جولة الباطل ساعة ، وجولة الحق الى قيام الساعة .

باريس
حليم ابو عز الدين
السفير
مندوب لبنان الدائم لدى اليونسكو



عزيز الحاج

قضايانا القومية في مؤتمر الاونسكو الثامن عشر

- ١ -
دور المنظمات الدولية الحكومية

انشئت هيئة الامم المتحدة ووكالاتها المتخصصة على اثر انتهاء الحرب العالمية الثانية بالانتصار على الفاشية والوعود الدولية بحلول عهد جديد في تاريخ البشرية . وقد اقيمت الامم المتحدة بوصفها الهيئة السياسية الدولية العليا لضبط وتنظيم العلاقات بين الدول، والحفاظ على السلام العالمي ، بينما تأسست الاونيسكو في لندن في نوفمبر ١٩٤٥ لتسجل في ميثاقها التاسيسي بان الدول الموقعة على الميثاق :

« اذ تعتزم تامين فرص التعليم تامينا كاملا متكافئا لجميع الناس، وضمان حرية الانصراف الى الحقيقة الموضوعية والتبادل الحر للافكار والمعارف ، تقرر تنمية العلاقات ومضاعفتها بين الشعوب تحقيقا لتفاهم افضل بينها ولوقوف كل شعب منها بصورة ادق واصدق على عادات الشعوب الاخرى .

« وبناء على ذلك ، تنشىء الدول بموجب هذا الميثاق منظمة الامم المتحدة للتربية والعلم والثقافة ، لكي تسعى ، عن طريق تعاون امم العالم في ميادين التربية والعلم والثقافة ، الى بلوغ اهداف السلم الدولي ، وتحقيق الصالح المشترك للجنس البشري ، وهي الاهداف التي انشئت من اجلها منظمة الامم المتحدة والتي ينادي بها ميثاقها » .

وورد في البند الاول من المادة الاولى من الميثاق المذكور :

« تستهدف المنظمة المساهمة في صون السلم والامن بالعمل عن طريق التربية والعلم والثقافة على توثيق عرى التعاون بين الامم ، لضمان الاحترام الشامل للعدالة والقانون وحقوق الانسان والحريات الاساسية لكافة الناس دون تمييز بسبب العنصر او الجنس او اللغة او الدين كما اقرها ميثاق الامم المتحدة لسائر الشعوب . »

واذن فان الاونيسكو نشات في الاساس لتخدم اهدافا سياسية وانسانية عليا ، عن طريق التعاون الدولي المتكافىء في مجالات التربية والعلم والثقافة والاعلام ، ولذلك كان المفترض منذ البداية ان تكون اهداف صيانة سلم عادل مديد ، في العالم ، ومكافحة الاستعمار والعنصرية ، واحترام حقوق الانسان ، في المقدمة من بين الاهداف الاساسية للاونيسكو ، برغم ان الاشكال والاساليب والاطر التي يمكن ان تسلكها او تتبناها لخدمة هذه الاهداف قد تختلف عما يجري في الامم المتحدة .

غير ان قيام الامم المتحدة ووكالاتها المتخصصة (والاونيسكو على رأسها) والمواثيق والشعارات والوعود النبيلة لم تستطع بحد ذاتها ان تخلق في العالم علاقات دولية جديدة اساسها المساواة والحرية والعدالة . فسرعان ما اخذت الامبريالية الاميركية تستغل مركز الافضلية الذي تمتعت به بفضل الحرب الثانية ، واحتكارها الذري ، وتسعى لبسط سيطرتها على الشعوب ، وبدات بانتهاج سياسة الحرب الباردة وحافة الحرب الساخنة ، وكانت الدول الاستعمارية الاخرى تحاول بكل الوسائل الحفاظ على مستعمراتها وتوابعها . حقا ان ميزان القوى العالمي كان قد تغير نحو الافضل بفضل انتصار الثورات الشعبية في الصين وغيرها ، وقيام منظومة اشتراكية كبرى ، ونجاحات حركات التحرر الوطني . غير ان القوى الامبريالية والعدوانية ، بقيادة الولايات المتحدة الاميركية ، ظلت تفرض بصماتها ومناوراتها وحروبها العدوانية على مسرح العلاقات الدولية ، وهذا مما كان ينعكس على موازين القوى داخل الامم المتحدة والاونيسكو ، وبالتالي على قرارات وممارسات هاتين الهيئتين الدوليتين . او لم تتم الجريمة التاريخية الفظيعة بتقسيم فلسطين في الامم المتحدة وعن طريقها (طبعا ساعد هنا سوء تقدير بعض القوى الدولية الصديقة والمواقف والسياسات المهلكة للانظمة العربية وقتذاك) ؟؟

الم تستطع الولايات المتحدة ان تتدخل عسكريا في كوريا عام ١٩٥٠ تحت راية الامم المتحدة بالذات ؟

اما بالنسبة للاونيسكو فان نشاطها العام الغالب كان فنيا محضا تقريبا ، وكانت الدول الغربية هي ذات الوزن المؤثر والاول ، وكانت انماط المثل والافكار والثقافات والتربية البرجوازية - الغربية - هي الاكثر رواجا وانتشارا ففي السنوات التي تلت الحرب العالمية الثانية كانت غالبية الدول المتنامية مستعمرات مباشرة او اشباه مستعمرات ومنها بالطبع اغلب الدول العربية . كما ان الدول الاشتراكية لم تكن كلها عضوة في الاونيسكو ، ولا هي ذات وزن فعال فيها . اما حركات التحرر الوطني فلم تكن الاونيسكو لتعنى بالالتفات الجدي اليها واقامة اي شكل من العلاقات او الصلات معها .

* * *

غير انه منذ العقد الثاني الذي تلا نهاية الحرب شرعت بالتبلور والبروز والنمو ظواهر جديدة على المسرح الدولي ، وعلاقات قوى جديدة . فقد انكسر الاحتكار الذري الاميركي ، وازداد وزن وقوة الدول الاشتراكية ، ونهضت حركات التحرر الوطني بخطوات جبارة الى امام ولا سيما في الوطن العربي . فبعد الثورة المصرية انتصرت ارادة النضال العربي على العدوان الثلاثي لعام ١٩٥٦ ، واندلعت ثورة الجزائر وانتصرت ، وحطم شعب العراق حصن الملكية العميلة واغلال حلف

بغداد . وبعيدا بعيدا انتصرت كوبا . واما في افريقيا فقد شهدت سنوات ما بعد ١٩٦٠ نجاحات باهرة لحركات التحرر الوطني فيها ، وبرزت في القارة السوداء دول مستقلة ومتنامية ... هذه النجاحات والانتصارات تمت وسط عراقيل وصعوبات كبيرة ، ورافقتها انتكاسات وتراجعات هنا وهناك لصالح القوى الامبريالية والرجعية . ولكن الخط البياني الغالب كان لصالح القوى المحبة للحرية والمناضلة ضد الاستعمار . وبجانب هذا التيار التحرري والثوري العام ، برزت ظواهر دولية هامة اخرى ، على رأسها سياسة الوفاق بين الدولتين الاعظم ، والصراع السوفياتي ـ الصيني المؤسف .

وقد وجدت جميع هذه الظواهر الدولية الجديدة انعكاساتها المختلفة وبدرجات متفاوتة على نشاط وممارسات الامم المتحدة ووكالاتها المتخصصة ولا سيما الاونيسكو . كان لبعض هذه الظواهر انعكاسات سلبية ، غير ان الرجحان كان لكافة الظواهر الايجابية وانعكاساتها المؤثرة باتجاه زيادة وتعميق التأثيرات التحررية والتقدمية في انشطة هذه الهيئات ورجحان كفة القوى المناضلة فيها وتطوير تركيبها، وشمولية تمثيلها الدولي ... اما بالنسبة للوزن العربي في الهيئات الدولية الحكومية ، ومنها الاونيسكو ، فقد ازداد ثقلا وتأثيرا مع اندلاع حرب اكتوبر العربية ـ الاسرائيلية برغم وجهات النظر او المآخذ على كيفية ادارتها وعلى طريقة استخدام السلاح البترولي خلالها وبعدها .

* * *

ففي ظل هذه الاوضاع والظروف الدولية الجديدة ذات الانعكاس على الامم المتحدة والاونيسكو اصبح بالامكان اتخاذ قرارات دولية سليمة وصحية لصالح قضايانا القومية ولا سيما القضية الفلسطينية .
وهنا نود التأكيد على الحقائق التالية :

١ ـ ان افضل القرارات التي تصدرها هذه الهيئات الدولية لن تعني بحد ذاتها وبمعزل عن التطبيق شيئا خطيرا ذا حسم . انها قد تكون ذات قيمة معنوية وسياسية انسانية هامة ، غير ان ما هو اهم والذي يشكل المغزى الاخير ، هو ترجمة هذه القرارات الى حيز التنفيذ. وهذا ما تعرقله في العادة الولايات المتحدة والسائرون في ركابها ، او قد يجري مسخ القرارات الجيدة والتحايل عليها وتجريدها من روحها. ولدينا ـ وهذا هو المثال الصارخ ـ سلسلة من القرارات الصادرة عن الامم المتحدة ومجلس الامن والاونيسكو عن القدس ، واستمرار الكيان الصهيوني بخرق هذه القرارات ، وتحديها ، وعصيانها مدعوما في ذلك بالقوة الاميركية الغاشمة .

اننا لسنا ممن يعلقون الاوهام على الهيئات الدولية او يعتبرون قراراتها غاية بحد ذاتها ، او ان طريق الامم المتحدة هو السبيل الاوحد لنيل الحرية والحقوق الضائعة، اذ ان حقوق العرب في فلسطين لا تسترد الا بالكفاح الفلسطيني العربي ، مهما كان طويلا وشاقا .

الا اننا من الجهة الثانية لا نلغي دور الهيئات الدولية ، ولا نقلل من اهميتها على الصعد السياسية والدبلوماسية والمعنوية والسيكولوجية. وان للقرارات الجيدة التي تصدر عن هذه الهيئات مفعولها الذي لا ينكر في تنوير الرأي العام الدولي الخير وتعبئته لتأييد قضايانا القومية وسائر القضايا التحررية ... وان العمل الدبلوماسي والاعلامي ، له بالتأكيد دوره وتأثيره الايجابيان اذا ما مورس بالشكل الصحيح واذا ما وضع في خدمة الاهداف القومية وفي خدمة الكفاح التحرري ـ القومي نحو هذه الاهداف . فللعمل في الامم المتحدة ووكالاتها المتخصصة فوائده وتأثيراته الايجابية ، التي لا يجب ان تنكر ، وبالتالي ينبغي تعزيز وتنشيط وتطوير الوجود والعمل العربيين فيها ، وبذل الجهود المبرمجة والمثابرة لاستثمار منابرها وامكاناتها لخدمة قضايانا القومية العليا بشكل او اخر .. وانه لمن الخطأ الفادح ان ينظر الى الامم المتحدة والاونيسكو نظرة اوضاع عام ١٩٥٠ حيث كان الدور الراجح في هذه الهيئات هو للولايات المتحدة وشركائها وتوابعها . فالتغييرات الدولية العميقة التي جرت في العالم ، قد عكست نفسها تدريجيا على عمل ونشاط هذه الهيئات ، حتى اصبح للقوى التحررية الدور الراجح فيها . وهو ما اصبحت الدوائر الاميركية والصهيونية تسميه «بالاكثرية الآلية» وما هي بأكثرية « آلية » بل انها انعكاس لموازين القوى الدولية في يومنا هذا .

٢ ـ لقد كان عام ١٩٧٤ عام فلسطين في الهيئات الدولية ولا سيما في الامم المتحدة والانيسكو . ونود الاشارة هنا الى ان ثمة منطلقين اساسيين مختلفين في فهم الموضوع وتقديره ، والاهداف المتوخاة من وراء طرح القضية على الامم المتحدة (ووكالاتها) . فهناك المنطلق الذي يفهم من ذلك كله احد السبل المؤدية الى تسوية ما وجزئية للقضية الفلسطينية وللصراع العربي ـ الاسرائيلي ، وهناك المنطلق الذي يستهدف تعزيز وتوسيع البعد الدولي للقضية الفلسطينية ، ووضع هذا البعد (وكل نشاط دبلوماسي واعلامي) في خدمة الكفاح الثوري العادل للشعب الفلسطيني وللامة العربية والذي يجب ان ينتهي بانتصار حاسم ومتكامل مهما طال الطريق وفدحت التضحيات ..

٣ ـ وبالنسبة للاونيسكو ،وبالاضافة الى التقديرات الخاطئة التي حذرنا منها اعلاه (تالنظر اليها بمعايير ما قبل عشرين عاما) ، توجد افكار وتقديرات اخذت الدوائر الاميركية والصهيونية تغذيها في السنوات القليلة الماضية ومؤداها ان الاونيسكو منظمة ذات طابع فني بحت ولا يجب ان تتناول السياسة باي شكل من الاشكال. والمؤسف ان بعض العرب يقعون احيانا ضحية لهذه التقديرات الخاطئة والضارة . ان ما تسميه الدوائر الامبريالية والصهيونية ب « تسييس » الاونيسكو ليس الا ستارا من دخان لاخفاء حقيقة نشاط واهداف هذه الدوائر داخل المنظمة الدولية المذكورة ، ومحاولة جديدة للتصدي لارادة الخير منها ، ولعرقلة المنظمة من اداء مهماتها الانسانية والحضارية الكبرى . وكما رأينا فان ابرز الاهداف المسطرة للاونيسكو ذات علاقة وثيقة بقضايا العمل من اجل سلام عالمي عادل والدفاع عن حرية الشعوب ، وضد الاستعمار ، والعنصرية والفاشية وفي سبيل احترام حقوق الانسان والمساواة بين الشعوب في ظل العدالة .
هذا اولا .

وثانيا ، ليس في عصرنا حدود اعتباطية عازلة بين السياسة وغير السياسة . في عصرنا اصبحت السياسة تدخل حتى الماء الذي نشرب والهواء الذي نستنشق .

وثالثا ، ان الاوساط الامبريالية هي التي كانت تقحم السياسة في الاونيسكو باستمرار ، وتحاول تسخير البرامج الثقافية والتربوية لاهداف سياسية معلومة .كما انها كانت المسؤولة عن ابعاد الصين الشعبية والمانيا الديمقراطية وكوريا الشعبية وحركات التحرر الافريقية وغيرها عن عضوية المنظمة ، وذلك لاسباب سياسية وليس لاسباب ثقافية او « فنية » .. وفي كل مرة تجد الولايات المتحدة وتابعها الكيان الصهيوني ان احد القرارات الاونيسكوية لا تروق لهما ، فانهما يشرعان باطلاق الضجيج والزعيق حول ما يدعى ب « تسييس الاونيسكو » ومخاطر هذا « الانحراف » المزعوم ، يرافق ذلك كله الوعيد والتهديد .

* * *

ـ ٢ ـ

مع المؤتمر العام الثامن عشر للاونيسكو

افتتح المؤتمر العام الثامن عشر يوم ١٧ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٤ وانتهت اعماله مساء ٢٣ تشرين الثاني (نوفمبر) الماضي . ويمكن القول ان المؤتمر المذكور كان احد اهم مؤتمرات الاونيسكو

واكثرها حيوية وكذلك تعقيدا .

وبالاضافة الى القرارات الخاصة بتوسيع استعمال اللغة العربية في الاونيسكو وتبني مشروع جيد لدراسة الثقافة العربية ، ناقش المؤتمر عدة قضايا ذات طابع سياسي تخص البلاد العربية مباشرة، واتخذ بصددها قرارات . كما اتخذ قرارات اخرى هامة ذات طابع سياسي تتعلق بمهمات الاونيسكو على الصعيد الدولي في مكافحة الاستعمار والفاشية والعنصرية ، واسناد الحركات التحررية ،ومنها حركة التحرير الفلسطينية . واتخذ قرارا بادانة الارهاب الفاشي في تشيلي ، وقرارا بالاحتفال بالذكرى الثلاثين للانتصار على الفاشيةفي الحرب العالمية الثانية . كما ناقش المؤتمر القضايا الخاصة باقامة نظام اقتصادي دولي ودور الاونيسكو في ذلك حيث اسهمت بعضالوفود العربية اسهاما نشيطا في دحض الافكار والدعايات التهويشية الامبريالية ـ الصهيونية ضد الاقطار العربية .

وبالاضافة الى القرارات السياسية العمومية (ذات الطابعالشامل) التي تمس هي الاخرى وبشكل او اخر قضايانا القومية ، فان هناك اربع مسائل اساسية اخرى كانت ذات صلة مباشرة بقضايانا القومية وبالصراع العربي ـ الاسرائيلي . ونعني :

١ ـ طلب دعوة منظمة التحرير الفلسطينية للمشاركة كعضو مراقب ، في انشطة اليونسكو ومؤتمراتها .

٢ ـ ما يخص التعليم والثقافة في الاراضي العربية المحتلة .

٣ ـ حول استمرار الحفريات الاسرائيلية في مدينة القدسوالامعان في تغيير معالمها وشخصيتها المتميزة .

٤ ـ الطلب الاسرائيلي بالانضمام الى ملاك المجموعة الاوروبية في الاونيسكو كعضو اصيل ، للمشاركه في انشطتها بحقوق كاملة .

اما حول قبول منظمة التحرير الفلسطينية فقد اوصت بذلك دورة المجلس التنفيذي للاونيسكو التي سبقت مباشرة انعقاد المؤتمر (دورة ايلول ١٩٧٤) برغم المعارضة الاميركية وامتناع الدول الغربية . وكانت التوصية تعني ان الطريق اصبح ممهدا لكي يصادق المؤتمر عليها ، وهو ما تم بالفعل في الفترة الاولى من اعمال المؤتمر. وبالطبع فقد انطلق الصراخ التهويشي الاسرائيلي على اثر قرار الموافقة، مدعوما بالوفد الاميركي . وباتخاذ القرار المذكور فان الاونيسكوسجلت لنفسها شرف المبادرة قبل قرارات الجمعية العامة للامم المتحدة الى قبول منظمة التحرير للمساهمة في انشطة اليونسكو ومؤتمراتها، ولما كان القراران حول مسالة القدس وحول الطلب الصهيوني بالانضمام الى المجموعة الاوروبية قد اثارا اكبر قدر من السعار الامبريالي الصهيوني فسوف نركز عليهما في هذا المجال .

* * *

ـ ٣ ـ

قضية القدس

ان اصل مشكلة القدس هو اغتصابها بقوة السلاح الصهيوني وفرض الاحتلال العسكري عليها ، الشطر الاول على اثر قيام الكيان الاسرائيلي والشطر الاخر على اثر كارثة حرب ١٩٦٧ ، وهو الذي يدعى بالشطر العربي ، بينما الشطران هما في واقع الحال عربيان .ومعلوم ان هيئة الامم المتحدة لم تعترف بالاحتلال العسكري الصهيوني لمدينة القدس . ومنذ الاحتلال الثاني لعام ١٩٦٧ اخذت سلطات الاحتلال تتخذ الاجراءات العملية لتنفيذ خطة لتهويد القدس كلها ، وذلك باجراء الحفريات فيها ، وتغيير معالمها التاريخية والثقافية المتميزة وتحويلها الى مدينة يهودية ((عصرية)) كأية مدينة اسرائيليةاخرى.

وقد اتخذت الامم المتحدة ومجلس الامن اعتبارا من تموز (يوليو) ١٩٦٧قرارات متعددة ومتتالية تدين هذه الاجراءات وتدعو حكومة الكيان الصهيوني للامتناع عنها . وفي الدورة الخامسة عشرة للاونيسكو لعام ١٩٦٨ ، جرى اتخاذ قرارات مماثلة وجدت توكيدها اللاحق في قرارات دورات المجلس التنفيذي ، ثم الدورة السابعة عشرة للمؤتمر العام (١٩٧٢) وجميع هذه القرارات كانت تدين موقفالعدو الاسرائيلي واجراءاته ، وتدعوه للكف الفوري عنها بسبب خرقها لبنود اتفاقية لاهاي لعام ١٩٥٤ حول حماية الممتلكات الثقافية في حالة قيام نزاع مسلح . وقد استغل العدو الصهيوني وحماته واعوانه الطابع الفضفاض لبعض بنود الاتفاقية المذكورة لتبرير اجراءات الحفر والتغيير وعرضها بوصفها ((تحسينا)) او ((تطويرا)) و ((تعميرا)) والحال ان هناك تفسيرين لهذه البنود ، التفسير الاستعماري ، العدواني ، الذي تاخذ به السلطات الصهيونية ، والتفسير السليم الذي قامت على اساسه قرارات الاونيسكو وهيئة الامم المتحدة بهذا الصدد ، وهي قرارات صريحة واضحة وقاطعة ، وتدعو الكيان الصهيوني الى الكف على الفور عن القيام باية حفريات وتغييرات في مدينة القدس مهما كان شكلها ومهما كانت المبررات والحيثيات المقدمة .

وكان انصار العدو داخل جلسات المجلس التنفيذي للاونيسكو ومؤتمراتها العامة ينبرون في كل مرة لتخفيف نبرة القرارات المتخذة، واعتبار مجرد كلمة ((ادانة)) ((خروجا)) من الاونيسكو عن واجباتها ، وفرض نفسها ((محكمة)) لا يمكن ان تجد سندا من دستورها ! وقد قرر المجلس التنفيذي في دورته الرابعة والتسعين وباكثرية الاصوات احالة الموضوع كله الى المؤتمر العام الثامن عشر للبت فيه بعد ان استنفدت عبارات ((الشجب)) و((التانيب)) و ((الادانة)) اغراضها ، ولم تزد سلطات الاغتصاب الصهيوني الا اصرارا على الاستهتار بالراي العام الدولي والتمرد على قرارات الهيئات الدولية .

وقد تدارس المندوبون الدائمون العرب لدى الاونيسكو الامر قبل المؤتمر ، واتفقوا على صيغة لمشروع قرار ، طرحوها للمناقشة على عدد من الوفود الصديقة من اشتراكية واسلامية وافريقية ، وانتهت حصيلة المناقشات التمهيدية الواسعة هذه الى الاتفاق على مشروع قرار يمثل الحد الادنى مما يجب ان تقبل به الدول العربية ، ووقعت على المشروع المذكور سبع واربعون دولة عضو في الاونيسكو .والمشروع اذ يؤكد على جميع القرارات الدولية بشان القدس واذ يدينإسرائيل ((لموقفها المناقض للاهداف التي تتوخاها المنظمة كما وردت في ميثاقها التاسيسي وباستمرارها في تغيير معالم مدينة القدس التاريخية وفي اجراء الحفريات التي تشكل خطرا على آثارها ، وذلك عقب احتلالها غير الشرعي لهذه المدينة .)) ، فانه (اي المشروع)يدعو في فقرته الاجرائية الثالثة المدير العام الى :

((عدم تقديم اي عون في ميادين التربية والعلم والثقافة الى اسرائيل ، وذلك الى ان تحترم بدقة القرارات المشار اليها آنفا .

ونقول انه مشروع للحد الادنى ، لان دولة عدوانية مغتصبة كاسرائيل لا تستحق اساسا شرف عضوية الاونيسكو وهياة الامم المتحدة، كما ويجب ان تجابه بمقاطعة دولية شاملة في جميع الميادين .

ومنذ الايام الاولى للمؤتمر الثامن عشر اخذ يتضح اكثر فاكثر ان الفقرة الثالثة من المشروع ستكون محور صراع دبلوماسي وسيكولوجي مرير ، لان الولايات المتحدة الاميركية عزمت على منع اقرارها اما تتضمنه من عقوبات جزئية على اسرائيل ، وان مغزى تلك العقوبات ليس في حجم المساعدات الاونيسكوية التي ستقطع ، بل في المدلول السياسي البين للقرار والذي سيكون اول قرار من نوعه تتخذه هيئة دولية حكومية تجاه العدو الاسرائيلي .

ولما فشلت جهود الوفد الاميركي ووفود غربية اخرى لتعديل مشروع القرار قام وكيل وزارة الخارجية الاميركية لشؤون المنظمات

الدولية بزيارة مفاجئة للاونسكو سبقتها تهديدات اميركية غير مباشرة بان اقرار المشروع سيؤدي الى ان تقطع الولايات المتحدة مساهمتها الاونيسكوية التي تبلغ الربع ، وهذا يعني ، بالطبع ، ارباك الوضع المالي للمنظمة وتعقيده ، وتقليص مشاريعها وانشطتها . وقد طلب المسؤول الاميركي المذكور مقابلة الوفود العربية في اجتماع خاص ، فاستجابت لطلبه وفود عديدة منها ، حيث جرى بين الجانبين نقاش طويل لم يسفر عن نتيجة .

وهنا بدل الاميركان تكتيكهم فبدلا من التصدي المباشر والمكشوف، اوعزوا الى بعض الوفود الاخرى ولا سيما من بين بعض الافارقه ، للقيام بالدور ذاته (دور الضغط المركز من اجل تعديل مشروع القرار بما ينسف جوهره) . وقد درست اللجنة الثقافية للمؤتمر العام بعد تاجيلات تلفت النظر مشروع القرار ، وشهدت الجلسات المطولة مناقشات ومساجلات حادة . وكان ابرز ما يلفت النظر ان بعض المندوبين الافارقة ، ولا سيما مندوب داهومي (محام ثري ومقيم بباريس) استخدموا كل ما في جعبتهم لعرقلة ومنع اقرار المشروع ، ولفرض تعديلات جوهرية عليه . وكانت نقطة الخطر في اللعبة هي محاولة شق التضامن العربي – الافريقي بتصوير القضية وكأنها موجهة ضد مصالح الدول الافريقية بل وضد السيد م – باو ، المرشح الافريقي لمنصب المدير العام .. ولم تلهب هذه المحاولات الماكرة من دون تأثير . فقد اضطرت مجموعة الوفود العربية الى ان تدرس وتناقش مرة بعد اخرى ما اذا كان يجب ان تعدل القرار « لترضية الافارقة » وفي كل مرة كانت تنتهي الى ضرورة عدم التغيير خصوصا والمشروع لم يعد عربيا بل وقعت عليه دول اخرى ، لم تطالب اية منها باجراء ابسط تعديل ... وفي وسط الضغوط والمناورات ، كانت المجموعة العربية تشرع ببحث الامر مجددا ، لتنتهي الى القرار ذاته – وهكذا دواليك .

ومهما يكن ، فان المفرح في الامر ان المحصلة النهائية كانت في الاصرار على المشروع وعلى عدم تعديله بأي شكل من الاشكال . وقد حصل المشروع في اللجنة الثقافية على اغلبية ٥٤ صوتا وامتناع ٢٥ صوتا ومعارضة ٢١ صوتا : الولايات المتحدة والدول الغربية وعدد من دول اميركا اللاتينية مثل كوستاريكا وهندوراس والاكوادور ... وفي ٢٠ نوفمبر ١٩٧٤ ، وبعد مناورات وضغوط مكثفة جديدة ناقشت الجلسة العامة توصية اللجنة الثقافية ، فاقرت باغلبية ٦٤ صوتا ومعارضة ٢٧ وامتناع ٢٦ .

وسواء في مناقشات اللجنة الثقافية او الجلسة العامة ، فان وفودا صهيونية عديدة تجمعت تحت اسماء شتى لتاخذ حق الكلام ، ولتحاول التأثير على مجرى المناقشات . غير أن محاولاتها باءت بالفشل وقد لقيت اباطيل حججها ردودا علمية مفحمة من جانب بعض المندوبين العرب . فقد بين هؤلاء أن المسالة ليست مسالة دينية ، او قضية « حرب ضد اليهودية » كما ادعى المندوبون الصهاينة ، بل انها قضية اغتصاب بالقوة لاراضي الاخرين ، واستهتار بارادة الراي العام الدولي والقرارات الدولية ، وان الكيان الاسرائيلي هو الذي يمارس اخر طبعات « اللاسامية » الموجهة ضد العرب (وهم ايضا ساميون) . اما التلاعب بقضية ضحايا اليهود في الحرب العالمية الثانية فهو مفضوح ، لان تلك الجرائم لم تقترف في الاقطار العربية حيث عاش اليهود والعرب بامان ، ولان الامة العربية قد شجبت وتشجب تلك الجرائم النازية وامثالها . ثم ان الاعلام الصهيوني يتناسى عن عمد ان ضحايا الفاشية خلال الحرب كانوا اكثر من خمسين مليونا (*) من البشر وليس الخمسة او الستة ملايين يهودي وحسب . ثم ان الفاشية هي عقلية ونظام وممارسة ، وان اسرائيل تمثل الطبقة الجديدة لفاشية ما بعد الحرب العالمية الثانية ، فهي ايضا دولة اعتدائية ، وتقوم على اساس عقلية التفوق والتمييز العنصريين ، وتسعى لابادة الشعب الفلسطيني ومحو شخصية فلسطين . واخيرا فان الصهيونية لا تستطيع ان تدعي تمثيل جميع يهود العالم لان هناك فئات من اليهود وشخصيات بارزة منهم معادية للصهيونية ، من امثال العالم انشتين وغيره . اما الادعاء بان اتخاذ مثل هذا القرار « يضعف » الاونيسكو، فان الذي يضعفها هو التمرد على قراراتها ، وتحدي ميثاقها ، وان الاونيسكو لا يمكن ان تظل الى النهاية غير مكترثة للموقف الاسرائيلي المستهتر اذا كانت المنظمة حريصة على فرض احترام كلمتها وارادتها .

لقد كان اتخاذ القرار نجاحا دبلوماسيا ومعنويا ممتازا للحق العربي ، ولميثاق الاونيسكو الانساني الحضاري والثقافي ، فضلا عن انه شق طريق المبادرة امام الامم المتحدة نفسها لاتخاذ قرارات مماثلة. وقد كان لوحدة الموقف العربي (برغم التضارب في وجهات النظر) ولاسناد الدول الصديقة وثبات موقفها اثر حاسم في هذا النجاح .

وكما راينا ، فان هذا النجاح قد جاء بعد سلسلة طويلة من المناورات والضغوط، وقد نظم الصهاينة الفرنسيون قبل الجلسة العامة الخاصة تظاهرة استفزازية وقحة امام مبنى المؤتمرات ، شتموا خلالها اركان الحكومة الفرنسية . كما ان المدير العام السابق (رينيه ماهو) قد انضم الى الجوقة الصهيونية بنشره في لوموند وقبل ساعة واحدة فقط من افتتاح الجلسة العامة الحاسمة مقالا ماكرا مليئا بالسم للتشكيك بمشروع القرار العربي والتحذير منه . وكان هذا موقفا غير مسؤول اثار سخط اكثرية الوفود ، وطالب بعضها باتخاذ قرار بادانته علما بان المومى اليه تحاشى حضور جلسات اللجنة الثقافية اثناء المناقشات بحجة المرض !

– ٤ –

اسرائيل والمجموعة الاونيسكوية الاوربية

في الاونيسكو مجموعات خمس لانتخابات المجلس التنفيذي ، وهي المجموعة الاولى وتدخل فيها الولايات المتحدة واسرائيل ، والمجموعة الاشتراكية ، ومجموعة اميركا اللاتينية ، والمجموعة الاسيوية ثم المجموعة الخامسة وهي مجموعة افريقية – عربية مشتركة . والى جانب هذا التقسيم ثمة تقسيم جغرافي – ثقافي من حيث انشطة الاونيسكو من اجتماعات ومؤتمرات ومشاريع اقليمية . وكانت كل من الولايات المتحدة وكندا والكيان الاسرائيلي غير منتمية الى اية مجموعة من هذه المجاميع ، برغم حقها في حضور اية اجتماعات او مؤتمرات اقليمية ، ولكن بصفة مراقب لا كاعضاء اصلاء . وكانت الولايات المتحدة وكندا قد طالبتا منذ الدورة السابقة بالانتماء الى المجموعة الاوربية ، كما طالب الاتحاد السوفياتي بالانضمام الى كل من المجموعتين الاوربية والاسيوية معا باعتبار ان اراضيه متوزعة على القارتين ، وكذلك الامر ثقافيا . وقد ترك الامر للمجلس التنفيذي ، الذي اوصى بذلك باكثرية الاصوات . والواقع ان الامر كله اتخذ طابعا سياسيا في الجوهر . فقد عارضت فرنسا بشدة انضمام الولايات المتحدة الى المجموعة الاوربية وتدخلت مسبقا لدى الدول الاخرى ومنها الدول العربية لتاييد موقفها بهذا الشان . كما ان الصين الشعبية تعارض ، كما هو معروف – طلب السوفييت بالمساهمة بالانشطة الاسيوية مهما كانت طبيعتها . ولذلك فقد كان واضحا ان القضية ستكون موضع مجادلات حادة ومناورات وضغوط مختلفة عند بحثها في المؤتمر العام الثامن عشر وكان بديهيا ان القضية ستصبح اكثر سخونة بعد ان تقدم الوفد الاسرائيلي بطلب تعديل لتوصية المجلس التنفيذي يقضي بالموافقة على قبول الكيان الصهيوني ضمن المجموعة الاوربية . وقد شهدت جلسات اللجنة الخامسة المنبثقة عن المؤتمر العام مناقشات ومجادلات حامية جدا حول الموضوع برمته . وقد ايد الجانب العربي موقف فرنسا بعدم قبول الولايات المتحدة في المجموعة الاوروبية ، وكان هذا ايضا بفعل التاييد الاميركي المستمر

(*) عارض الوفد الاسرائيلي القرار الخاص باحياء ذكرى الانتصار على الفاشية في الحرب الثانية ، مما يفضح اكثر حقيقة الموقف الصهيوني .

لاسرائيل . كما ايدت الوفود العربية (بعد اتفاق مسبق) المطالبة السوفياتية مع الحرص التام على شرح الموقف العربي للوفد الصيني الصديق . اما بالنسبة للطلب الاسرائيلي ،فقد رفض باكثرية الاصوات. وهذا مما اثار الحركة الصهيونية المسعورة في فرنسا التي بادرت الى تنظيم اعتداء استفزازي جبان على مقر الوفود بالاونيسكو ، كما شرعت اكثر الصحف الفرنسية (والغربية الاخرى) التي اعماها الحقد العنصري على العرب ، والموالاة للصهيونية الى تشويه اخبار المؤتمر وقراراته والمبالغة والتهويل بتصوير الامر وكانه يعني « طرد اسرائيل من الاونيسكو ».

وبالطبع فان التوصية لا تعني ذلك رغم ان طرد اسرائيل هو امر مشروع لكونها لا تلتزم بميثاق الاونيسكو وقراراتها .

وقد بحثت الجلسة العامة يوم ٢١ نوفمبر ١٩٧٤ توصية اللجنة الخامسة بهذا الصدد ، ووضع الاقتراح الاسرائيلي في التصويت فسقط مجددا . وقد ايدته الولايات المتحدة والدول الغربية (ما عدا فرنسا التي سبق وعارضت الطلب الاميركي على اساس عدم انتماء الولايات المتحدة الى اوربا جغرافيا) كما ايدته دول من اميركا اللاتينية،مثل نيكاراغوا وبناما والبراغواي والاورغواي .

وبرغم ان الاكثرية التي اسقطت الاقتراح الاسرائيلي لم تكن كبيرة (غاب عدد كبير من الوفود عن الجلسة فان نتيجة الاقتراع كانت صدمة ادبية ومعنوية بليغة للكيان الصهيوني ولحماته وانصاره. فقد حاولت اسرائيل (والحركة الصهيونية الدولية) دائما عرض نفسها امام الاوربيين كجزء لا يتجزأ ثقافيا وحضاريا (وبالتالي سياسيا) منهم وان تقدم نفسها للعالم بصورة (المدنية المتقدمة)في رقعة من العالم تسودها الجهالة والتاخر بل والوحشية هي رقعة الوطن العربي .

ومن هنا سر السعار الصهيوني المحموم على قرار الاونيسكو هذا.

— ٥ —

قرارات المؤتمر دوليا وعربيا

ان القرارات السياسية التي اتخذتها الاونيسكو ،سواء تلك التي تخص ادانة العدو الصهيوني ومعاقبته جزئيا ، او التي تخص قضايا الكفاح ضد الاستعمار والعنصرية والفاشية ، قد اثارت حملة معادية مركزة من جانب الدوائر الامبريالية والحركة الصهيونية الدولية .

فأولا ، زادت القرارات المذكورة من عزلة اسرائيل دوليا . وثانيا ان هذه القرارات بمجموعها كانت تعبيرا حيا عن موازين القوى الدولية الجديدة في الاونيسكو ، وبرهانا على ان هذه المنظمة لم تعد مجرد مسرح لما تدبره بعض الدول الغربية او تخطط له .. وعلى اثر اكثرية امس الآلية ، الخاضعة للاهواء الاميركية ، نشأت اليوم اكثرية اخرى تعبر بشكل او اخر وبدرجة او اخرى ، عن التغييرات الدولية العميقة في ايامنا .. وهذه الحال لا يمكن ان لا تستفز الولايات المتحدة صاحبة العصي الغليظة ، والتي تريد ان تنصب من نفسها جندرمة دولية لتقرر كما تشاء مصائر الكون .

وقد اتخذت الحملة الامبريالية الصهيونية ضد الاونيسكو اشكالا واساليب عديدة في مقدمتها :

١ — الاعلام التهويشي الصاخب الذي تصدرته الصحافة الرجعية الفرنسية ، والذي سخر لاغراضه بعض الاسماء الادبية والفنية والثقافية التي لا تهتز ضمائرها امام الجرائم الاسرائيلية الوحشية المتكررة ، والتهجير الجماعي لعرب فلسطين واغتصاب وطنهم بقوة السلاح .

٢ — مبادرة بعض الحكومات والبرلمانات الغربية الى قطع او تقليص المساهمات الاونيسكوية . فمجلس الشيوخ الاميركي اتخذ قرارا بقطع هذه المساهمة . ومجلس الشيوخ الفرنسي قلص المساهمة الفرنسية بمقدار ١٠ بالمئة اما حكومة سويسرا فقد قررت نهائيا تقليص مساهمتها بمقدار ١٠ بالمئة اما رئيس وزراء هولندا فقد وجه نداء غريبا الى مدير عام الاونيسكو يطالبه فيها بالغاء قرارات المنظمة حول اسرائيل ، متناسيا انها قرارات اتخذتها اعلى هيئة دستورية في الاونيسكو وباكثرية الاصوات . وشأن هولندا هنا شأن الدول الغربية الاخرى التي نددت بقرارات اتخذت بالاساليب الديمقراطية ووفقا لميثاق المنظمة وقواعد العمل فيها . وهي بذلك تبرهن على ان ثرثرتها حول « الديمقراطية » لا تخرج عن الديماغوجية والنفاق .

٣ — محاولة تنظيم حملة مقاطعة ثقافية للاونيسكو ، ولكنها محاولة لا يمكن ان يكتب لها النجاح .

وواضح أن هذه الحملة المعادية المركزة ترتكز على عمودين اساسيين:

أ — محاولة خنق الاونيسكو ماليا لحرفها عن الطريق واعادتها الى حظيرة حفنة من الدول الغربية .

ب — وشن الاعلام التشهيري للاساءة الى سمعة المنظمة ،وتشويه قراراتها وبتشويهها في اطار الفرد العربي . وقد وجدت الصعوبات المالية المحتملة اهتماما جديا لدى الدول العربية ، ونعتقد ان مشاكل من هذا النوع ستجد حلولا سليمة وناجعة . وقد اتخذ المجلس التنفيذي للمنظمة العربية للتربية والعلوم والثقافة في اجتماعه الاخير في (ابو ظبي) توصيات تدعو الدول العربية القادرة ماليا الى تقديم قروض طويلة الاجل وبدون فوائد للاونيسكو والى المساهمة ايضا في صندوقها المالي المسمى بصندوق الودائع للصرف على مشاريع مختارة في عدد من البلدان النامية المحتاجة .

اما على الصعيد الاعلامي ، فان الاعلام العربي كان قاصرا ومقصرا جدا ، بينما كان الاعلام المعادي نشيطاً ، وفي خط بياني متصاعد النشاط . فأجهزة الاعلام العربية (الا في نطاق ضيق هنا وهناك) لم تكلف نفسها بمتابعة انباء المؤتمر الثامن عشر ، بل اكتفت بالاشارة المقتضبة والمتقطعة لها ، ونقلا عن مصادر غربية لا يحلو لغالبيتها نقل الوقائع بأمانة وموضوعية . وقد ظل المثقفون العرب على موقف سلبي تجاه الحملة الاعلامية المعادية .

ولذلك فاننا لنرحب تماما بمبادرة مجلة (الاداب) ونأمل ان تكون فاتحة لمبادرات اخرى وحافزا للمثقفين العرب على ايلاء الامر ما يستحق من جهد واهتمام ..

باريس — عزيز الحاج

المندوب الدائم للجمهورية العراقية لدى الاونيسكو



د . احمد فتحي سرور

اليونسكو وتراث القدس الثقافي

الجوانب القانونية للجزاء الذي اتخذته منظمة اليونسكو نحو اسرائيل بشأن مدينة القدس



تمهيد :

اصدر المؤتمر العام لليونسكو في دورته الثامنة عشرة (اكتوبر - نوفمبر ١٩٧٤) قرارا :

١ - يدين اسرائيل لموقفها المناقض للاهداف التي تتوخاها المنظمة كما وردت في ميثاقها التاسيسي باستمرارها في تغيير معالم مدينة القدس التاريخية وفي اجراء الحفريات التي تشكل خطرا على آثارها، وذلك عقب احتلالها غير الشرعي لهذه المدينة .

٢ - يدعو المدير العام الى عدم تقديم اي عون في ميادين التربية والعلم والثقافة الى اسرائيل ، وذلك الى ان تحترم بدقة القرارات التي اصدرها المؤتمر العام والمجلس التنفيذي لحماية التراث الثقافي في مدينة القدس .

ويعتبر هذا القرار هو الاول من نوعه في تاريخ منظمات الامم المتحدة ، الذي صدر بفرض جزاء على اسرائيل .

ويهمنا في هذا الشان ابراز الجوانب القانونية لهذا الجزاء ، وذلك عن طريق بيان الالتزامات التي خالفتها اسرائيل ، ونطاق هذه المخالفة ، والاساس القانوني لهذا الجزاء ، والنتائج القانونية المترتبة عليه .

الالتزامات التي خالفتها اسرائيل :

تلتزم اسرائيل باحترام الملكية الثقافية في مدينة القدس المحتلة بثلاثة التزامات . الاول تعاقدي بحت مصدره اتفاقية لاهاي لحماية الملكية الثقافية في حالة النزاع المسلح الصادرة عام ١٩٥٤ ، والثاني ادبي بحت مصدره توصية اصدرها المؤتمر العام الخامس عشر لليونسكو، والثالث قانوني دولي مصدره قرارات منظمات الامم المتحدة .

(اولا) الالتزام التعاقدي : تلتزم اسرائيل بمقتضى انضمامها لاتفاقية حماية الملكية الثقافية في حالة النزاع المسلح الصادرة في لاهاي عام ١٩٥٤ باحترام ما نصت عليه المادة الرابعة من هذه الاتفاقية. وتنص الفقرة الثالثة من هذه المادة على التزام الاعضاء المتعاقدين بتجريم ومنع كل عمل من اعمال السرقة او النهب او الاستيلاء او التخريب الموجه ضد الملكية الثقافية . كما تنص المادة الخامسة من هذه الاتفاقية على التزام الدولة المتعاقدة التي تحتل كل او بعض اقليم دولة اخرى ، بتقديم العون بقدر الامكان الى السلطات المختصة الوطنية للدولة المحتلة اراضيها لحماية وصون ملكيتها الثقافية .

(ثانيا) الالتزام الادبي : اوصى المؤتمر العام لليونسكو في دورته التاسعة (١٩٥٦) بانه في حالة النزاع المسلح تلتزم الدول الاعضاء التي تحتل اراضي دولة اخرى بالامتناع عن مباشرة اي عمل من اعمال الحفر الاثرية في الارض المحتلة . وجاء المؤتمر العام لليونسكو في دورته الخامسة عشرة (١٩٦٨) فاوصى الدول الاعضاء باحترام نصوص التوصية التي سبق ان اقرها في دورته التاسعة (القرار رقم ٣٣٤٢).

(ثالثا) الالتزام القانوني الدولي : حرصت منظمة الامم المتحدة منذ ١٩٦٧ على مطالبة اسرائيل باحترام الملكية الثقافية في مدينة القدس . وقد تضمنت هذه المطالبة المتكررة فرض التزام قانوني دولي تجاه المنظمة الدولية .

وتتمثل مصادر هذا الالتزام فيما يلي :

١ - قرارات الجمعية العامة للامم المتحدة : نص القراران رقم ٢٢٥٣ و ٢٢٥٤ الصادران في ٤ و ١٤ يوليه ١٩٦٧ على توجيه نداء الى اسرائيل لالغاء جميع التدابير التي اتخذتها والامتناع عن مباشرة اي فعل يغير وضع مدينة القدس . وعادت الجمعية العامة للامم المتحدة في قرارها رقم ٣٠٩٢ (ب) الصادر في ١٤ ديسمبر ١٩٧٣ ، فعبرت عن قلقها العميق لمخالفة اسرائيل الاتفاقيات والقواعد الدولية وخاصة فيما يتعلق بنهب الملكية الاثرية والثقافية في الاراضي المحتلة .

٢ - قرارات مجلس الامن:عني مجلس الامن منذ عام ١٩٦٩ بفرض التزامات على اسرائيل لعدم احداث اي تغيير في طابع مدينة القدس. فاصدر القرار رقم ٢٦٧ في ٣ يوليه ١٩٦٩ منتقدا باقوى العبارات جميع التدابير التي اتخذت لتغيير وضع مدينة القدس ، مؤكدا ان جميع التدابير التشريعية والادارية والاعمال التي اتخذتها اسرائيل لتغيير وضع القدس تعتبر غير صحيحة ولا يمكنها ان تغير من وضع هذه المدينة . وقد وجه هذا القرار مرة اخرى نداء عاجلا الى اسرائيل لالغاء جميع التدابير التي اتخذتها لتغيير وضع مدينة القدس . وفي ٢٥ سبتمبر من عام ١٩٧١ اصدر مجلس الامن القرار رقم ٢٩٨ الذي يشجب فشل اسرائيل في احترام القرارات التي اتخذتها الامم المتحدة

فيما يتعلق بالتدابير والاعمال التي قامت بها لتغيير وضع مدينة القدس . واكد القرار ما سبق ان عبر عنه في قراره السابق رقم ٢٦٧ لسنة ١٩٦٩ بشأن ابطال جميع التدابير التي اتخذتها اسرائيل لتغيير وضع المدينة ، ومطالبتها بالغاء هذه التدابير .

٣ ــ قرارات المؤتمر العام لليونسكو : بحث المؤتمر العام لليونسكو في دورته الخامسة عشرة (١٩٦٨) هذه المسألة للمرة الاولى ، واتخذ قرارا بدعوة اسرائيل على وجه السرعة للالتزام بالقرار الذي اتخذته الامم المتحدة في هذا الشان ، ومطالبا اياها :

(أ) ان تحترم بكل دقة جميع المواقع والمباني الثقافية الاخرى ، وخاصة في مدينة القدس القديمة .

(ب) أن تمتنع عن جميع الحفريات الاثرية ، وعن نقل الملكيات والتغيير في طابعها او خصائصها الثقافية والتاريخية (القرار ٣٣٤٣)، ومنذ ذلك الوقت بدأ المجلس التنفيذي لليونسكو في بحث هذا الموضوع عدة مرات ، فاكد الالتزامات القانونية الدولية التي وردت في القرارات السابقة التي صدرت من الجمعية العامة للامم المتحدة ومجلس الامن والمؤتمر العام لليونسكو ، وطلب من المدير العام لليونسكو ان يؤكد وجود اليونسكو في مدينة القدس لضمان التنفيذ الفعال للقرارات التي اتخذها المؤتمر العام والمجلس التنفيذي في هذا الشان .

وظل الموضوع معلقا دون تنفيذ حتى عاود المؤتمر العام لليونسكو في دورته السابعة عشرة (١٩٧٢) بحث انتهاكات اسرائيل للتراث الثقافي في مدينة القدس . وفرض المؤتمر مرة اخرى التزامات قانونية دولية على اسرائيل (القرار رقم ٣٤٢٢) وتتمثل هذه الالتزامات فيما يلي :

(أ) اتخاذ التدابير اللازمة للحرص البالغ على صون جميع المواقع والمباني والاثار وغيرها من الممتلكات الثقافية ، ولا سيما تلك الموجودة في مدينة القدس القديمة .

(ب) الامتناع عن اي تغيير لمعالم مدينة القدس .

(جـ) الامتناع عن اية اعمال للتنقيب عن الاثار ، وعن نقل الممتلكات الثقافية وعن اي تغيير في معالمها او طابعها الثقافي والتاريخي، وخاصة فيما يتعلق بالمواقع الدينية المسيحية والاسلامية .

(د) التقيد بدقة باحكام الاتفاقية الخاصة بحماية الممتلكات الثقافية في حالة قيام نزاع مسلح (لاهاي ، ١٩٥٤) وبالقرارات المذكورة اعلاه .

٤ ــ قرارات المجلس التنفيذي لليونسكو : تابع المجلس التنفيذي لليونسكو مدى احترام اسرائيل للالتزامات القانونية الدولية المفروضة عليها بشان مدينة القدس . فبدأ يطالب اسرائيل منذ دورته الثانية والثمانين (ابريل ١٩٦٩) باحترام هذه الالتزامات (القرار رقم ٤٤٢)، مؤكدا من جديد مضمونها (القرار رقم ٤٣١ في الدورة الثالثة والثمانين والقرار رقم ٤٣١ في الدورة الثامنة والثمانين) . وفي الدورة الثامنة والثمانين للمجلس التنفيذي ، وبقصد تاكيد تنفيذ قراراته وقرارات المؤتمر العام تنفيذا فعالا ، دعا المجلس المدير العام الى ضمان وجود اليونسكو في مدينة القدس . ولكن اسرائيل رفضت رفضا قاطعا السماح للمنظمة بان تكفل احترام قراراتها وتنفيذها . وفي الدورة التاسعة والثمانين للمجلس التنفيذي ، اعرب المجلس عن « استنكاره الشديد لموقف اسرائيل السلبي » ، وجدد بالحاح النداء الذي وجهه لاسرائيل للعمل على اتخاذ التدابير اللازمة للمحافظة على جميع المواقع التاريخية محافظة وثيقة (القرار رقم ٤٤١) . وفي دورته التسعين ، لاحظ المجلس التنفيذي ان موقف اسرائيل لا يشكل استجابة مرضية لقراراته السابقة (القرار رقم ٤٣١).

وعقب صدور قرار المؤتمر العام لليونسكو في دورته السابعة عشرة (رقم ٣٤٢٢) اوفد المدير العام لليونسكو ممثله في مدينة القدس لوضع تقرير عن مدى احترام اسرائيل للالتزامات القانونية الدولية المفروضة عليه . وبحث المجلس التنفيذي لليونسكو في دورته الرابعة والتسعين هذا التقرير ، ثم اصدر قرارا يتضمن اقتناعه من بعض جوانب التقرير المذكور بان « اسرائيل ماضية في عدم احترام القرارات الصادرة في هذا الصدد ، وان موقفها هذا يمنع المنظمة من اداء الرسالة التي اناطها بها ميثاقها التأسيسي » (القرار رقم ٤٤١)، ثم قرر المجلس ادانة استمرار اسرائيل في انتهاك القرارات سالفة الذكر التي اصدرها المؤتمر العام والمجلس التنفيذي ، وعرض الامر على المؤتمر العام في دورته الثامنة عشرة للنظر في القرارات الواجب اتخاذها بشان التدابير الاخرى المناسبة والداخلة في اختصاصه .

نطاق مخالفة اسرائيل :

خالفت اسرائيل جميع الالتزامات المفروضة عليها بشان مدينة القدس ، بجميع مصادرها التعاقدية ، والادبية ، والقانونية الدولية .

وقد ثبتت هذه المخالفة بقرارات الامم المتحدة ذاتها .

فقد قررت الجمعية العامة للامم المتحدة شجب اخفاق اسرائيل في تنفيذ قرارها في شان مدينة القدس (القرار رقم ٢٢٥٤ في ١٤ يوليه ١٩٦٧) ، والتعبير عن قلقها العميق لهذه المخالفة (القرار رقم ٣٠٩٢ (ب) في ١٤ ديسمبر ١٩٧٣) .

كما قرر مجلس الامن شجب اخفاق اسرائيل في احترام هذه القرارات (القرار رقم ٢٩٨ في ٢٥ سبتمبر ١٩٧١) .

وقد استخدمت منظمة اليونسكو كافة الوسائل الممكنة لحمل اسرائيل على تنفيذ التزاماتها بشأن القدس . فتدرجت من توجيه النداء الى اسرائيل (قرار المؤتمر العام الخامس عشر رقم ٣٣٤٣) ، الى مطالبتها بذلك (قرار المجلس التنفيذي في دورته الثانية والثمانين رقم ٤٤٢) ، الى التعبير عن قلقها العميق نحو انتهاكات اسرائيل لهذه القرارات (قرار المجلس التنفيذي في دورته الثالثة والثمانين رقم ٤٣١) ، الى توجيه النداء العاجل الى اسرائيل لاحترام هذه القرارات ، مع دعوة المدير العام الى كفالة وجود اليونسكو لضمان التنفيذ الفعال لهذه القرارات (قرار المجلس التنفيذي في دورته الثامنة والثمانين رقم ٤٣١) ، الى استنكار استمرار اسرائيل للحفريات الاثرية في مدينة القدس ، وتنبيه اسرائيل ضمنا الى ما سيتخذه من تدابير لازمة على ضوء تقرير المدير العام للمجلس التنفيذي في دورته التسعين (القرار رقم ٤٤١)، ثم شجب استمرار اسرائيل في اعمال التنقيب عن الاثار التي تجريها في مدينة القدس وتوجيه النداء العاجل اليها لاحترام قرارات اليونسكو في هذا الشان وتنبيهها ضمنا الى ما يحتمل ان يتخذه المجلس التنفيذي من تدابير عند الاقتضاء اذا تمادت في رفضها لهذه القرارات (قرار المؤتمر العام السابع عشر رقم ٣٤٢٢) ، واخيرا قرر المجلس التنفيذي في دورته الرابعة والتسعين ادانة استمرار اسرائيل في انتهاك القرارات سالفة الذكر التي اصدرها المؤتمر العام والمجلس التنفيذي (القرار رقم ٤٤١) .

وواضح من كل هذه القرارات ان اسرائيل قد خالفت جميع التزاماتها الدولية بشأن مدينة القدس . وقد انتهى المؤتمر العام والمجلس التنفيذي لليونسكو الى ان هذه المخالفة تمنع المنظمة من اداء الرسالة التي يعهد بها اليها ميثاقها التأسيسي (القرار رقم ٣٤٢٢ للمؤتمر العام في دورته السابعة عشرة ، والقرار رقم ٤٤١ للمجلس التنفيذي في دورته الرابعة والتسعين ، والقرار الاخير الذي

اصدره المؤتمر العام في دورته الثامنة عشرة) .

واذا رجعنا الى المادة الاولى من الميثاق التاسيسي لمنظمة اليونسكو ، نجد ان المادة الاولى من هذا الميثاق قد حددت اهداف المنظمة ومهامها ، ومن بينها السهر على صون وحماية التراث العالمي ... من الآثار التي لها اهميتها التاريخية والعلمية .

وقد انتهى المؤتمر العام لليونسكو ومجلسه التنفيذي على النحو الذي اوضحناه الى ان مخالفة اسرائيل للقرارات المتعلقة بالقدس تحول دون اداء المنظمة للرسالة التي يعهد بها اليها ميثاقها التاسيسي . فالمخالفة التي ارتكبتها اسرائيل هي مخالفة دستورية للميثاق التاسيسي للمنظمة ، ترتبط بالاهداف التي انشئت من اجلها . لهذا كان طبيعيا ان يتطور الامر الى حد توقيع المؤتمر العام في دورته الثامنة عشرة جزاء على اسرائيل بسبب هذه المخالفة .

الاساس القانوني للجزاء الذي اتخذه المؤتمر العام لليونسكو ضد اسرائيل :

بناء على مخالفة اسرائيل لالتزامها القانوني الدولي بشأن حماية التراث الثقافي في مدينة القدس ، قرر المؤتمر العام لليونسكو في دورته الثامنة عشرة فرض جزاء دولي على اسرائيل هو عدم تقديم اي عون اليها في ميادين التربية والعلم والثقافة ، وذلك الى ان تحترم بدقة القرارات الصادرة في هذا الشأن .

فما هو الاساس القانوني لهذا الجزاء ؟

ان الجزاء الدولي هو تدبير قسري يهدف الى تأكيد تطبيق القاعدة القانونية الدولية التي خولفت . ويدق الامر في تطبيق هذا الجزاء داخل مجتمع المنظمات الدولية ، نظرا الى انه يوقع على دول مستقلة صاحبة سيادة .

ومن المقرر ان سلطة الجزاء تملكها كل منظمة دولية بطريقة ضمنية. فالقواعد التي تؤكد وجود المنظمة وتنظم سير اعمالها ، يتعين احترامها بواسطة اعضائها . وتملك المنظمة فرض جزاء عن كل عمل ضار بحياة المنظمة وبحسن اداء وظائفها والمصالح التي قامت المنظمة من اجل حمايتها .

(انظر :
Ruzie , Organisations internationales , Paris , A. Colin , 1971 , P . 6)

وقد قامت المنظمات الدولية بارادة اعضائها . وكل عضو قبل دخول المنظمة الدولية يلتزم باحترام مبادئها وقراراتها ويرتضي بالخضوع لاي وجه من اوجه الالزام القانوني لاحترام هذه المبادىء والقرارات .

ولا صعوبة اذا نص الميثاق التاسيسي للمنظمة الدولية على السماح بتوقيع جزاءات على الدول الاعضاء عند مخالفتها لاهداف المنظمة او قراراتها . ويدق الامر اذا لم يرد في الميثاق التاسيسي للمنظمة نص صريح على الجزاءات التي يمكن توقيعها على الدول الاعضاء .

وفي هذا الشأن ربطت محكمة العدل الدولية بين اختصاص المنظمات الدولية وبين الاهداف والوظائف الواردة في ميثاقها . ووصل الامر الى حد اعطاء هذه المنظمات الاختصاصات اللازمة لتحقيق هذه الاهداف ـ ولو لم ينص عليها ـ وذلك على اساس ان الدول الاعضاء قد اتفقت ضمنا على مباشرة المنظمة للاختصاصات والسلطات الضرورية لاداء هذه الوظائف والاهداف . وقد تجلى هذا المعنى واضحا في الرأي الاستشاري الخاص بتعويض الاضرار التي اصابت موظفا في خدمة الامم المتحدة بتاريخ ١١ ابريل ١٩٤٩ ، والذي افتت به محكمة العدل الدولية باجماع الاراء . فقد جاء في هذا الرأي « انه يلزم الاعتراف بان اعضاء المنظمة الدولية حينما يحددون وظائفها بما يترتب على ذلك من حقوق وواجبات ، يمنحون المنظمة في نفس الوقت الاختصاص اللازم لاداء وظائفها ، وان حقوق وواجبات المنظمة ترتبط الى حد كبير بالاهداف والوظائف المعلنة في الميثاق المؤسس لها والتطورات التي لحقتها في العمل .

« Slon le droit international , L'Organisation doit être considérée comme possédant ces pouvoirs qui , s'ils ne sont pas expressément énoncés dans la charte , sont par une conséquence nécessaire , conférés à L'organisation en tant qu'essentiels à L'exercice des fonctions de celle-ci . (C . I . J . , Rep . 182)

وتمشيا مع منطق هذه الفتوى نشأ عرف دولي في المنظمات الدولية المتخصصة ، يخول لها الحق في توقيع جزاءات دولية على بعض الدول الاعضاء دون نص صريح في الدستور ، اذا ما انتهجت الدولة سياسة لا تتفق مع اهداف المنظمة الدولية .

ومن امثلة ذلك :

ا ـ قررت منظمة الاغذية والزراعة في عام ١٩٦٣ استبعاد جنوب افريقيا من حضور الاجتماعات الاقليمية للمنظمة بسبب سياستها العنصرية .

ب ـ قررت الجمعية العامة لمنظمة الصحة العالمية في عام ١٩٦٤ وقف حق جنوب افريقيا في التصويت بسبب سياستها العنصرية . وفي عام ١٩٦٥ عدلت المنظمة دستورها بما يسمح لها صراحة بتوقيع مثل هذا الجزاء .

ج ـ قرر مؤتمر اتحاد البريد العالمي مرتين الاولى في فيينا عام ١٩٦٤ ، والثانية في طوكيو عام ١٩٦٩ طرد وفد جنوب افريقيا من المؤتمر ، بسبب السياسة العنصرية التي تنتهجها هذه الدولة .

د ـ قرر مؤتمر الاتحاد الدولي للمواصلات في عام ١٩٦٥ استبعاد جنوب افريقيا من المؤتمرات الاقليمية الافريقية التي تدعو اليها المنظمة، بسبب سياستها العنصرية .

وبالنسبة الى منظمة اليونسكو فان ميثاقها التاسيسي قد خلا من نص صريح يخولها سلطة توقيع جزاءات على الدول الاعضاء الا في حالتين :

(١) التوقف عن ممارسة الدول الاعضاء للحقوق والامتيازات المترتبة على عضويتها في المنظمة ، اذا توقفت هذه الدول الاعضاء عن ممارسة الحقوق والامتيازات المترتبة على عضويتها في هيئة الامم المتحدة ، وذلك بناء على طلب هذه الهيئة .

(٢) فصل الدولة العضو ـ بحكم الواقع ـ من عضوية المنظمة اذا فصلت من هيئة الامم المتحدة (الفقرة الرابعة من المادة الثانية) .

وبالاضافة الى هاتين الحالتين فقد نصت المادة ٧٩ من النظام الداخلي للمؤتمر العام على حرمان الدولة من حق التصويت في المؤتمر العام او في اية لجنة او هيئة تابعة له ، اذا كان مجموع المبالغ المستحقة

عليها كاشتراكات يزيد على القيمة الكلية للنصيب المالي الواقع على عبئها عن السنة القائمة والسنة السابقة لها مباشرة ، ألا اذا تبين للمؤتمر العام أن عدم دفعها لهذه المبالغ يرجع الى ظروف خارجة عن ارادة الدولة العضو .

هذا عن الاختصاص الصريح لمنظمة اليونسكو ، فماذا عن إختصاصها الضمني ؟

حقا لقد مارست منظمة اليونسكو من خلال مؤتمرها العام سلطة توقيع جزاءات على حكومات البرتغال وجنوب افريقيا وروديسيا بسبب سياستها الاستعمارية والعنصرية . (القرار رقم ١١ في الدورة الرابعة عشرة، والقرار رقم ٩١٢ في الدورة الخامسة عشرة ، والقرار رقم ٨ في الدورة السادسة عشرة ، والقرار رقم ١٠٤١ في الدورة السابعة عشرة) ، وان هذه القرارات صدرت استجابة لما سبق أن قررته الجمعية العامة للامم المتحدة في هذا الشأن (القراران رقم ٢١٠٥ في الدورة العشرين « ١٩٦٥ » ، ورقم ٢٣١١ في الدورة الثانية والعشرين « ١٩٦٧ ») .

على ان منظمة اليونسكو مارست اختصاصها الضمني في توقيع الجزاء الدولي مرتين : (الاولى) قرر المجلس التنفيذي لليونسكو في دورته السبعين (القرار رقم ١٤) عام ١٩٦٥ عدم دعوة حكومة البرتغال الى الاجتماعات التي سبق ان قررتها منظمة اليونسكو . وامام المؤتمر العام لليونسكو في دورته الرابعة عشرة ، طلبت حكومة البرتغال استطلاع رأي محكمة العدل الدولية حول حق المؤتمر العام في اتخاذ هذا الاجراء . ولكن المؤتمر العام رفض هذا الطلب مقررا انه صاحب السيادة في تفسير نصوص الميثاق التاسيسي ، واقر الجزاء الذي سبق ان اتخذه المجلس التنفيذي في دورته السبعين (القرار رقم ٢٠).

(الثانية) اصدر المؤتمر العام لليونسكو في دورته الخامسة عشرة من تلقاء نفسه قرارا بدعوة الدول الاعضاء الى ايقاف كل تعاون مع البرتغال في مجالات التربية والعلم والثقافة ، وذلك بسبب رفض البرتغال استقبال لجنة من اليونسكو لتحقيق احوال التربية في الاراضي الافريقية المستعمرة .

وعلى أساس هذا الاختصاص الضمني للمؤتمر العام لليونسكو ، ووفقا لعرف الدولي فرض المؤتمر العام لليونسكو في دورته الثامنة عشرة عقابا دوليا على اسرائيل بسبب عدم احترامها للقرارات الصادرة بشان حماية التراث الثقافي في القدس ، بصورة تحول دون اداء المنظمة الدولية للرسالة المنصوص عليها في ميثاقها التاسيسي .

النتائج القانونية المترتبة على هذا الجزاء :

يترتب على الجزاء الذي اوقعه المؤتمر العام لليونسكو في دورته الثامنة عشرة ضد اسرائيل بشأن مدينة القدس عدة نتائج تتمثل فيما يلي:

(١) تأكيد عدم شرعية الاحتلال الاسرائيلي لمدينة القدس وابطال جميع الاجراءات المترتبة عليه .

(٢) تاكيد خرق اسرائيل للمواثيق الدولية والالتزامات القانونية المترتبة على ذلك .

(٣) بدء المجتمع الدولي في اتخاذ سياسة اكثر ايجابية نحو اسرائيل بسبب اصرارها على مخالفة مبادىء القانون الدولي . ولا شك ان منظمة اليونسكو قد قدمت مثلا لما يجب ان تقوم به سائر منظمات الامم المتحدة ضد اسرائيل بسبب اصرارها على مخالفة هذه المبادىء .

الدكتور احمد فتحي سرور

الاستاذ بكلية الحقوق بجامعة القاهرة والمندوب الدائم للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم لدى اليونسكو



عبدالله عبد الفتاح الايوبي

قرارات اليونسكو والحملة الصهيونية

في دورته الثامنة عشرة ، اتخذ المؤتمر العام لليونسكو عدة قرارات من بينها ما اثار ثائرة الصحف الغربية ووسائل الاعلام التي تسيطر عليها الصهيونية العالمية .

وغني عن القول ان الهدف من تلك الحملة المغرضة التي شنتها الصحافة الغربية طوال ايام انعقاد المؤتمر العام لليونسكو هو شل اعمالها . واول هذه القرارات وربما كان اهمها في نظري القرار القاضي بادانة اسرائيل ، ومنع العون عنها في ميادين التربية والثقافة والعلوم بسبب موقفها المتعنت تجاه عدم احترام وتنفيذ قرارات الامم المتحدة وقرارات المؤتمر العام لليونسكو والمجلس التنفيذي بوقف عمليات الحفر التي تقوم بها اسرائيل في المدينة المقدسة وتشويه معالمها منذ احتلالها للمدينة عام ١٩٦٧ .

وكان لقرار المؤتمر العام بقبول ممثل منظمة التحرير الفلسطينية بصفة مراقب في منظمة اليونسكو (لاول مرة يتم قبول منظمة التحرير الفلسطينية في اي منظمة دولية) واشراكه في المناقشة فيما يهم القضية الفلسطينية ، وخاصة في المراقبة على سير المؤسسات التعليمية في الاراضي المحتلة بشكل يحفظ هويتهم القومية ـ كان لهذا القرار ردة عنيفة في الصحافة الغربية . فقد ذكرت ان قبول منظمة التحرير الفلسطينية في منظمة اليونسكو بصفة مراقب انما هي الخطوة الاولى لطرد اسرائيل من المنظمة .

اما القرار الثالث والذي لا تقل اهميته عن القرارين السابقين فيقضي بعدم موافقة المؤتمر العام لليونسكو على طلب اسرائيل الانضمام الى المجموعة الاقليمية الاوروبية ، الامر الذي ادى الى جعل اسرائيل في عزلة عن المجتمع الدولي . وكل هذه القرارات والقرارات الاخرى التي اتخذها المؤتمر العام تمت الموافقة عليها بطبيعة الحال بالاغلبية المطلوبة وباسلوب ديمقراطي كما هو معلوم لدى الجميع .

الا ان صحف الغرب تابى ان تنشر الحقائق وتابى ان تبين الاسباب التي حدت بالمؤتمر العام الى اتخاذ مثل هذه القرارات ، فقد سبق للمؤتمر العام السابع عشر ان رفض طلبا تقدمت به الولايات المتحدة مثلا للانضمام الى المجموعة الاقليمية الاوروبية فلم تقم قائمة العالم الغربية ولا حتى الولايات المتحدة نفسها ، وبما ان الامر هذه المرة يعني اسرائيل فقد قامت الدنيا ولم تقعد واصبحت اليونسكو منظمة سياسية لا منظمة علم وثقافة وتربية في نظر الصحافة .

ان ذلك كله يبرز قبل كل شيء في الحملة الصهيونية المغرضة ضد الدول العربية بشكل واضح بالرغم من عدالة القضايا التي تكافح الدول العربية من اجلها .

ولم تقتصر هذه الحملة ضد الدول العربية فقط بل تعدتها الى مهاجمة منظمة اليونسكو نفسها واتهامها بتهم باطلة لا صحة لها على الاطلاق .

فلنقرا ما قالته ((نيويورك تايمز)) New york Times الامريكية بعنوان (اليونسكو تصوت) وهنا انقل النص الحرفي كما ورد في الجريدة المذكورة ونقلته عنها صحيفة (الهيرالد تريبون (Herald Tribune) في عددها الصادر في ١٩٧٤/١٢/٣ اي اثناء انعقاد المؤتمر الثامن عشر ، تقول الصحيفة :

((ان كتلة الدول العربية مع حلفائها)) وهنا يقصد طبعا بعض الدول الافريقية والاسيوية ودول اوروبا الشرقية ((قد جمعت اصواتا في منظمة اليونسكو في باريس لادانة اسرائيل . وبعد قبول منظمة التحرير الفلسطينية رفض طلب اسرائيل الانضمام الى اي مجموعة اقليمية للدول الاعضاء في منظمة اليونسكو ، كما انها حرمت من الحصول على مساعدات المنظمة)) انتهى الجزء الاول من المقال .

واعود فاقول ان القارىء الغربي والامريكي عندما يقرا هذه المعلومات المشوهة والناقصة والتي تنشر فقط لتاليب الراي العام الغربي ضد الدول العربية ، سيتاثر ولا شك ، وتعود الى ذاكرته الاسطوانة القديمة التي تذيعها ابواق الصهيونية العالمية بان العرب سيلقون باسرائيل ، هذا الشعب المغلوب على امره ، في البحر ، وبالتالي يزداد تاييدهم لاسرائيل على حساب القضايا العربية التي لا يعرف القارىء الاوروبي الا القليل عنها .

مثال لذلك لم تذكر هذه الصحيفة وغيرها من الصحف لماذا اتخذت منظمة اليونسكو هذه القرارات ضد اسرائيل ، ولم تذكر ان المؤتمر العام لليونسكو وكذلك المجلس التنفيذي لليونسكو قد استنفذا جميع الوسائل التي من شانها امتناع اسرائيل عن اعمال الحفريات والامتثال لقرارات اليونسكو المتكررة وان على اليونسكو ان تتخذ الاجراءات الكفيلة بايقاف هذه الدويلة عند حدها وعدم تماديها في الاستهزاء بالقرارات التي تتخذها المنظمات الدولية .

ومن العجيب حقا ان تستطرد الصحيفة المذكورة فتقول ((ولكن شعوب الدول العربية وبالمثل شعوب الدول النامية والدول المتخلفة في جميع انحاء العالم ستكون هي الخاسرة نتيجة لهذه الاستفزازات الثارية)) ... اية خسارة مني العالم بها اكبر من تخريب مدينة القدس وتشويه

معالمها الاثرية والدينية ؟ هل طمس معالم القدس على ايدي الصهاينة اقل خسارة من ادانة اسرائيل ، فاي منطق هذا الذي تنطق فيه أبواق الصحافة الصهيونية ؟

ولكن مرة اخرى تجاهلت الصحيفة كل ذلك دون الاشارة اليه من قريب أو بعيد ، وتستمر هذه الحملة ضد العرب وضد منظمة اليونسكو ، الى درجة ان تهدد الولايات المتحدة الامريكية بقطع مساعداتها عن اليونسكو ان لم تتراجع عن القرارات التي أتخذتها ضد اسرائيل . فتمضي الصحيفة فتقول « ان لجنة الشئون الخارجية في الكونغرس الامريكي قد اتخذت قرارا بتعديل قيمة الاعانة الخارجية مما ينقص مبلغ ١٦ مليون دولار من المساهمة التي تقدمها الولايات المتحدة في منظمة اليونسكو . كما صرح السنتور كليفور كيس بان ليس لليونسكو الحق باتخاذ قرارات سياسية مبتعدة بذلك عن اهدافها الانسانية .

فالكل يعلم انه لا يمكن فصل السياسة عن اي امر من امور الحياة الاخرى ، فاذا كانت منظمة اليونسكو قد اتخذت القرارات فان ظاهرها سياسي ولكنها في حقيقة الامر قرارات تحفظ للمنظمة هيبتها ان لم يكن كيانها نفسه .

ان هذه الحملة المسعورة في الصحافة الغربية ضد منظمة اليونسكو تستهدف اخضاع المنظمة ، وبالتالي الدول الاعضاء في العالم الثالث ، للنظريات والشعارات التي تتبناها الدول الكبرى مستغلة مبنى اليونسكو للدعاية لها . واذا كان هذا الامر ممكنا في الماضي والى وقت قريب حيث تعودت هذه الدول أن تكون هي وهي فقط صاحبة الصوت المسموع والامر المطاع والرأي الذي يجب أن يسيطر دائما على القرارات التي تتخذها هذه المنظمة او اي منظمة دولية اخرى ، أقول اذا حدث ذلك في السابق فان الحال قد تغير تماما ، فالدول التي كانت تخضع لغير الاستعمار الى عهد قريب والتي كانت السيطرة الاستعمارية تسير امورها رغم انف شعوبها ، ان هذه الدول قد حصلت على استقلالها التام واصبحت تسير سياستها وتقرر مصيرها بنفسها .

نستخلص من كل ذلك نقطتين هامتين :

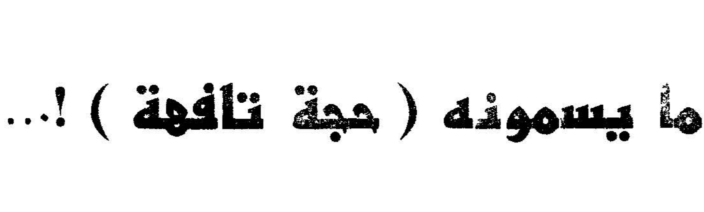
الاولى : ان بعض دول الغرب والولايات المتحدة شعرت ان المنظمات الدولية لم تعد لعبة في يدها تسيرها كما تشاء وان ما كان يجري في السابق في شأن الاهداف البعيدة التي تخطط لها هذه الدول لم يعد ممكنا ابدا ، لانها اصبحت دولا حرة ذات سيادة تقرر مصيرها بنفسها.

الامر الثاني : وهو انه قد آن الاوان لكي تستعمل الدول كل الدول الاعضاء حقها في التصويت بالوسائل الديمقراطية المتبعة في منظمة اليونسكو ، واذا كان ذلك لا يعجب صحافة الدول التي وقفت وقفتها وصاحت وسائل اعلامها مهاجمة المنظمة تارة بتسييسها وتارة بتحيزها لدول ضد دول اخرى ،فان هذه الصحافة تتناسى ان الاجتماعات التي تمت بموجبها قرارات المؤتمر العام انما تمت بمنتهى الروح الديمقراطية التي تسود اعمال منظمة اليونسكو وان شريعة الغاب قد اختفت دون رجعة .

ولكن لماذا هذه الحملة العدائية ؟.. ولماذا هذا التهويل والتهديد والوعيد ، تارة بقطع العون وتارة بالانسحاب من المنظمة ؟ قد يبدو لاول وهلة ان ذلك من شأنه ان يشعر العالم بان المنظمات الدولية لا تستطيع ان تسير وأن تؤدي رسالتها بدون مشاركة الدول الغربية ، والحق ان الدول التي وقفت ضد اليونسكو انما تهدف الى عملية تخريب ووضع المنظمة في مأزق لا يمكن الخروج منه في تصورهم ، ولكن على عكس ذلك فان المنظمة تسير سيرا طبيعيا نحو تحقيق اهدافها ولذلك فانه من واجب الدول العربية ودول العالم الثالث ان تكون حذرة تجاه اي خطوة تخطوها ، وان تعمل على الاحتفاظ بالمكاسب التي حققتها عن طريق كفاحها العادل الطويل .

عبدالله عبد الفتاح الايوبي
المندوب الدائم للكويت لدى الاونسكو

صلاح ستيتية



ما يسمونه (حجة تافهة) !...

شنت فئة من المثقفين الفرنسيين وبعض الصحف الفرنسية حملة تهديد وتخويف واسعة ، بسبب ان المؤتمر العام للاونسكو في دورته الثامنة عشرة التي عقدت في تشرين الثاني الماضي ، اتخذ قرارا بحق احد اعضائه ، وفقا لاحكام المرسوم التشريعي . وتبدو هذه الحملة اكثر تأثيرا ، خصوصا بعد التوضيح الذي قام به المدير العام للاونسكو ونشرته جريدة « لوموند » بتاريخ ٧/١٢/٧٤ ، غير موقفه في اختيار الحجج والوسائل . فقد زعم موقعو البيانات القائمة غالبا على الشتائم والمقالات المغرضة دائما ان اسرائيل ، الدولة العضو ، قد « طردت » من المنظمة ب « حجة تافهة » هي حجة التنقيبات الاثرية ، وانها تعرضت لضرر من اخطر الاضرار في الا يكون لها حضورها في منطقة من مناطق العالم تعتبر اطارا لنشاطات المنظمة الموصوفة بانها نشاطات « اقليمية » .

والغاية من كلمتنا التوضيحية الجديدة هذه هي الاسهام في اثبات حقيقة الوقائع ـ في نقطة الانطلاق ونقطة الوصول ـ والمساعدة على اعلام الجمهور ، وتفكيك آلة الحرب التي ينصبها في وجه الاونسكو اولئك الذين اصبح تشويه الحقيقة ، خدمة لاية قضية اسرائيلية مهما كانت ، طبيعة ثانية لديهم ، واصبح تسميم الاخرين بالحقائق المعكوسة ضربا جديدا من التعبير عندهم .

* * *

بصدد مدينة القدس ، يجب ان نرى ان المسألة واضحة كالنهار ، خلافا لكل تمحك او جدل فارغ .

فما الذي حدث حقا ؟

في عام ١٩٤٨ ، استولت اسرائيل على نصف المدينة ، محتقرة قرارات الجمعية العامة للامم المتحدة ، واعلنت سلطات هذا البلد ـ الذي لا بد من التذكير بان قرار الامم المتحدة هو وحده الذي انشاه ـ رغبة في اتخاذ هذه المدينة « عاصمته » ، ضد قرار الامم المتحدة ، وهي « عاصمة » لم توافق اية دولة في العالم على الاعتراف بها . ومنذ ذلك التاريخ وتوصيات الجمعية العمومية وقرارات مجلس الامن المتعلقة بالموضوع تذكر اسرائيل ـ التي لم تكن لتبالي ـ بخرقها الفادح للحق الدولي الذي يحدده الميثاق .

وفي عام ١٩٦٧ ، قامت اسرائيل بعدوان جديد على جيرانها العرب ، وحققت ضما جديداً للاراضي بالقوة ، ومن هذه الاراضي القسم العربي من القدس ، المدينة المقدسة التي لم يطلق عليها العرب ، بدافع من تبجيلها ، اي اسم ، مكتفين بتسميتها «القدس» . والواقع ان في هذا الجزء من المدينة اقدس الامكنة التي تكرسها الاديان التي يعتنقها اكثر من مليار مؤمن .

ومن جديد ادانت الامم المتحدة ، بجمعيتها العمومية ومجلس امنها ، اسرائيل ، مطالبة اياها ، وبالحاح ، الا تغير شيئا من وضع الاماكن المقدسة ولا من مظاهرها .

اما الاونسكو ، فقد طلبت في اطار مهمتها الحضارية ، ووفقا للمبادىء التي نص عليها الاتفاق الدولي حول حماية التراث الثقافي في حالات النزاع المسلح ، وهو اتفاق لاهاي لعام ١٩٥٤ ، طلبت الاونسكو من السلطات الاسرائيلية التي وقعت على هذه الوثيقة الحقوقية الهامة ، ان تطبق احكامها . وهذه الاحكام التي اكملتها فيما بعد توصية نيودلهي ، تحظر على كل دولة موقعة استولت بالقوة على ملك ثقافي يخص دولة اخرى تدمير هذا الارث الثقافي او استلحاقه او تغيير معالمه . ومنذ عام ١٩٦٧ ، ارسل المجلس التنفيذي للاونسكو الى سلطات الاحتلال توصية بهذا المعنى . وفي عام ١٩٦٨ ، ايد المؤتمر العام ، بتوصية اخرى ، موقف المجلس التنفيذي في هذا الصدد . وما فتىء هذان الفرعان للاونسكو ، منذ سبع سنوات ، يدعوان اسرائيل بشكل منظم الى التقيد بالقانون الدولي . ولكن اسرائيل ، كما تفعل منذ خمسة وعشرين عاما تجاه قرارات الامم المتحدة ، ما تزال منذ سبع سنوات تحتقر قرارات الاونسكو التي استنفدت كل المعجم الدبلوماسي المستعمل ، من « الاسف » الى « الاستنكار » ، الى « الادانة » ، محاولة عبثا رد السلطات الاسرائيلية الى مفهوم للاشياء سليم وطبيعي ، في اطار القانون الدولي الذي لا يبقى خارجه الا قانون العنف . اما اسرائيل ، فقد اختارت في القدس طريق العنف .

والعنف ، في حالة القدس ، المدينة المقدسة ، والمدينة التاريخية ، ومدينة الفن ، هو مهاجمة هذه المظاهر الاساسية الثلاثة للمدينة ، مع احتمال تعريضها للخطر .

فما الذي قامت به سلطات الاحتلال الاسرائيلية ؟ لقد هدمت بالجرافات احياء كاملة كالحي المغربي الذي يعود تاريخه الى القرن الثالث عشر : ستمئة مبنى ومنشأة دينية ومساجد للمماليك والايوبيين اختفت من الخارطة . واجريت حفريات تحت مسجدي الاقصى والصخرة . ولن ننسى بهذا الصدد الحريق الذي نسب آنذاك الى شخص غير مسؤول كاد يدمر منذ بضع سنوات تلك الجوهرة الاثرية الرائعة التي هي المسجد الاقصى . وحملة الحفريات هذه هي ، في نظر جميع المراقبين الحياديين ، بعيدة عن ان تكون ، كما يزعم البعض ، « حجة باطلة او تافهة » لكي تؤدي الى ادانة اسرائيل : ذلك ان هذه الحملة ترمي ، عبر موكب الهدم والتدمير والتخريب ، الى محو اكبر عدد ممكن من الاماكن والعلامات والرموز التي تدل دلالة لا ترد على الطابع اللايهودي القديم للمدينة ، من اجل تهويدها وصهينتها التدريجية . هذا ما كان ينبغي ان يأخذه بعين الاعتبار المدافعون عن اسرائيل بلا قيد ولا شرط . فما كان عسى هؤلاء المدافعين ان يفكروا لو ان المحتلين ، خلال فترة « الاحتلال » ، كانوا قد قاموا بحفريات تحت

كنيسة « نوتردام » ، مثلا ، محاولين اكتشاف ما يبرر باي ثمن ــ بناء على آثار آرية ويزيغوتية ، مثلا ــ حقا ما على العاصمة الفرنسية ؟ وما عسى هؤلاء المدافعين انفسهم ان يفكروا ، على الصعيد الجمالي ، وهذا مثل آخر ، بشأن حماية اماكن مدينتي البندقية وفلورنسة الرائعة ومبانيهما لو ان مقاولين ، مدفوعين باية دوافع ، حصدوا بعض الاحياء القديمة في هاتين المدينتين ليقيموا على الاماكن « المحررة » ابنية مشتركة وناطحات سحاب ؟ والحال ان هذا تماما ما يفعله الاسرائيليون على تصفيق اصدقائهم وتهليلهم المتسرع ... ليس علينا الا ان ننظر الى تلك الصور التي نشرت اخيرا لنتثبت من الجريمة ، الروحية والفنية، التي ترتكب في القدس . ليس علينا الا ان نرى هذه الصور لنتأكد من ان المجموعة الدولية كانت على حق في مطالبتها اسرائيل بوقف هذه الجريمة ...

ان الذي يرى تلك الصور التي هي افصح وابلغ من اية حجة ، يدرك لماذا قررت اعلى هيئة في الاونسكو ، اي المؤتمر العام الذي يتكون من ممثلي الدول الاعضاء المسؤولة ، انه قد اصبح من الضروري، اذا اريد انقاذ المدينة ، القيام بخطوة اخرى في استنكار عمل اسرائيل. وليس يمكن لهذه الخطوة بعد ان تكون مجرد موقف مبدئي ، باعتبار ان مختلف المواقف المبدئية التي كانت تزداد شجبا واستنكارا ، كانت قد وجدت اسرائيل لا مبالية تماما بالانفعال الدولي . لنذكر هنا انه منذ بضع سنوات ، بعد ان ادان المؤتمر العام والمجلس التنفيذي للاونسكو اعمال اسرائيل مرة اخرى ، كان السيد تيدي كولك رئيس بلدية مدينة مزعوم انها قد « وحدت » ، يجمع مؤتمرا للاختصاصيين من المهندسين والمهندسين المدنيين مختلفي الجنسيات ، وان كانوا جميعا من اليهود ، ليعرض لهم مشروعاته بشأن تنظيم وضع المدينة في المستقبل . فهل نعرف حقا ان هذا المؤتمر ، المفروض انه متعاطف ومنحاز ، قد رفض رفضا باتا الخطط المطروحة بمقدار ما كانت تفضي الى تشويه الامكنة تشويها كاملا ؟ وبالامس فقط ، في اليوم التالي لتصويت المؤتمر العام على القرار المتعلق بالقدس ، الم يقرر مجلس الوزراء الاسرائيلي بقرر انشاء « منطقة صناعية » في القطاع الغربي، اي في « الاماكن المقدسة » بالذات ؟

ان شجب المجتمع الدولي لاسرائيل لا يمكن القول انه اخذ الدولة العبرية على حين غرة . فقد كان هذا الشجب آتيا منذ سنوات بعيدة كمرحلة لا مفر منها في موجة الرفض التدريجية . ولقد انذر اسرائيل افضل اصدقائها بذلك عشية انعقاد المؤتمر العام وفي اثنائه . بل لقد طلبت احدى حليفات اسرائيل ، بشكل سري ، ان تعلن اسرائيل خلال المؤتمر العام ، وبلا مواربة ، ان جميع الحفريات ستوقف في القدس تلبية لارادة الدول في مجموعها . ولو اتخذ هذا الموقف المنطقي المأمول لعطل الانفجار ولاعطى المدينة فرصة لان تنقذ . ولكن اسرائيل قالت : لا.

* * *

ما كان عسى المجتمع الدولي ان يفعل ازاء هذا الموقف السلبي من الرفض والتحدي ؟ ما عساه يفعل ، هذا المجتمع ، بعد خمسة وعشرين عاما من المفاوضات اللامجدية في الامم المتحدة ، وبعد سبعة اعوام من المناقشات اللامفيدة في الاونسكو ؟ اينبغي له الاستسلام وتكريس « الامر الواقع » ؟ اينبغي اقرار استشهاد المدينة المقدسة الجسدي ، بعد استشهادها الروحي ؟ في وجه « لا » اسرائيل الحاسمة ، قال المجتمع الدولي بدوره : لا . وقد قال لاءه هذه بلا خوف ولا تردد ولا ندم حين اكد التصويت الاولي على القرار الذي يدين اسرائيل « لموقفها المستمر في تغيير الطابع التاريخي لمدينة القدس » : وقد تبع هذا التصويت الاول داخل اللجنة الثقافية المتخصصة تصويت اخر ، بعد ثلاثة اسابيع ، داخل المؤتمر العام للاونسكو الذي اتخذ قراره باغلبية اكبر بالرغم من الحملة الصحفية العنيفة التي شنها جميع اصدقاء اسرائيل .

علام ينص ذلك القرار ؟ انه « يلزم المدير العام بالامتناع عن منح اسرائيل مساعدة في ميادين التربية والعلم والثقافة ، التي ان تحترم بدقه القرارات المذكورة » اي « القرارات السابقة التي اتخذها المؤتمر العام منذ دورته الخامسة عشرة الخاصة بانتهاك قراراته وانتهاك الاهداف المذكورة في المرسوم التشريعي » .

اين هي الفضيحة في ذلك ؟ ولماذا هذا الارتماء الاعمى في الجهل الكامل لمعطيات المسألة الحقيقية ؟ واي مراقب متجرد يستطيع ان ينكر على المجتمع الدولي الحق في مجازاة عضو من اعضائه يرفض رفضا تاما القواعد التي وضعها هذا المجتمع لصالح الجميع وصالح كل عضو من اعضائه من اجل حياة دولية ممكنة ؟

لقد اخذ بعض الصحف المتسرعة او الموجهة على الاونسكو ان تتخذ ازاء اسرائيل ما يجب اعتباره عقابا ضعيفا جدا في هذه المرحلة . فان تاريخ المنظمات الدولية غني بعقوبات اقسى واشد تجاه الدول الاعضاء التي خرقت انظمتها ، فلم تثر تلك العقوبات اعتراضات رئيسية ، باستثناء اعتراض الجهات المعنية ، ولم تشن حملات كراهية وحقد على تلك المنظمات المسؤولة عن هذه العقوبات . ان هناك اتفاقا دوليا مستندا الى راي محكمة العدل الدولية في نيسان ١٩٤٩ يسمح لكل منظمة مختصة ان تتخذ كل عقوبة تراها ضرورية ، حتى بدون نص صريح في دستورها . وهكذا :

١) قررت الجمعية العمومية لمنظمة التغذية والزراعة عام ١٩٦٣ طرد جنوب افريقيا من الاجتماعات الاقليمية للمنظمة .

٢) وقررت الجمعية العمومية للمنظمة العالمية للصحة عام ١٩٦٤ ايقاف الامتيازات المتعلقة بحق التصويت بجنوب افريقيا .

٣) وتبنى مؤتمر البريد العالمي الذي عقد في فيينا عام ١٩٦٤ قرارا بطرد وفد جنوب افريقيا . واتخذ القرار نفسه في مؤتمر طوكيو ١٩٦٩ .

٤) واتخذ مؤتمر المواصلات السلكية عام ١٩٦٥ قرارا بطرد جنوب افريقيا من المؤتمرات الاقليمية لافريقيا التي تدعو اليها منظمة المواصلات السلكية .

ووفقا لهذا العرف الدولي ، فرضت الاونسكو بعض العقوبات على البرتغال وجنوب افريقيا وروديسيا بسبب سياستها في السيطرة الاستعمارية والتمييز العنصري . وقد تبنى المؤتمر العام للاونسكو بعض هذه العقوبات في خط قرارات الجمعية العمومية للامم المتحدة ، واتخذ المبادرة لتبني عقوبات اخرى ضد البرتغال بسبب سياسته الاستعمارية وسياسة التمييز العنصري وسياسة القتل والابادة العنصرية .

واذن ، فان هذا القرار « الاجرائي » الذي اتخذه المؤتمر العام للاونيسكو ازاء الدولة اليهودية انما يندرج في هذه الطائفة من القرارات السابقة التي اتخذتها الامم المتحدة . غير ان هذا القرار الذي شوهه اصدقاء اسرائيل تشويها متعمدا يظل الى حد بعيد نظريا ، باعتبار ان اسرائيل لا تستعين الا استعانة متواضعة بمساعدة الاونيسكو الموجهة خصوصا ، كما هو معروف ، نحو البلدان التي هي في طريق النمو . ثم انه يتعين على اسرائيل، وعليها وحدها ،ان تتصرف بحيث ترفع عنها هذه العقوبة التي استحقتها عن جدارة : فكفيها من اجل ذلك ان تشرف ــ في هذه النقطة المحددة على الاقل ــ توقيعها على عدد من الاجهزة القانونية التي انتمت اليها بحرية والتي تفرض عليها الواجبات التي تفرضها على كل دولة اخرى موقعة . ان الدولة الجديرة بالاحترام هي اولا الدولة التي تحترم نفسها عبر الالتزامات التي اتخذتها .

واخيرا ، فان المؤتمر العام ، بعد القرار المتخذ والذي يؤكد جميع القرارات السابقة المتعلقة بالقدس ، يدعو صراحة « المدير العام لمواصلة جهوده من اجل تأمين الحضور الحقيقي للاونسكو في مدينة القدس .» فاذا كانت الدولة العبرية تصر على مواصلة سياسة الباب المغلق ، افلا توشك على الصعيد الدولي ان تجد نفسها في وضع اشد صعوبة على الجانب الاخر من باب احكمت اغلاقه ؟

صلاح ستيتية



رفيق سعيد

تلك الصحافة الفرنسية المغرضة !...

اولئك الذين عاشوا يوميا اعمال المؤتمر العام الثامن عشر للاونسكو واهتموا به اهتماما غير انتقائي ، اذ تابعوا عن كثب مجموع القرارات التي اتخذتها المنظمة والتي ينبغي النظر اليها من حيث عددها وتنوعها ونزعتها الشمولية ، ادهشهم ان يروا الصحافة العالمية تصمت عن معظم النقاط الهامة التي اثيرت ونوقشت خلال هذه الدورة الثامنة عشرة وتشن بالعكس حملة صحفية حقيقية لمجرد ان تدرج في جدول الاعمال مسالة تمس اسرائيل .

وهكذا لم يطلع الجمهور الواسع عمليا الا على القرارات الاربعة التالية :

١) القرار الاول ، في مشروع لتعديل النظام الداخلي للمؤتمر العام ، يدعو منظمة التحرير الفلسطينية ، التي تعترف بها دول الجامعة العربية ، الى المشاركة بصفة مراقب في اعمال المؤتمر العام ونشاطات الاونسكو في مجموعها .

٢) القرار الثاني المتخذ برفض اقتراح اسرائيل بان تدرج في لائحة البلدان المفوضة بالاشتراك في النشاطات الاقليمية الاوروبية .

٣) القرار الثالث « يدعو المدير العام الى الامتناع عن تقديم معونة لاسرائيل في ميادين التربية والعلوم والثقافة ، الى ان تحترم احتراما دقيقا القرارات التي اتخذها المجلس التنفيذي والمؤتمر العام . »

٤) والقرار الرابع اخيرا يدعو المدير العام الى المراقبة الكاملة لسير المؤسسات التربوية والثقافية في الاراضي العربية المحتلة، والى التعاون مع الدول العربية المعنية ومنظمة التحرير الفلسطينية لتأمين جميع الوسائل لسكان الاراضي العربية التي تمكنهم من ممارسة حقوقهم في التربية والثقافة .

ويعبر هذا القرار ، من جهة اخرى ، عن « الامل الوطيد بان تلحق فلسطين بالمجموعة الدولية بعناية المنظمات الدولية ، ولا سيما الاونسكو » .

هذه القرارات الاربعة فسرت كما لو انها مرتبطة اساسا بمسعيين اضافيين :

ــ اولهما يرمي الى حد التعاون وتقليصه مع اسرائيل .

ــ والثاني يؤكد ما جرى في الامم المتحدة اذ يميل الى توسيع العون المادي والمعنوي للفلسطينيين .

كتب ب. ايمانويل في عدد ٢٩ تشرين الثاني ١٩٧٤ من «الفيغارو»:

« نصر خارق للقضية الفلسطينية ادى في اربعة ايام الى ان يجعل من ياسر عرفات الرئيس الشرعي لدولة فلسطينية معترف بها ضمنا من الجميع يتضمن وجودها الحقيقي ، الذي طرحته الامم المتحدة كأمر مسلم به ، تدمير دولة اسرائيل تدميرا كاملا . انتكاسة خارقة للدولة اليهودية التي تبعد ابعادا مفاجئا لا مثيل له ... » الخ .

على انه يبدو ان الصحافة بمجموعها لم تحتفظ من هذين المسعيين الا اولهما وانها فسرت كل شيء ، كما لو انه اعمال عدوانية او ثأرية او معاقبة لاسرائيل . لقد اوردت قرارات الاونسكو بعبارات انتهاك واجرام ضد العقل والحس السليم والانسانية قاطبة في بعض المقالات المعنونة مثلا « سياسة كبش المحرقة » (عدد ٢٩ تشرين الثاني من الفيغارو) .

يخرج اذن من مواقف الصحافة بصورة عامة امران مهمان :

١ ــ دعاية مسرحية مغطاة لمسالة « المناطق » دون سواها .

٢ ــ ولكنها دعاية مغرضة منحازة لانها تغذي بوعي او لا وعي سوء تفاهم بارعا ، باعتبار ان « عدم ادراج » دولة اسرائيل في المنطقة الاوروبية انما فهم وفسر على انه طرد واضح ، ثم بتعميم المعنى « الغاء روحي » لاسرائيل ، ومحو من خارطة الكرة ، و « تدمير » و « ابادة » الخ ...

المثقفون والاونسكو

« لوموند » تاريخ ١ ــ ٢ كانون الاول ١٩٧٤ ــ اعلان دعائي :

« رفضت الاونسكو ادراج اسرائيل في منطقة معينة من العالم ... فاذا لم تحدد اسرائيل لا في آسيا (كأوستراليا) ولا في اوروبا (ككندا) ، فلانها ليست في اي مكان : اي انها ليست موجودة ... لا يحق لاسرائيل ان توجد ، فهي اذن غير موجودة . والاعدام الروحي لاسرائيل يبرر اعدامها المادي . انها طريقة الابادة مطبقة بكليانية القرن العشرين . ومعلوم انها كلفت حياة عشرات الملايين من الرجال والنساء .»

« الاكسبريس » ٢٥ تشرين الثاني ــ اول كانون الاول ١٩٧٤ :

« جميع بلدان العالم اليوم تسهم في سياق تدمير دولة اسرائيل. فالقوى الغربية مع البلدان اللاتينية والاميركية واليابان تبتعد اكثر فاكثر عن الاسرائيليين بشكل صريح . وقد منع ممثل اسرائيل في الامم المتحدة منعا كاملا تقريبا من حق المنبر في هذه الدورة الاخيرة التي شهدت تألق ياسر عرفات . واكثر من ذلك ، طردت اسرائيل من الاونسكو » (ج. ف . ريفيل) .

« الفيغارو » ٢٢ تشرين الثاني ١٩٧٤ :

« الحملة التي ترمي الى طرد اسرائيل من جميع نشاطات الاونسكو تستمر في مقر المنظمة حيث رفض اقتراح ادراج دولة اسرائيل في منطقة اوروبا بـ ٤٨ صوتا مقابل ٣٣ صوتا و ٣١ دولة ممتنعة بينها فرنسا . »

« الفيغارو » ٢٩ تشرين الثاني ١٩٧٤ :

« اسرائيل غير موجودة بعد ، بالنسبة للمجتمع الدولي .. ذلك ان اسرائيل ، باعتبارها حرفيا غير موجودة بالفعل ، فان تصفيتها لا ينبغي الا تطرح الا مسألة الامر الواقع (ب. ايمانويل) .

هذا المنطق المنهجي نوعا ما يشرح جميع ردود الفعل الاخرى التي، حتى ولو كانت في ظاهرها اكثر اعتدالا ، تتخذ في التعبير اشكالا اكثر سخرية :

« لوبوان » عدد ١١٥ تاريخ ٢ كانون الاول ١٩٧٤ :

« يبدو ان الاونسكو قررت ان اسرائيل لا تنتمي الى ايه قارة في هذه الكرة . وانا في قرارتي مسرور سرورا كافيا بموقف الاونسكو هذا اللامعقول : كنت احدس دائما ان هذا هو صميم الموضوع : لا بد ان اليهود من سكان المريخ » (كلمات ضابط اسرائيلي اوردها ج. سوفير).

ويكتب الصحفي في مقطع اخر :

« للمرة الاولى تطرد الاونسكو دولة عضوا من نشاطاتها الاقليمية. لقد تجاهلت فرانسواز جيرو في الاسبوع الماضي دعوة هذه المنظمة العجيبة ، فقالت : « الاونسكو ؟ لا اعرفها ! » وهكذا كشفت الاونسكو مكان وجودها : في عالم اللامعقول والمحال ، يعني في لا مكان ! »

« الفيغارو ، ٢٣ تشرين الثاني ١٩٧٤ — جغراسيا (جغرافية سياسية) :

« يجب ان نصحح كتبنا المدرسية . فالولايات المتحدة وكندا ، في رأي جغرافية الاونسكو التوزيعية ، هما في اوروبا ، وروسيا هي في الصين ، واسرائيل في لا مكان . »

ان لهجة الصحافة تتراوح بشكل عام بين السخرية والسخط .

وقد علق على القرارات الاخرى التي اتخذها المؤتمر العام للاونسكو على ضوء ذلك القرار وفي سخونة الافكار التي اثارها الانتصار الذي احرزته منظمة التحرير الفلسطينية في الامم المتحدة . من هنا المأخذ الجماعي الذي اخذ على القرار الثاني الذي يدعو المدير العام الى الامتناع عن تقديم المعونة لاسرائيل في ميادين التربية والعلوم والثقافة الى ان تحترم احتراما دقيقا القرارات التي اتخذها المجلس التنفيذي والمؤتمر العام .

كتبت « الفيغارو » يوم ٢٤ تشرين الثاني ١٩٧٤ تحت عنوان « الاونسكو تعاقب الحكومة العبرية » تقول :

« سبق هذه القرارات نقاش طويل بيّن مندوب اسرائيل خلاله الى اي حد يمس النص المتخذ قواعد المنظمة القانونية » .

وفي « الفيغارو » يوم ٢٢ تشرين الثاني ١٩٧٤ :

« ان المؤتمر العام للاونسكو اذ ايد بغالبيه كثيفة قرار لجنته الثقافية الذي يدين اسرائيل ، انما اتخذ قرارا سياسيا ... ليس ثمة من يجادل في ان القرار الذي اتخذه مساء الاربعاء المؤتمر العام للاونسكو يندرج في خط الهجوم العام الذي تقوده البلاد العربية وزبائنها من العالم الثالث لعزل اسرائيل عزلا دبلوماسيا .» (تييري مولنيه)،

وكتب السيد رينه ماهو المدير العام السابق للاونسكو في جريدة « لوموند » يوم ٢١ تشرين الاول ١٩٧٤ يقول :

« هناك سؤالان مطروحان . الاول هو : قسوة مشروع القرار الذي يدين ، في مقطعه الثاني ، اسرائيل لمضيها في تغيير الطابع التاريخي لمدينة القدس وقيامها بحفريات تشكل خطرا على مبانيها الاثرية — هذه القسوة هل هي مبررة ؟ والسؤال الثاني هو : وقف المساعدة لاسرائيل، هل هو افضل وسيلة لتنمية فعالية عمل المنظمة ؟ »

وينهي السيد رينه ماهو مقاله بهذه العبارة : « كيف اذن يجري تبني سياسة عقوبات ، من اجل القدس ، ستكون بفعل قوة الاشياء سياسة غياب ؟ »

ان ظهور مقال المدير العام السابق للاونسكو حول هذا الموضوع قبل دقائق من التصويت على القرار نفسه يكشف عن الجو المحموم الذي خلقته الصحافة حول هذا النقاش .

اما دخول منظمة التحرير الفلسطينية بصفة مراقب دائم والقرار الذي اتخذه المؤتمر العام والذي يدعو المدير العام الى « مراقبة سير المؤسسات التربوية والثقافية في الاراضي المحتلة » فانهما لم يعلق عليهما في الصحف الا تعليقا ضئيلا نسبيا . غير ان هذين القرارين لا يفلتان مع ذلك من شجب الصحافة ، (وان كان شجبا غير عنيف) ازاء ما تعتبره عملا تمييزيا وعدوانيا تجاه اسرائيل .

وقد حاول توضيحان هامان نشرا في « الموند » وضع حد لهذه المعارضة العامة الكثيفة :

١ — ففي جريدة « لوموند » (٤ كانون الاول ١٩٧٤) توضح الاونسكو مدى القرارات المتخذة ازاء اسرائيل وتصحح التشويهات التي قامت بفعل اخبار متعجلة ، وغالبا غير كاملة .

٢ — تصريح للمدير العام الجديد السيد مبو نشرته « لوموند » يوم ٧ كانون الاول ١٩٧٤ وفيه يكرر التوضيح الاول مبررا وموسعا اياه . (1)

والمناقشات التي ثارت حول هذه النقط الخاصة قد اتخذت صورة فكرة عامة عن « التسييس » المتفاقم في المنظمة التي اصبحت ، في رأي الصحافة ، منبرا سياسيا حقيقيا لتعميق الخلافات الدولية بدلا من تجاوزها .

وكتب تييري مولنيه في عدد ٢٢ تشرين الثاني من « الفيغارو » يقول :

« هنا يكمن حقا ما هو خطير . فليس للاونسكو ان تتعاطى السياسة وان تضع نفسها في خدمة المصالح السياسية . فاذا تابعت سيرها في هذا السبيل ، واذا اتضح انها ليست بعد الا آلة حرب بين ايدي اكثرية اهدافها غير ثقافية ، فتلك مسألة ضميرية تطرح على الامم الغربية التي تؤمّن ، كما هو معروف ، تمويل الميزانية التي يحظر على اسرائيل الافادة منها . »

وتتحدث « الفيغارو » ايضا في عدد ٢٧ تشرين الثاني عن «السيرك» الذي اصبحته منظمة الاونسكو ... وكتبت « لوموند » في عدد ٢٤ تشرين الثاني تقول : « ان تسييس مناقشات المؤتمر العام للاونسكو الذي كانت اسرائيل اولى ضحاياه تاكد يوم الجمعة خلال درس القرار — المسلسل حول اسهام المنظمة في مسائل السلام . »

وقبل ذلك بأيام ، كانت مقاطع من رسالة رينه كاسان الى السيد ماهو قد ظهرت في هذه الجريدة نفسها على النحو التالي :

« انني يخشى ، في اللحظات الاخيرة من عهدك اللامع ، ان تصبح الاونسكو ضحية الفكر المناصر لاولئك الذين يريدون تحويل المنظمة

---

(1) راجع ترجمة هذا التصريح في مكان آخر من هذا العدد (تحرير الاداب) .

العالمية الى « آلة حرب سياسية » بحصولها على طرد احد اعضائها ، وهي اسرائيل ، وارثة التقاليد السحيقة التي اسهمت في تنوير الانسانية قاطبة ؟ »

وتصف الصحيفة الباريسية اليومية الاونسكو في عدد ٢٥ تشرين الثاني بانها « دساسة سباسة » :

« ان الدورة الثامنة عشرة للاونسكو التي انتهت يوم السبت في باريس بعد ستة اسابيع من العمل ستسجل منعطفا في تاريخ المنظمة. والواقع انه لم يحدث قبل الان ، كما لاحظ جميع المراقبين ، ان سيست مناقشاتها الى الحد الذي سيست به في تلك الدورة . »

ويرى كثير من الصحفيين في هذا التسييس افلاس المهمة التربوية والثقافية للمنظمة ويفسرونه على انه نكوص عن رسالتها وانكار لمبادئها نفسها .

وقد خصصت « لوموند » افتتاحية عددها يوم ٢٥ تشرين الثاني لهذا الموضوع :

« ان التشوش في الاونسكو ، المرصودة للتربية والثقافة والفنون، والمعتقد انها الحرم الاخير لسلام النفوس - ان التشوش يبلغ حد الهزل والسخرية . »

ويحاول السيد مبو المدير العام الجديد للاونسكو ان يعطي لفكرة « التسييس » قيمتها الحقيقية وبعدها الطبيعي كرد على هذه الاحكام المغرضة المتعجلة (...)

واخيرا ، اذا كان صحيحا ان الحقائق الثقافية يجب ان تنفصل عن الحقائق السياسية ، فسينتج عن ذلك مقاربة وامثلة للثقافة وصفها مقال نشرته « نونوفيل اوبسرفاتور » بتاريخ ٥ كانون الثاني ١٩٧٥ بانها كاريكاتورية تماما ، وخطرة ، وبائدة ..

« ان الفصل التجريبي للعلم والثقافة والتربية عن بني المجتمعات وسياساتها واهدافها التي تمارس فيها سيؤدي الى اعتبار هذه النشاطات الانسانية مقطوعة عن اسسها الاجتماعية بمقدار ما هي مقطوعة عن نتائجها . وسوف تكون بذلك تربية « البرج العاجي » وعلمه وثقافته ، وليس دراسة دورها في المجتمعات ، واستخدامها الواعي من اجل تقدم مجتمعاتنا . »

والانطباع العام الذي تخلفه الدورة الثامنة عشرة للمؤتمر العام في الاذهان ، بالنسبة لدورها التاريخي ، يمكن ان يلخص بما يلي :

كتبت « جون افريك » بعدد ٧ كانون الاول ١٩٧٤ تقول :

« ان العنصر الاكبر يبقى مع ذلك بروز كتلة تاريخية تظهر العلاقة الوثيقة في التحالف بين البلاد الاشتراكية التي يقودها الاتحاد السوفياتي وبين البلاد العربية . هذه الكتلة وحدها تبلور الاكثرية . وقد غير هذا العنصر الجديد علاقات القوى ، وللمرة الاولى ، فقدت القوى التقليدية المبادرة . وقد كشف لنا عن ذلك التصويت على القرارات التي اعتبرها جميع المشاركين قرارات حاسمة ، قرارات - روائز . »

قد تكون غاية الصحافة اذن ، من هذه الطرق الاعلامية المسرحية، السعي الى التعويض عن هذه البداية الجديدة ، والعمل على ايجاد التوازن مع تلك الديناميكية المنبثقة التي رأيناها ترتسم في هذه الدورة الثامنة عشرة للمؤتمر العام للاونسكو .

رفيق سعيد

مندوب تونس الدائم لدى الاونسكو

أحمد مختار مبو

حقائق مشوهة ...

تفتقر الانباء التي نقلتها الصحف والاذاعة والتلفزيون في موضوع القرارات المتعلقة باسرائيل والتي اتخذت حديثا في الدورة الثامنة عشرة للمؤتمر العام للاونسكو ـ تفتقر غالبا الى الدقة ، بل حتى الى الموضوعية .

ان هناك قرارين اتخذهما المؤتمر العام يهمان بالدرجة الاولى اسرائيل : يتناول اولهما تشكيل الفرق الاقليمية المكونة داخل المنظمة ، ويتناول الاخر حماية التراث الثقافي في القدس . فقد فسر تفسيرا خاطئا او ناقصا القرار المتعلق بتحديد المناطق من اجل تنفيذ النشاطات ذات الطابع العام حين ذهب البعض الى القول بان اسرائيل قد طردت من الاونسكو او وضعت في استحالة المشاركة بنشاطات المنظمة .

ان اسرائيل لم تطرد من الاونسكو ولا من اي فريق اقليمي في نطاق الاونسكو ، بل هي مستمرة كعضو من الدول الاعضاء في المنظمة .

وكذلك فان اسرائيل ما تزال مصنفة من اجل انتخابات المجلس التنفيذي في الفريق ١ (اوروبا الغربية) على غرار اوستراليا وكندا والولايات المتحدة الاميركية ونيوزيلندا الواقعة جغرافيا خارج اوروبا . وعلى غرار كندا والولايات المتحدة الاميركية ، ادرجت اسرائيل خلال الدورة الـ ١٨ للمؤتمر العام مشروع قرار من اجل ان تدرج « في لائحة البلدان المفوضة بالاشتراك في النشاطات الاقليمية الاوروبية التي تشكل الصفة التمثيلية للدول بالنسبة اليها عنصرا مهما » . فاذا تبنى المؤتمر العام القرارات المتعلقة بكندا والولايات المتحدة ، فانه رفض القرار المتعلق باسرائيل ، اي ان هذا القرار قد رفضه الممثلون المفوضون من حكومات الدول الاعضاء في المنظمة .

وهكذا فان اسرائيل تجد نفسها في الوضع نفسه الذي كانت فيه تماما قبل الدورة الـ ١٨ للمؤتمر العام . فلا يمكن الادعاء اذن بانها طردت من اي مكان : فالامر الوحيد الجديد هو ان اسرائيل هي الدولة العضو الوحيدة غير المدرجة في « المناطق التي تتولى تحقيق النشاطات ذات الطابع الاقليمي » باعتبار ان اوستراليا ونيوزيلندا قد صنفتا ، باقتراح من خمس دول اسيوية على الخصوص ، في فريق آسيا ـ اوقيانوسيا . كما صنفت كندا والولايات المتحدة ـ بناء على طلبهما ـ في فريق اوروبا الغربية .

ثم ان كندا والولايات المتحدة كانتا قد طلبتا في الدورة الـ ١٧ للمؤتمر العام (١٩٧٢) ان تشاركا في المؤتمر الثاني لوزراء التربية لدول اوروبا الاعضاء ، فلم يقر طلبهما . ولم يتهم احد آنذاك الاونسكو بانها طردتهما من اي فريق اقليمي معين ، لا في كندا ولا في الولايات المتحدة ، واقل من ذلك في اوروبا . واذن ، فان هاتين الدولتين قد شاركتا ، كاسرائيل ، في المؤتمر الذي عقد في بوخارست في ديسمبر ١٩٧٣ بصفة مراقب . وهذه الامكانية لا تزال متروكة لاسرائيل اذا دعي مؤتمر وزاري مرة اخرى في اوروبا . كما ان اسرائيل تستطيع ان تشترك ، بصفة مراقب ، كما فعلت سابقا ، في اي مؤتمر وزاري اقليمي ، حيثما عقد .

اما القرار الثاني فيطلب من « المدير العام الامتناع عن تقديم مساعدة لاسرائيل في ميادين التربية والعلوم والثقافة ، الى ان تحترم احتراما دقيقا القرارات التي اتخذها المجلس التنفيذي والمؤتمر العام . »

هذا القرار يرتكز خصوصا على القرارين ٢٢٣٥ تاريخ ٤ تموز ١٩٦٧ و ٢٢٥٤ تاريخ ١٤ تموز ١٩٦٧ اللذين اتخذتهما الجمعية العامة للامم المتحدة ، والقرارين ٢٦٧ تاريخ ٣ تموز ١٩٦٩ و٢٦٨ تاريخ ٢٥ ايلول اللذين اتخذهما مجلس الامن حول وضع القدس ، وكذلك على قرارات المؤتمر العام للاونسكو في دورتيه الـ ١٥ والـ ١٧ والمجلس التنفيذي في دوراته الـ ٨٢ و ٨٣ و٨٨ و٨٩ و٩٠ . وحين تبنى المؤتمر العام قرارا جديدا ، فقد اعتبر ان الحكومة الاسرائيلية لم تهتم بالنداءات العاجلة التي وجهت اليها منذ عام ١٩٦٨ لكي « تمتنع عن اي تنقيب اثري في مدينة القدس وعن اي تغيير في طابعها او مظهرها الثقافي او التاريخي ، لا سيما ما يتعلق بالاثار الدينية المسيحية او الاسلامية » .

واذ تحقق المؤتمر العام ان التنقيبات والاعمال التي يعتبرها قابلة للاضرار بالاثار الدينية المسيحية او الاسلامية لا تزال مستمرة ، فقد قرر بعد ستة اعوام من انذاره الاول ، ان يدين موقف اسرائيل الذي يعتبره « متناقضا وغايات المنظمة كما وردت في مرسومها التشريعي . »

وانا حريص على ان اسجل بان المؤتمر العام حين اكد كل قراراته السابقة المتعلقة بالقدس انما دعا من جديد « المدير العام الى مواصلة جهوده ليؤمن الحضور الحقيقي للاونسكو في مدينة القدس » .

هذه هي الوقائع . ونحن نامل ان تتيح للرأي العام ان يكون فكرة اصدق واصح عن القرارات التي اتخذها المؤتمر العام في دورته الـ ١٨ . لقد سبق ان اتخذت في الماضي مثل هذه القرارات فلم تثر ردود الفعل التي نعرفها .

يتحدثون عن « تسييس الاونسكو » كما لو ان مؤسسات نظام الامم المتحدة لم تولد من ارادة سياسية ، هي ارادة اقامة سلام عادل ودائم بالاسهام في تقدم الانسانية وتعميق التفاهم والتعاون بين جميع الشعوب » . ولما كانت الاونسكو مكونة من دول منظمة الامم المتحدة نفسها ، ولما كان التمثيل مؤمنا في المؤتمر العام على المستوى الحكومي ، فمن الطبيعي ان تجد المشكلات التي تحرك العالم صداها في الاونسكو .

وكما اتيح لي شخصيا ان قلت في جلسة اختتام الدورة الثامنة عشرة للمؤتمر العام ، فاعتقد ان علينا في منظمة ترتبط اهدافها بميادين التربية والعلوم والثقافة ان نتجنب بعض المعارضات التي تتخذ شكل مجابهات جذرية ، بل ان نتجنب اتخاذ قرارات ، ولو باكثرية ساحقة ، تترك مرارة عميقة لدى البعض . والواقع اني اعتقد اننا بحاجة الى طاقة دائمة للحوار ، وهذا ما يفترض ان نجهد ، حتى ولو بدا ذلك للوهلة الاولى مستحيلا ، لكي نلتمس بالتشاور الصابر التوافق الذي ينبغي ان يكون القاعدة الذهبية لمؤسسة كالاونسكو .

من اجل هذا اشرت في المؤتمر العام ، بصفتي مديرا عاما انتخب حديثا ، ولانني لم اشارك في المناقشات التي جرت قبل انتخابي ـ اشرت الى نيتي بان اخرج ، كلما بدا ذلك ضروريا ، من التحفظ الذي يتجاوز الحد الى بذل الجهد لتقريب وجهات النظر لبلوغ الاتفاق العام الى ابعد حد ممكن .

والان ، فيؤسفني ان تكون بعض الشخصيات التي اعتمدت على معلومات اقل ما يقال فيها انها ناقصة وغالبا مشوهة قد اعتقدت ان عليها ان تنحاز الى مواقف حاسمة الى ذلك الحد ، في حين ان صفتهم كمثقفين كان ينبغي ان تحملهم ، بالاحرى ، الى الحوار .

ونذكر هنا بان الاونسكو تواصل منذ زهاء ثلاثين عاما ، في ميادين اختصاصها ، فعالية شارك فيها رجال ونساء من جميع الجنسيات والمعتقدات لصالح المجتمع الدولي ، وان موظفين من اكثر من مئة دولة عضو ـ بينها اسرائيل ـ يشاركون اليوم ، داخل السكرتارية ، في هذا العمل المشترك .

وانا اعتقد انه ينبغي دائما ان يكون ممكنا للاونسكو ـ لمجرد ان تريد الدول الاعضاء ذلك ـ ان تتغلب على الوان التوتر التي تعترض التعاون والتفاهم الدولي في ميادين اختصاصها . ولكن ذلك يقتضي الا تمس قوانين المنظمة وانظمتها المحددة كهدف مبتكر ينبغي تعميمه لمصالح خاصة .

أحمد مختار مبو

المدير العام للاونسكو

صلاح عبد الصبور

الشعر والرماد

ها أنت تعود اليّ
ايا صوتي الشارد زمنا في صحراء الصمت الجرداء
يا ظلي الضائع في ليل الاقمار السوداء
يا شعري التائه في نثر الايام المتشابهة المعنى،
الضائعة الاسماء
وانا أسأل نفسي ،
مأخوذا بتتبع أصداء حديث الاشياء الى روحي
وحديث الروح الى الاشياء
مسلوبا خلف الصور السانحة الهاربة المتوهجة المنطفئة
اذ تطفو حينا في زبد الافاق الممتده
ثم تغوص وتنحل ، كما تنحل الموجه
أو تذوي وتذوب كما تذوي قطرات الانداء
وانا أسأل نفسي
ماذا ، ردك لي، يا شعري ، بعد شهور الوحشة والبعد
وعلى اي جناح عدت ، حيبا كالطفل، رقيقا كالعذراء
ولماذا لم اسمع خطواتك في ردهة روحي الباردة المكتئبة
هل عدت خبيئا في بسمة حسناء من مانيلا
هل كانت في السوق ، او الفندق ، او في الملهى
لا اذكر ، فالبسمة في هذا البلد ندى ..
تغتسل به العينان صباح مساء
ام عدت على نفحة عطر الفل
لفته في عنقي كف محسنة سمراء
ام عدت لترقص ضيفا ــ من اقصى الشرق الى اقصى الشرق.
في عرس الموسيقى والشعر
هذا العرس العامر في كل مساء ،كل سماء
فخلعت ثياب اساك ، والقيت بها لسقاة الخمر
ثم نثرت على وجهك الوان الطيف ..
وبعثرت خطاك الى صدر القاعة
منتشيا بالانغام وبالعطر
ونثرت هداياك من الكلمات على معبوديك ــ الموسيقى والشعر
وعلى الاحباب الشعراء
وانا أسأل ثانية يا شعري العائد
اين ستمضي رحلتنا في هذي الايام الحلوه
فأنا علم ان الخمر تقود الى النشوه
وأنا اعلم ان الشعر يقود الى الصبوه
لكن الايام تدق الاجراس
ومفكرتي ، مثل نفير سفينة ملاحي الزمن الماضي
تدعوني كي اجمع حاجاتي ، تذكاراتي
تدعوني كي أجمع ايامي المنفرطة يوما يوما
القيها في قاع حقائب سفري
أسفا ، لن تكمل رحلتنا يا شعري
وسأمضي كي اضع خيامي في أرض اخرى
لا تذروني عنها ريح الزمن الهوجاء
فوداعا ، يا احباب الشعر ، ويا شعراء
في ايام ، في ايـام
سوف أعانق قاهرتي، يلتئم الشمل مع الندمان
قد يسألني احدهم ان افتح قلبي ، أعرض لهـم
تذكاراتي من مانيلا
سأقول لهم : لا تذكارات معي .. لا .. بل اعطتني مانيلا
شيئا من حكمـة مانيلا
اعطتني ان الفم لم يخلق الا للضحك الصافي الجذلان
اعطتني ان العينين
مرآتان يرى في عمقهما العشاق ملامحهم
حين يميل الوجه الهيمان على الوجه الهيمان
اعطتني ان الجسم البشري
لم يخلق الا كي يعلن معجزته
في ايقاع الرقص الفرحان
درس عرفته روحي بعد فوات الازمان
بعد ان انعقد الفم بضلالات الحكمة والحزن
وارخى ستر القلق الكابي في نافذة العينين
وتصلب جسمي في تابوت العادة والخوف
بعد ان احترقت ، او كادت بهجة عمري ،
اذ رمت الايام رماد حياتي في شعري
... درس عرفته روحي بعد فوات الازمان .

مانيـلا

ادوار الخراط

ندوة « الأداب والاجيال الجديدة »

عندمـا هبط المندوبون الى « ندوة الادب والاجيال الجديدة »الى ارض مطار مانيلا ، في الفيليبين ، كانت في انتظارهم عقود الفل الابيض التقليدية ، تطوق اعناقهم بهـا فتيات الفيليبين الجميلات التقليديات، يبتسمن ابتسامات الترحيب التقليدية . نعم . كـان في الندوة كثير من العناصر التقليدية التي يعرفها المشاركون في المؤتمرات والندوات الدوليـة ـ وهي اجتماعات تتكاثر بل تتفشى اليوم على نحـو ينـذر بالقلق ، المناقشات فيهـا تتكرر وتتشابه ، والاوراق تتضخم بل تتفاقم، والوجوه نفسهـا تظهـر المرة بعد المرة .. اما النتائج الملموسة فمـن الطبيعي ان تكـون أقل من القليل .. وهو مـا لـم يفت علـى بعض المتحدثيـن في هذه الندوة بالذات ، وبخاصة في جلستها الختاميـة العلنيـة التي هبت فيهـا حقـا انفاس طرية منعشة تدل على يقظة بعض الكتاب الى هذا الخطر من تكرار الذات واجترار الكلمـات . فقد كانت هنـا اذن ـ على الرغم من كل شيء ـ عناصر غير تقليدية ، ومثيرة للفكر: دلائل على الحيويـة والتململ الخصيب تتلاقى من كتاب جاءوا ـ على غير معرفة سابقـة احدهم بالاخر ـ من سنغافورة ومن سيراليـون ،من الفيليبيـن ومن فلسطيـن ..

انعقدت الندوة في اطار اتحاد الكتاب الافريقيين الاسيويين ، بعد اقل من شهرين من انعقـاد ندوة المجلات الادبيـة في بيروت ،وحضرها نحـو ثلاثيـن كاتبـا جاءوا من ١٨ بلدا من افريقيا واسيا ، ونحـو ١٥ مراقبا جاءوا من منظمـة الوحدة الافريقية ومن ثمانيـة بلاد في اوروبا وامريكـا واستراليا . وكان الوفد الفيليبيني ـ كالعادة ـ مكونا مـن ٦٣ مندوبا ، ومندوبا بديلا ، ومراقبا ، وضيفا .

وكان جدول اعمالها ، بعد التعديلات الاخيرة التي اجريت في جلسة عقدها رؤساء الوفـود بعـد ظهر الخميس ٣٠ يناير سنة ١٩٧٥ عشية افتتاح الندوة هو :

اولا ـ اداب افريقيا ودورها في تعزيز السلم العالمي والنضـال ضد الامبريالية والاستعمار والاستعمار الجديد والعنصرية والصهيونية، وفـي توطيـد الوحدة الوطنية ،وحق تقرير المصير ، والعالم الروحـي للقراء الافريقيين الاسيويين .

ثانيا ـ دور الادب التقدمي ووسائل الاعلام الجماهيري في افريقيا واسيـا بالنسبة للاجيال الجديدة » .

وفي هذه الجلسة ايضا ـ كما جرت تقاليد اجتماعات منظمـة التضامـن الافريقي الاسيوي واتحاد الكتاب الافريقيين الاسيويين ، انتخبت ـ او اقرت ترشيحات ـ رئاسـة الندوة ورئاسات الجلسات ولجنـة صياغـة البيان العام .

وبذلك أقر ترشيح السيدة ايميلدا ماركوس ـ زوجة رئيس جمهورية الفيليبين وسيدتها الاولى ـ رئيسة شرف للندوة ، واقر ترشيح ادريان كريستوبال ـ وهو السكرتير العام المؤقت لاتحـاد كتاب الفيليبين ـ رئيسا للمؤتمر ، اما نواب الرئيس فهم اناتولي سوفرونوف (الاتحـاد السوفييتي) وفان ديورومينجوس (انجولا) وسهيل ادريس (لبنان).

وسرعان مـا انقضت هذه الجلسة التمهيدية ليفرغ الكتــاب الوافدون ـ والكتاب والمنظمون والمضيفون والمضيفات من أهل البلاد ـ الى اول اوجه « البرنامج الاجتماعي » الحافل الحاشد الـذي حلقاته تدور بلا هوادة طوال ايام اقامتنا في الفيليبين،و« البرنامج الاجتماعي » هو التعبير التقليدي الرسمي عن سلسلة الدعوات الى الحفلات والمآدب، والولائم المفتوحـة ، وزيارة الاثار والمعالم السياحية وعروض الرقص الشعبي ، والرقص غير الشعبي ، (كـان هناك ايضا عرض للازيـاء وبتحديد اكثر لازياء « اللانجيري » النسائية جاء صدفـة عقب غداء على سطح هيلتون مانيلا وصاحبته جوائز فاز بها ، بالقرعة بعض كتاب افريقيا واسيا !). واستمر عشاء فندق « الجرانـدي » وعروضـه السياحية المترفة ،حتى قبيل موعد حظر التجول الذي يبدأ في تمـام الساعة الواحدة بعد منتصف الليل وينتهي الساعة الرابعة صباحا.. فنحن في الفيليبين ، وتحت الحكم العسكري الـذي ما زالت لـه انياب ومخالب ، تحت النعومة الرائعـة لكرم الضيافة الباذخة ،ودماثة خلق الناس ، وابتساماتهم التلقائية العذبة ، وفرحهم الحقيقي بلقاء هؤلاء الكتاب القادمين من انحاء افريقيا النائية والبلاد العربية ولهـا عندهم صورة خرافية مهتزة عـن ثروات البترول والحرب مع اسرائيـل ومآثر الاسلام (ما اقصر يد الاعلام العربي هنا !) او من اقطار اسيا التي تربطهم بهـا صلات اللغـة والجنس والقربى، وان كانوا ـ ايضا ـ لا يعرفـون عن ادابهـا الا اقل القليل ..

وفي صباح يوم ٣١ يناير (كانون الثاني) ١٩٧٥ افتتحت الندوة في قاعة « المركز الثقافي » بهندسته المستقبلية التجريدية الخطوط ، الهائلـة الجرم ، جاثمـا على مشارف لسان من الارض مجفف يمتد على خليج مانيلا ، الساجية امواجه ، وقد غاصت فيها ذكريات قدوم التجار العرب القدامى ،« المخدومين » السبعة كما تجري التسمية الفولكلورية عندهم وبلسانهم ،والفتح الاسباني ، ومصرع ماجلان ،والحكم الامريكي، والغزو الياباني ، ومذبحـة الحرب العالميـة الثانيـة الفاجعة ، فعلى هذا الخليج انصب من القنابل والقذائف اكثر مما انصب فـي ايـة

بقعة اخرى من العالم (فيما عدا وارسو الشهيدة) خلال مقتلة الحرب العالميـة الثانيـة .

وبعد ان ذهب الكتاب الوافدون الى مقر افتتاح ندوتهم ، فسبق موكبهم الصغير سيارات المرور بصفاراتها المميزة تفتح لهم الطريـق ، على الطريقة الامريكية واستقروا في صفين او ثلاثة من المسرح الفخم الكبير ، وقد امتلأ بالمدعوين من شباب الفيليبين وكتابها ورجال السلك الديبلوماسي (حرص منظمو الندوة على ان يستثنى من الدعوة سفراء اسرائيل وفيتنام الجنوبية وكوريا الجنوبية والصين ((الوطنية))) وبعد ان اقبل رئيس الجمهورية ، وزوجته ، اعلن ادريان كريستوبال افتتاح الندوة ، واخذ يدعو الكتاب الوافدين واعضاء وفد الفيليبين باسمائهم، فيصفق لهم الحاضرون ..

والقت السيدة ايميلدا ماركوس كلمة ترحيب افتتاحية ، وقرئت رسالة السيد يوسف السباعي السكرتير العام لاتحاد الكتاب ــ وقد حالت دونه والحضور اعذار طارئة في اللحظة الاخيرة ، وقرئت رسالة الرئيس السادات الى الندوة ، وارتجل فردناند ماركوس رئيس جمهورية الفيليبين كلمة طويلة ، وبذلك اختتمت الجلسة الاحتفالية الاولى ، وعاد الكتاب في موكب يشق زحام مرور العاصمة الى الغداء في فندق هيلتون الذي دعاهم اليه وزير العمل والشئون الاجتمـاعيـة كارلـوس روميلو .

كانت رئاسة الجلسة العامة الاولى من جلسات الندوة قد آلت الى فلسطين ، فالقى محمود درويش كلمة قصيرة وحاسمة ، ابرز فيهـا دلالة اختيار فلسطين لرئاسة اولى جلسات الندوة ...

وتوالت جلسات الندوة على مدى يومين ، فرأس الجلسة الثانية كاتب شاب من مالي ، ورأست الجلسة الثالثة الدكتورة سهير القلماوي من مصر ، ورأس الجلسة الرابعة الشاعر الباكستاني الكبير ــ واحد المخضرمين من جيل رواد حركة التضامن الافريقي الاسيوي ــ فيض احمد فيض ، اما الجلسة الختامية فقد رأسها مرة اخرى ادريـان كريستوبال .. وطوال هذه الجلسات كان عبد العزيز صادق ، نائب سكرتير عـام الاتحاد يساعد رؤساءها ويبذل جهده في تسيير العمل فيها .

اما لجنة صياغة البيان العام فقد تشكلت برئاسة الباكستـان (فيض احمد فيض) وعضوية : بنجالاديش (كوندكر الياس) والاتحاد السوفييتي (جورام استاتياني) ولبنان (د. سهيل ادريس) ومـالي (جواسو دياوارا) ومصر (د. سهير القلماوي) وفلسطين (محمـود درويش) والفيليبين (جـ.ف. كروز) وزامبيا (وليام سيادي) والمكتب الدائم للكتاب الافريقيين الاسيويين (ادوار الخراط) .

قدمت في الندوة الوثائق والابحاث المطبوعة التالية ، وقد حاولت ان اضعها حسب موضوعاتها .

في الموضوع الاول للندوة :

١ ــ اكتشاف وتنمية الادب الاسلامي في الفيليبين .
قدمه اندريس كروز (الفيليبين)

٢ ــ الادب من اجل الوحدة الوطنية .
قدمه رولاندوتينيو (الفيليبين)

٣ ــ القيم الروحية : شباب القراء والكتاب .
قدمه ب. ديمول (الفيليبين)

٤ ــ الادب الافريقي الاسيوي : الحاجة الى رؤية عالمية للسلام
قدمه س. بوتسيتا (الفيليبين)

٥ ــ الادب المعادي للامبريالية والاجيال الجديدة
قدمه اوكوتو ايبالي (الكونغو)

٦ ــ التراث الادبي .
قدمه فيض احمد فيض (الباكستان)

٧ ــ كلمة اناتولي سوفرونوف (الاتحاد السوفييتي)

٨ ــ كلمة جورام استاتياني (الاتحاد السوفييتي)

٩ ــ كلمة بوردان ميليف (بلغاريا)

في الموضوع الثاني للندوة :

١ ــ ادب الاجيال الجديدة
قدمته الدكتورة سهير القلماوي (مصر)

٢ ــ الادب والاجيال الجديدة
قدمه جواسو دياوارا (مالي)

٣ ــ الاهتمام بادب الشباب يعكس روح التواصل من الاجيال
قدمه عبدالله الركيبي (الجزائر)

٤ ــ الادب والاجيال الجديدة
قدمه يوري ريتيكو (الاتحاد السوفييتي)

٥ ــ الادب والاجيال الجديدة
قدمه الدكتور جوه بوه سيينج (سنغافوره)

٦ ــ ادب الاطفال في الفيليبين
قدمته سيريز الابادو (الفيليبين)

٧ ــ دور الادب التقدمي ووسائل الاعلام الجماهيري في افريقيـا وآسيا في مجال ادب النشء .
قدمه عبد التواب يوسف (مصر)

٨ ــ الروايات السينمائية باللغة التاجلوجية ، تصهر جديد
قدمه رافاييل جويرور (الفيليبين)

وتكلم في خلال الجلسات معيـن بسيسو من فلسطين ، وكوندكر اليـاس (بنجالاديش) وسهيـل ادريس (لبنان) ولـويد فرينانـدو والبروفيسـور اسماعيـل حسيـن (ماليزيـا) وسيـل شيينـي كوكر (سييراليون) ووليام سيادي (زامبيا) والشاعر الهندي تامبي موتي القادم من لندن ، كما القت السيدة آن كنفاني كلمة مؤثرة في الجلسة الختامية ، وكان من نجوم الكواليس في الندوة الكاتب الامريكي العجوز المرتفع الصوت ، بشاربه السنجابي ، وليام سارويان .

يبدأ بحث اندريس كريستوبال كروز ــ وهو كاتب فيليبيني مسلم باسم ، دمث الاعطاف ، نشط وشغوف ، لعب دورا كبيرا في تنظيم الندوة والعمل في اروقتها الخلفية ، شديد الاهتمام بادبنا العربـي وعالمنا العربي ، بتحية الاسلام باللغة العربية ثم اذا هو يترجمها الى الانجليزية ، ويمضي مباشرة الى القول بان جزر ميندانا ((المسلمة)) في جنوب الفيليبين ، تجتاز مرحلة تطورات عميقة الاثر فـي الميادين الاجتماعية والاقتصادية والثقافية ، ثم يبسط تفصيـلا لهذه التغيرات التي تجري تحت جناح ((الثورة الديمقراطية التي تقوم بها الحكومـة بقيادة الرئيس ماركوس ، لتثوير مجتمعنا ككل ، والطوائف الاسلامية وغير الاسلامية على السواء)) وهـو يعدد المؤسسات التي تقوم بعمليـة التثويـر ، ومنها ((مؤسسة تنمية مينداناو)) ، وبنك التنمية فـي الفيليبين ، ((وبنك الامانة)) الذي ينتهج الشريعة الاسلامية في المعاملات المصرفية ، واكاديمية ميندناو الادارية ، وجامعة الدولة في ميندناو ، والمؤسسات التعليمية والثقافية فيها .

ونحن اذ نستمع الى هذا العرض التفصيلي لا نملك الا ان نضعه في سياق الاضطرابات الطائفية التي ما زالت تدور في جنوب الفيليبين، وان كان لا ينبغي ان يغيب عنا انها اضطرابات تجري ، فـي التحليـل الاخير ، في سياق حكومة وطنية تهدف الى توكيد الطابـع القومـي للفيليبين وتناهض الآثار الاستعمارية المدمرة للثقافة القومية او المحلية على الاصح ، سواء كانت من تركة الاستعمار الاسباني القديم ــ تحت ستار الكاثوليكية ــ او من تركة الامبريالية الامريكية الحديثة العهـد نسبيا ــ وكلتاهما تركة ثقيلة ترزح الفيليبين كلها تحت بصماتها الفادحة، وقد تغلغلت وتفشت هذه الآثار الى صميم الحياة وبخاصة في المجتمع الحضري . اما اهل الريف والجبال والجزر النائية فهم ــ شأن امثالهم في العالم الثالث كله ــ حرس الحضارة القديمة والتقاليد الثقـافيـة

الشعبية الحية العريقة ، وشان امثالهم في بلادنا جميعا ، فان الوديعة الغالية التي بين ايديهم تتهددها كل اخطار وسائل الاعلام (البث ـ على الاصح) الجماهيرية تلك نفسها التي كان على الندوة ان تناقشها ، ولكنها لم تمسها الا مسا عابرا (اليست هذه الوسائل في النهاية من طرف واحد هو طرف الارسال فقط ؟ ما دور المتلقي فيها ؟ اقل من القليل !!) ... هي وديعة ثمينة ولكنها تذبل بضرورة التطور التكنيكي الجارف الذي يجفف عصيرها ..

بعد هذه المقدمة (التي وزعت بعد مرور يوم من تقديم البحث نفسه ، فقد كان (ضروريا) اذن ، في ظل الظروف القائمة ، ان يتم هذا الاستدراك) يبدأ البحث الاصلي الذي كان قد قدم من قبل الى الندوة ، بأن الادب الفيليبيني ((المسلم)) ما زال في غالبه ادبا شفاهيا، وانه لم يلق تشجيعا الا منذ فترة وجيزة .

ويصنف البحث الادب الاسلامي في الفيليبين الى انواع ، فمنه الصلاة ، وهم يعرفونها باللغة العربية ويطلق عليها باللغة المتداولة ((ساميا هايانج)) ومنه الدعاء ، وهم يقرأون الفاتحة ، بالعربية ، بطبيعة الحال ، ويعرفون ((الحديث)) ويعتزون به ، ويضمنونه خطبة الجمعة ، ويقول البحث أن من طقوس الزواج بين المسلمين في الفيليبين وبخاصة عند ((التاوسوج)) ان تغني احدى الفتيات ((القصة)) ونفهم من البحث انها قصة تتعلق بتقاليد الزواج ، وتصاحبها موسيقى الجابانج (او الاكسيلوفون المتخذ من عود البامبو) و (البيولا) (الكمان الشعبي) او السولينج (او الناي الشعبي)

ثم يمضي البحث الى عرض تاريخي موجز لدخول الاسلام الى الفيليبين ، في منتصف القرن الرابع عشر ، ويلقي الضوء على الحرب المستمرة التي خاضها المسلمون في الفيليبين ، دون توقف ، ضد الغزاة الاسبان حتى نهاية الحكم الاسباني ، ثم يفصل الاسباب التي حالت دون ظهور ادب اسلامي مكتوب ومن ابرزها الافتقار الى لغة واحدة مكتوبة ، والى وسيلة جامعة للتعليم ، ونشوب الصراعات والحروب الاقطاعية بين المجتمعات الاسلامية بعضها البعض ، وبينها وبين الغزاة الاسبان ، مما ادى الى نضوب الطاقات الخلاقة واستنفادها .

ولكن الادب الشفاهي ما زال قائما وحيا ، وثمة جهود لتسجيله واعادة اكتشافه وترجمته ونشره ، والبحث يذكر من انواع هذا الادب : ((السلسلة)) او ((الترسيلة)) وهي حكاية شجرة الانساب وتتبع الاصول و ((القصة)) وهي حكاية طويلة تروى حفظا والقاء ، او غناء بمصاحبة الموسيقى ، وتجمع بين الفائدة والموعظة والتسلية والتشويق ، ومنها قصص الخلق او ((الكون)) وقصص ((الاصول)) من نحو قصة ((ابينا آدم وامنا حواء)) وقصة اصول اشجار الفاكهة والطعام والملابس ، وفيها تمتزج نسمات المأثورات الشعبية التاوسوجية القديمة بالعقائد الاسلامية .

ومن هذا الادب ما يعرف بالكاتاكانما ، وهي حكايات الفولكلور الصريح ، حكايات السلاطين والشطار ، ومنه اخيرا الالغاز والاحاجي ، والامثال السائرة :((الحب ، كالضحك ، لا يختفي)) والحكم المأثورة ، ((يعرف الناس باصولهم)) او ((من لا عزم عنده لا مستقبل امامه)) ومنها ((الماالكيمانا)) او ((الكلام الملغوز)) ، حيث تقلب الكلمات على وجوهها ، وتحرف ، وتمزج بعضها بالبعض ، وتتداخل المقاطع والحروف ، لاخفاء المشاعر او اللعب بالالفاظ (وعلى سبيل الاستطراد فان اطفالنا في مصر ما زالوا يعرفون هذا الفن الطريف ، كما عرفناه في طفولتنا ، لست ادري ايعرفه ويمارسه الاطفال في البلاد العربية الاخرى ؟ وهل نعرف كيف نحافظ على الطفولة في هذا الفن الجميل ؟) .

ويمضي البحث ـ وقد اخذ ينحو منحى فولكلوريا واضحا ـ الى ما يسميه ((رقى الحب)) ((او تعاويذ الحب)) ، وهي تدخل مدخل السحر واستجلاب المحبة ، واخيرا اغاني الحب بانواعها ، وتجري الحكاية بان اصلها اغنية شدت بها ارملة قبطان على سفينة ، فاخذت باعنة قيادتها واخفت نبأ الفجيعة عن بحارته وراحت تشدو بآلام قلبها ...

اما القسم الثاني من البحث فيتناول الادب المكتوب عن المسلمين في الفيليبين ويشير خاصة الى كتابات نجيب صليبي ، وهو مؤرخ امريكي من اصل عربي ، وغيره من الكتاب .. ويخلص في النهاية الى ما يراه الكاتب ضروريا في سبيل البعث الثقافي لادب المسلمين في الفيليبين .

واضح اذن أن هذا البحث يندرج في سياق اكاديمي ، اخباري ، وفولكلوري ، وهو على قيمته وجدته ، لا يثير قضايا ولا يدعو لمناقشة بقدر ما يسوق معلومات ويكشف عن وقائع وتواريخ ، وله ، في هذا السياق ، فضله واهميته .

اما البحث الذي قدمه رونالدو نينيو من الفيليبين فانه يبدأ بعبارة شاعرية ،((ليس للادب في الواقع ، الا غاية واحدة نبيلة : ان يكون رمز وحدة الروح في بلد من البلدان . ان الادب ، اكثر من اي فن اخر ، هو اوضح مرآة لهذه الروح ، واعظمها حظا من الحياة ، لانه يتشكل في اللغة ، وفي اللغة يمكن ان نقرأ حقا سيرة حياة الشعب . في اللغة ينادي الاسلاف الذين لا اسم لهم بعضهم بعضا ، الاسلاف الذين غابوا في طيات الماضي البعيد والذين لم يولدوا بعد في المستقبل المكنون)) ...

((او ليس الادب حقا هو ذاكرة الشعب ، متجددة ابدا ؟))

((ان امتلاك الذاكرة لشيء ثمين . الذاكرة وحدها تهب الانسان الوعي بالذات .

((ليست التقاليد اصفادا تغلل القوى والايدي ، بل هي عقد تتوارثه الاجيال يميد على العنق والصدر ، يعني الجمال والاسم والشرف ...)) .

((واذا كنت ازجي الثناء لذلك كله ، فليس معنى هذا انني اغفل عن الاوضاع الخطيرة التي تسود العالم كله او انجاهل شتى الاشكال التي يتخذها الحزن والاسى في كل اركان افريقيا وآسيا ، او انني اخافها ، في بلادي ، وفي بلاد كثيرة اخرى مما يسمى بالعالم الثالث، فانه من المهم ان نذكر انفسنا بان لنا امجادنا الروحية ، وبنفس القدر من الاهمية نبحث عن لقمة الارز نبتلعها ، بينما تغص جلودنا ورؤوسنا بالقروح وتتحلل مفاصلنا وتتمزق قلوبنا كاللحم المهترىء من فرط الغليان)) .

وتمضي الورقة بعد هذه الشاعرية الخام النيئة ـ الى فكرتها الاساسية :

((الا يمكن ان نصبح علومنا وتكنولوجيتنا حديثة ، بينما تبقى فنوننا وفلسفتنا محافظة ؟ اي فنوننا نحن وفلسفتنا نحن ؟ وحتى لو كنا ندرس كيف نعيش مع كل ضروب الناس في العالم افليس من الاهم ان نوطد انسانيتنا ، نحن ، الخفية البارزة ؟ الا ينبغي ان نفهم كل الشعوب الاخرى في العالم جوهرنا ((نحن)) ؟..

((يفترض كذلك ان الادب ـ وخاصة ادب البلاد الشفراء ومجتمعات الوفرة وعالم الارواح المترفة ـ هو اجمل الملهمين ...

((ومن خلال الادب يمكن ان نتورط في مشاعر الغرباء ، ومشاكل القلوب الغريبة والقرارات التي تضرب بجذورها في تقاليد غريبة، فاذا كنت من سكان الجبال فانت تجد نفسك فجأة هائما على وجهك في مدن الصلب والزجاج والاسمنت والبلاستيك ، والآلية والادوات الحاسبة ، ومن الصعب عندئذ ان تكف نفسك عن القول : ينبغي ان اكون منهم لكي افلت من عالمي : عالم الوحل والبامبو . وفي تفكيرك يصبح معنى أن تكون تقدميا وان تكون غريبا اجنبيا شيئا واحدا . وفجأة يبدو لك طعامك وملابسك وطريقة قص شعرك ولون بشرتك ورذائلك السابقة كلها ، كما لو كانت حواجز ...

((لذلك اجدني مضطرا الى ان اوحي بقيمة التقهقر ، بالنظرة المتناهية الى الوراء ، بالرجوع دائما والعودة الى العش ، حتى لو

كانت الحشرات تاكل هذا العش وتفوح منه رائحة لا تطاق . ذلك ان تبلور الروح ونباتها اهم عندي من التقدم والرقي ... »

« أن من واجب الكتاب حقا ان يحدوا شعبهم الى تجارب جديدة، الى نوافذ وابواب جديدة .. ولكن لا يجب ابدا ، ان يخرجوا من البيت .. لانه ايضا نتزيل من التنزيل ان تحدوهم الجماهير الجاهلة التي هي حقا حفظة الشعور القومي . وسوف نشهد ، في هذا الحداء المتبادل ، الخطوة الضرورية الى الامام ، الحركة الى الامام التي هي ايضا حركة الى الوراء ، كحركة الثعبان . لانه فوق كل شيء ، وبعد الاجتماعات الدولية ، مثل هذا الاجتماع وبعد المعارف الهامة التي يمكن ان نجنيها من اخوننا واخواتنا في اجزاء اخرى من العالم ، فسوف يبقى واجبنا ان نكون لا كتاب العالم بل كتاب بلادنا وجبالنا ... »

« هذا هو عندي التحدي الذي يواجهه كل الكتاب في الاجيال الجديدة : ان يحتفلوا بالحساسية الاصيلة للشعب ، ان يقروا هويتنا الجوهرية ، ان يحتفوا بلغتنا ويثروها فهي المرآة الوحيدة لهويتنا القومية .

« قد يبدو هذا صبيانيا ... ولكنني ادرك اكثر فاكثر انه ثم فضيلة مثيرة في النمو الى الوراء ... » .

في هذه المقتطفات التي حرصت على ان نكون مستفيضة بقدر الامكان ، من هذا البحث ، برزت قضية اثارت الندوة ، واثارت حولها جدلا انعكس اثره في البيان العام للندوة ايضا ، والفكرة الرئيسية ، كما هو واضح ، هو تأكيد « العودة الى الوراء » اي النكوص الى الذات القومية والاصاخة بالسمع الى النبضات الشعبية والعكوف على لغتها ... وايا كانت شاعرية اللغة التي قدمت بها الفكرة ، فلعلها من المشاكل الحقيقية القليلة التي تؤرق مثقفينا وكتابنا في كل بلاد العالم الثالث ، وتعرف عندنا بقضية الاصالة في مواجهة المعاصرة ، والتراث في مواجهة التجديد ، والمحلية في مواجهة العالمية ..

شارك في مناقشة هذه الفكرة فيض احمد فيض من الباكستان ، وسهيل ادريس من لبنان ، وبوتيستا من الفيليبين ، ولويد فرديناندو من ماليزيا ..

وكان الاتجاه العام في المناقشة هو ، على العكس ، ضرورة تأكيد التكامل والتضافر الانساني الشامل بين الآداب والخصائص القومية (لويد فردیناندو) وان ابراز الطابع القومي ، والنكهة المحلية هو في ذات الوقت اسهام في ابراز الطابع الانساني للادب والثقافة على السواء ، واثراء له (سهيل ادريس) وان علينا ان نحافظ على الجوانب الحية الفنية ((التقدمية)) من تراثنا،لا على كل التراث بما فيه من خير وشر (فيض احمد فيض) .

وجاءت صياغة هذه الفكرة في كل من مشروع البيان العام والبيان العام شهادة على وعي المنتدين لاهميتها ...

ثم القيت بعد ذلك ورقة هامة ومثيرة للفكر ، كتبها كاتب فليبيني شاب هو بول‌ديمول ،تناولت موضوع القيم الروحية عند الادباءوالقراء الشبان .

وتبدأ الورقة مباشرة ، على النحو الاكاديمي ، بمحاولة للتعريف :

« ان اصعب مهمة في هذه الورقة هي تحديد ما نعني « بالقيم الروحية » اظن ان كلا منا هنا يعرف ما نعني « بالقيم الروحية » ولكن من الصعب ان نقول بالضبط ما هي هذه القيم . ان الكلمة واسعة المدى ...

« من الممكن ان نفكر في القيم الروحية نقيضا للقيم المادية، ومن هنا فاننا نقلل منها ، ومع ذلك فسوف تظل للكلمة تطبيقاتها العريضة التي تشتمل على قيم خلقية وجمالية وثقافية واجتماعية وفلسفية ودينية . ومن الممكن ايضا ان نفكر في «القيم الروحية »نقيضا « للقيم الانسانية» او « القيم الهيومانية » والانسانية او الهيومانية « هنا تشير الى تلك الفلسفة او النظرة الى العالم التي تركز كل شيء في الانسان . وفيهذا الفهم للقيم الروحية يتنافض الايمان بالانسان باعتباره الخلاص الوحيد للانسانية مع الايمان بالله باعتباره الخلاص الوحيد للانسان . وهو تعريف أسهل واقرب الى التناول وبهذا المعنى سوف اتناول الموضوع . اننا نفكر فيما يمكن ان نسميه ايضا « القيم الدينية » وهي في نهاية الامر أكثر القيم الروحية روحية ...

ثم تمضي الورقة الى عرض سوسيولوجي موجز لتاريخ الثقافه في الفيليبين وموقف المثقفين فيها من « القيم الدينية » فقد استقر رأي الكاتب على ان هذه القيم الروحية ـ ويشير الكاتب الى « ان الجامعيين والمتعلمين في بلادنا انما يعيشون في اطار المناهج التعليمية والتقاليد الغربية المادية ، وان ثم احساسا بالخجل من « القيم الروحية » واستهانة بها ، اتباعا للموضة الغربية السائدة .. وخاصة بين الشباب : « هناك طلبة جامعيون يعادون القيم الروحية ويعتبرونها نوعا من الخرافه ، بل اداة للقهر .. وهناك عدد كبير منهم لا يبالون بها ، بشكل او بآخر ، الا ان هناك بعضهم ممن يؤمنون بالقيم الروحية ايمانا قويا ولكنهم يخفونها بل يحسون حرجا اذا ما عرف عنهم ذلك ، كما لو كانت هذه القيم وصمة « تشوب سمعتهم ، واهانة لذكائهم . »

« ومع ذلك فان القيم الروحية هي من اقوى القيم التي يؤمن بها الشعب الفيليبيني . وانت ترى ذلك بوضوح في العبارات الشعبية للمسيح والعذراء والقديسين وفي « أعياد » المدن والكنيسة الكاثوليكية. وقد يقال ان الديانة التي تمارسها الجماهير ديانة نظرية ساذجة ، بل قد تكون غير أرثوذكسية وغالبا ما تنتمي الى الخرافة ، وان كانت هذه كلها نقاطا قابلة للمناقشة . ان حقيقة القيم الروحية ، وقوتها، وصدق الايمان بها ، عند الشعب الفيليبيني ، امر لا يمكن نكرانه . » ...

ونمضي الورقة الى مناقشة المسألة ، من وجهة نظر يمكن ان نسميها مرة اخرى ، سوسيولوجية ، ومن منطلق محدد تماما :

« اننا اذا وسعنا معنى « الروحي » بحيث يشمل المجال الفلسفي والاخلاقي والجمالي او ما يسمى عادة « بالثقافي » فاننا نرى بسهولة، ذلك العمى المعاصر الجافي الغليظ امام القيم الروحية ، فيما يسمى بخطط التنمية التي لا تشغلها الا التنمية « السياسية ـ الاقتصادية » للبلاد ..

« ان معظم هذه الخطط تجد نموذجها ومثلها الاعلى في طراز معين من مجتمعات الغرب . وطبيعي اننا نحن غير الغربيين نعجب بالتقدم التكنولوجي الغربي ولكنه اعجاب مشكوك فيه . ان المدنية التي بلغت ذرى لا تضارع من التقدم التكنولوجي اليوم هي التي تتردى في اغوار الجفاف الروحي الذي لا يجدر بنا ان نساوقها فيها . انني وجل من ان غير الغربيين في محاولتهم لتقليد هذا التقدم الغربي ، قد يقلدون ايضا المواقف الغربية المدمرة للروح ، في ظنهم الخاطىء ان هذه المواقف ضرورية « للتقدم » . ونحن هنا في الفيليبين نقترف هذا الخطأ ، بلا شك .. »

« هنا في الفيليبين لم تنحدر القيم الروحية الا في الطبقة المثقفة . واخشى ان الراديكالية الظاهرية والجدة الظاهرية تضيف لمانا جديدا الى هذا المرض الروحي .

« ان هذا القلق الروحي المتفشي في اوروبا وامريكا ما زال لحسن الحظ مقصورا على القلة في هذه البلاد ... » .

وبالطبع فقد اثارت هذه القضية كتابا ، على الاخص ، مثل فيض احمد فيض ، وهو الشاعر اليساري المخضرم ، فقد تناولها بالنقد العنيف مشيرا الى ان « المادية الغربية هي في الواقع الراسمالية : اما المادية الديالكتيكية فشيء مختلف » .. والى « ان القيم الروحية هي الشكل الاسمى للقيم الانسانية » واكد التفرقة بين القيم الروحية والقيم الدينية ، وبالتالي فقد كانت كلمة فيض الوجيزة ، تعليقا على هذه الورقة ، تأكيدا للمذهب الذي يركز كل شيء في الانسان .. ويرى فيه الخلاص الوحيد للانسان ،كما اشار بول ديمول الشاب نفسه ،

الذي عاد في الجلسة الختامية فأكد أهمية« القيم الدينية » مرةاخرى، واشار الى ان القيم الروحية عنده هي على وجه التحديد القيم الدينية، وانه لا خلاص للانسان الا فيها ، وبهذا لم تصل الندوة الى رأي في القضية ـ ولم يكن مطلوبا ولا ممكنا ان تصل فيها الى قرار بالطبع ـ وان كانت المشكلة قد انعكست ايضا في فقرة وجيزة من البيان العام .

وقد تناول بوتيستا ـ وهو كاتب ثالث من الفيليبين ـ جانبا من جوانب هذه القضية في ورقة قدمها بعنوان :« الادب الافريقي الاسيوي والحاجة الى رؤية عالمية للسلام » .. فقال :

« ان الكتاب ينبغي ان يوسعوا مدى قيمهم الروحية . ويمكن ان يتم ذلك حتى في وسط الفقر ، لان الكاتب هو الوسيط الاكثر فعالية للتقدم لا بالنسبة للظروف الاقتصادية فحسب بل بالنسبة للظروف الثقافية للبلاد . لا يعني ذلك ان الكاتب ينبغي ان يهمل مشاكل الجسم ويعكف على مشاكل الروح .. الواقع ان هذين النوعين من المشاكل مترابطان : فاذا كان للكاتب رؤية عالمية فلا شك ان لديه أيضا معرفة وافية بالقيم الروحية . ان الرؤية العالمية تشتمل على القيم الروحية .. وسوف يعرف الكاتب عندئذ انه لكي يحسن فهم مواطنيه فعليه ايضا ان يفهم الفروق بين دياناتهم وفلسفتهم . وميتافيزيقيتهم ، وبين فلسفة وديانة وميتافيزيقيا الشعوب الاخرى . وسوف يدرك انه حتى لو كانت هناك فروق بين الشعوب في هذه الميادين ، فان هناك بنية واحدة اساسية بين الشعوب جميعا ، في هذه المجالات ، في انسانيتها وفي اهدافها .. أن ميتافيزيقا الحب هي أيضا ميتافيزيقا الجوع . ولو ترجم ذلك الى الادب ، فان له معنى عالميا واحدا : معنى سوف يوضح الوحدة الجوهرية للانسانية ، والاخوة العالمية ، وسوف يعكف على كرامة الانسان وكرامة العمل ، وحق كل انسان في البحث عن السعادة ، وتحسين حياته .. »

وقد كانت مشكلة « الفقر » في العالم الثالث ـ تلك التي اشار اليها بوتيستا ـ مثار تعليقات هامة ، ففي الجلسة العامة الاخيرة تكلم وليام سايدي من زامبيا ، على نحو مؤثر ، وبعد أن ازجى التحية الى استقلال انجولا الوشيك (في ١١ نوفمبر ١٩٧٥) باعتباره حدثا عظيما بالنسبة لكل كاتب ، ولكل الانسانية ، تطرق الى قضية « الفقر » في بلادنا ، فقال ان بلاده ، زامبيا ، وهي اكبر البلاد المنتجة للنحاس ، ما زالت من اكثر بلاد افريقيا فقراً ، ودعا الى اهتمام الكتاب بهذه القضية قبل اهتمامهم بأي شيء اخر . وقال « ان دخول المسيحية الى زامبيا افضى الى ظهور اسطورة ان الفقر فضيلة ، وان ملكوت السماء للفقراء والذين يقبلون الفقر ، ومن ثم نشأ الافريقيون ، في ظل الاستعمار ، على اساس الا حاجة بهم الا الى كلمة الله ، وما من حافز اذن يدعوهم الى التزود بالثقافة ، ولا الى خوض النضال ضد الواقع المشين المهين ، وطالما آمن الافريقي بعالم الروح فما من حاجة به الى النضال .. ومن حسن الحظ ان العقل قد انتصر ، وان الاستقلال قد تحقق.ان مهمة الكاتب الاولى عندي هي ان يلقي الضوء على الفقر المدقع في بلادنا . قد نحتفل باستقلالنا ، وقد يسعدنا ان نحصل على الانجازات التكنولوجية ، ولكننا لا يمكن ان ننسى ان الفقر ما زال سائدا : الفقر بمعنى العوز الى مجرد اللقمة . يجب ان نكشف قناع الفساد عن وجوه بعض حكامنا اليوم . يجب ان نكشف قسوة نظم الحكم التي تسمح ببقاء البؤس والفقر الذليل في بعض البلاد الافريقية الاسيوية ، ولا اخلاقيتها ... » .

وفي هذا المجال نفسه تكلم الدكتور جون بوه سينج من سنغافورة، في الجلسة الختامية ايضا ، فقال انه احس ان موضوع الندوة كله لا معنى له ، فلا يوجد ادب للاجيال الجديدة كما انه لا يوجد ادب للاجيال السابقة ، ليس هناك الا احد شيئين اما « ادب » واما « هراء » ،اما اذا تعلقنا باذيال الادب فيمكننا ان نقول ان هناك « ادبا جيدا » وادبا غير جيد . ان الادب يضم الجغرافيا والتاريخ والزمن والجنس . الادب العظيم يتغلب على الحواجز الزائفة بين الحدود السياسية والفروق الايديولوجية والتصنيفات بكل انواعها . اما التقسيم الحقيقي فهو التقسيم بين الاغنياء والفقراء ، يجب ان تشن الحرب على الفجوة بين الاغنياء والفقراء .. واما المشكلة الثانية فهي التفرقة العنصرية والجنسية ، يجب ان نحطم هذه التفرقة . يجب ان نواجه مشكلاتنا الحقيقية ، مشكلات التنمية الاقتصادية والاجتماعية ، مشكلات التحديث والمعاصرة ، ضمان الغذاء والمسكن والثقافة لكل انسان ، لكي نوفر لكل انسان كرامته . يجب ان نتعلم من المشكلات التي نجمت عن اساليب التنمية الغربية : مشكلات الاغتراب والتلويث والثقافة الاستهلاكية .

ومن الملحوظ ايضا أن مشروع البيان العام،وقد شَرُفَ كاتبهذه السطور بصياغة مسودته ـ كان يتضمن شيئا من هذه الافكار على النحو التـالي :

« لقد اتجه الرأي في الندوة الى انه مما يزيد ادابنا خصوبة :

ان نحافظ على القيم الثقافية والحضارية العريقة التي حرصت عليها شعوبنا وجماهيرنا في الوقت نفسه الذي تطور فيه هذه القيم وتجددها بما يتفق مع تحديات عصر التقدم التكنولوجي والعلمي الخارق المتسارع الايقاع . »

« وان نؤكد القيم المحلية والمذاق الخاص والجو المميز للاداب والثقافات الوطنية في الوقت نفسه الذي تتفتح فيه على الافاق الانسانية العريضة والمشاكل التي تتعلق بالانسانية ككل . »

« وان تفيد من القوة الخارقة للوسائل التكنيكية المتقدمة وتستخدمها بروح من الثقة والابتكار في الوقت نفسه الذي تنزع فيه عن هذه الوسائل ضراوة العدوان على الروح الانسانية وتجردها من خصائص شبه الثقافة الاستعمارية الجديدة : الاتجاه الى الاتجار بالقيم وتشجيع شراهة الحوافز الاستهلاكية . » .

« وان تعمل باستخدام كل هذه الوسائل التكنولوجية على تعميق روح المبادرة والايجابية والتفاؤل والفرح بالحياة في الوقت نفسه الذي تعمل فيه على تأكيد اهمية الكلمة المطبوعة الى جانب الاذاعة والتليفزيون والسينما وعلى الارتفاع بمستوى الجاذبية والمقدرة على الوصول لهذه الوسائل جميعها . »

« وان تتفتح على روح التجديد والخلق والطليعية في الادب الجديد في الوقت نفسه الذي تحتفظ فيه لهذا الادب بمضمونه الانساني الايجابي المتعدد الجوانب وان تعمل على توسيع قاعدة النشر والطباعة والتوزيع في الوقت نفسه الذي تصون فيه تراث التقاليد الشفاهية والادب الشفاهي الفني الذي تتناقله شعوبنا جيلا بعد جيل . »

« وان تكشف عن الاسباب العميقة للفقر المادي والروحي الذي انزلته بشعوبنا المحنة الاستعمارية المظلمة الطويلة في الوقت نفسه الذي نزع فيه القناع عن الغنى الاصيل الكامن والباقي ابدا في ضمير شعوبنا وذاكرتها التي لا تموت . »

« وان تنمي روح التعاطف والتقارب والتواصل لا بين الاجيال المتعاقبة فحسب بل بين شعوبنا بعضها البعض وبين الناس جميعا في كل مكان وزمان في الوقت نفسه الذي تحارب فيه نزعات شبه الثقافة الامبريالية والاستعمارية الجديدة التي تعمل على تنمية التشاؤم ، والوحشة ، والاغتراب ، والانعزالية ، والعدمية ، والتلوث البيئي والروحي على السواء ، والتسلية الخاوية من كل معنى ، وتشويه القيم الانسانية للجنس ، وترويج الادب المكشوف وبخاصة بالنسبة للاجيال الجديدة . »

« ان الندوة بعد دراسة الابحاث المقدمة اليها ومناقشتها ترى ضرورة القيام بكل ما يمكن بذله من جهد في كل المجالات لحل المشكلات الاساسية التي تواجه شعوبنا وتؤثر على ثقافتنا وآدابنا : مشكلات التحرر والتنمية الاقتصادية والاجتماعية والتحديث ، ضمان الغذاء

والمسكن والتعليم ومحو الامية ، حفاظا على كرامة الانسان وحريته وهي ميراثه الذي لا يمكن المساس به . »

ولكن الصياغة النهائية للبيان ــ وقد اسهم فيها اسهاما اساسيا الكاتب الباكستاني فيض احمد فيض ــ جاءت تركيزا شديد الاختصار لهذه الافكار .

* * *

جاءت كلمة فيض احمد فيض بعد ذلك عرضا شاعريا ، من وجهة نظر عقائدية ماركسية واضحة لما يسميه « بالتراث الادبي » واليك هذه الكلمة بنصها الكامل ، تبدأ بالعرض التبسيطي التقليدي المعتاد للسوسيولوجيا الماركسية ، وتنتهي باعلان تعقيده ، خيبة امله ، في القيمة الايجابية للادب ...

« ولد الادب عندما اضاء اول شعاع للوعي عقل الانسان الاول ويسر له فرصة التعبير .. وهكذا اتخذت صرخات الانسان في مولده وغضبه ورضاه ، صورة اصوات مناسبة لكل تجربة من هذه التجارب ، ومن ثمة ولدت وحدة الكلمة . وفي الوقت نفسه حلت المجتمعات الوثيقة في شكل اسر تحتاج الى مجتمع العمل ورده محل الوحدة التي كان يعاني منها الصياد البدائي . وهكذا ايضا اضطلعت الكلمة بوظيفة اخرى خلاف التعبير ، الا وهي وظيفة الاتصال . وعند ذلك اكتشفت هذه المجتمعات ان الكلمة ليست مجرد اداة للتعبير او الاتصال ولكن من الممكن تطويعها بحيث تؤدي ايضا وظائف اخرى عديدة . فقد اظهرت انها عامل من عوامل الانتاج بالنسبة للعمل الجماعي ، عن طريق تسهيل الحركة الايقاعية . وكانت اداة لزيادة المعرفة من خلال تبادل الوان ملاحظة العالم المادي . وكانت دعاء وابتهالا للقوى الغامضة وغير المعروفة المتمثلة في النار والنور والمطر والرعد والتي تهيمن على الوفرة الانسانية والعوز الانساني . كما كانت مستودعا للحوادث التي وقعت للرجال والنساء وتجاربهم المشهورة في تاريخ كل جماعة من الجماعات. وهكذا فان عملية مزج الكلمات المسماه « الادب » قد مزجت الحكم والسحر والذاكرة والالهام جميعها في وقت واحد .

« وعلى هذا النحو بقيت الكلمة وعاشت .

« ومع مرور الزمن اتحدت الاسر والجماعات في قبائل قوية واتحدت القبائل في امم . وادت سيطرة الانسان المتزايدة على الموارد المادية الى خلق فائض من الثروة وكانت الثروة تعني القوة . وعندئذ ظهر عامل جديد على سطح الوجود الاجتماعي البشري ، ــ الا وهو عامل السيطرة والاستغلال واخذت الثروة والقوة في القبيلة تسيطر على باقي اندادها، واخضعت القبائل الاكثر عددا وعدة القبائل الاخرى التي ساء حظها فانزلها الى درك اقل . وظهر الملوك والامبراطوريات وظهر معهم القسمة بين اصحاب الامتياز واصحاب الفراغ من ناحية وبين النشيطين والمحرومين من جهة اخرى . ومع هذه القسمة بدأ الادب ايضا في التحدث بلغتين مختلفتين : لغة الملوك والقواد ومن يعولونهم من ناحية، ولغة قاطعي الاخشاب والسقائين من ناحية اخرى . وهذان التقليدان المتوازيان ، التقليد الكلاسيكي للبلاط والتقليد الشعبي للجماهير ، يشكلان ماضي سائر ادبنا في البلدان الافريقية الاسيوية . وفي حالات معينة لم تكن القسمة بين هاتين اللغتين مجرد قسمة مجازية بل قسمة حرفية كما هي الحال في الادب السانسكريتي والادب الباكريتي في شبه قارتنا ، والادب اللاتيني وادب اللغات القومية المحلية في اوروبا، او الادب الفارسي او العربي وادب مختلف اللهجات الوطنية في الشرق الاوسط وآسيا الوسطى .

« وقد كانت الآداب الكلاسيكية للقدماء تنهض او تنحط حسب ثروات النظم الاقطاعية لممثليها ولكن التقليد الشعبي كان يعاني القليل من ناحية هذه الاهتزازات ويتمتع بقسط اكبر من معايير الاستمرار . وهكذا خلق ادب الماضي هذا ، سواء كان غنائيا او مواليا او بطوليا او مداحيا ، سلسلتين متوازيتين من الكلاسيكيات : كلاسيكيات البلاط المحافظة التي الفها مؤلفون وقد حفظها الزمن جيدا ، والكلاسيكيات الشعبية التي الفها شعراء وحكماء شعبيون وقد بقيت في النسيان باستثناء قلة قليلة منها .

« ويشكل هذا الضرب المتكامل ، من الادب ، شعبيا او كلاسيكيا، جزءا من التراث الادبي للاجيال الحاضرة والقادمة . وهو ــ كما ذكرت من قبل ــ يضم الحكمة والتجربة والمعتقدات والتاريخ والاحلام والتطلعات الجماعية عند اجداد هذه الاجيال . ومن ثم فهو يقدم سجلا لشخصيتها القومية كما يقدم الدافع لاستمرار تجربتها الجماعية .

« وبعد القرن السابع عشر ، ومع ظهور الطبقات التجارية القوية اولا ثم الطبقات الرأسمالية فيما بعد في العالم الغربي ، وما صحب ذلك من الثورات التي اشعلتها في وسائل الانتاج وعلاقاته ، بدأ عهد التوسع الامبريالي الاستعماري ، وسقطت بلدان آسيا وافريقيا واحدة وراء الاخرى قبل ان ينزل على القارتين هذا الليل الوحشي الطويل لعبودية الامبريالية الاستعمارية . ولم يرض السادة الجدد عن الاستغلال الاقتصادي والاستعباد السياسي لرعاياهم وحدهم ، وذلك انهم ادركوا ان هذه العملية لم يكن في الامكان تحقيقها تماما بدون تدمير الثقافات القومية للشعوب المغلوبة ، وبعبارة اخرى محو الشخصيات الفردية لهذه الشعوب كوحدات ثقافية . واقتضى ذلك استئصال كل ما من شأنه ان يشكل هذه الشخصية من ادب ومعتقدات وقيم واساليب تفكير واحساس ، ولغة وعادات وجود اجتماعي . وتم ترتيب جهود محددة بهدف تغريب هذه الشعوب عن ماضيها ومسخها في صورة دمى عديمة الوجه والقلب والروح تشكل على صورة سادتها .

« ولكن افضل الناس واشجعهم بين شعوب آسيا وافريقيا لم يقبلوا على الاطلاق ان يهزموا ، فشنوا كفاحا مريرا ضد الاستعباد السياسي والاستئصال الثقافي معا . وفي هذا الكفاح شارك الكتاب مشاركة كاملة باقلامهم كما شاركوا احيانا بدمائهم . وهكذا ظهر ضرب جديد من الادب ــ هو ادب المقاومة . وكانت مكوناته الاساسية هي :

اولا ــ اعادة اكتشاف واعادة تقييم الكتاب لتراث ماضيهم الادبي .

وثانيا ــ تصوير عذابات شعوبهم واحباطاتها تصويرا واقعيا ومؤثرا .

وثالثا ــ الاحتجاج الوحشي على هذه العبودية والاضطهاد .

ورابعا ــ الامل الحي والايمان المتوقد بمستقبلهم الحر . وفوق هذا كله الحب المتفائل لكل ما من شانه ان يجعل الحياة خيرة وجميلة ــ اي حب السلام والحرية والعدالة الاجتماعية . ويشكل هذا الادب النصف الثاني من التراث الادبي للاجيال الحاضرة والقادمة . فهو سجل لما قامت به الشعوب الافريقية الاسيوية خلال عهد السيطرة الاجنبية وكذلك فهو ملهم لالوان الكفاح التي لم تفز بعد .

« ومنذ نصف قرن مضى ، بعد نجاح ثورة اكتوبر العظيمة ، اخذ الزحف الطويل ناحية الحرية والتحرر ينتقل تدريجيا من علامة نصر بعد علامة نصر . وصار هذا الزحف حشدا بعد هزيمة الفاشية في نهاية الحرب العالمية الثانية ، اما اليوم فقد تحررت جميع بلدان آسيا وافريقيا باستثناء بعض الجيوب القليلة ، وادى هذا الى تطور اخر . فالشعوب الاسيوية والافريقية التي طال عزلها عن بعضها البعض بالحواجز التي اقامتها القوى الامبريالية لم تكن قادرة على الاتصال والتقارب ، ثم تقاربت ووصلت الايدي بالايدي لا في الفكر فحسب وانما في التطبيق ايضا من اجل تحقيق مثلها العليا المشتركة ، وهكذا ولدت الحركة الافريقية الاسيوية . واتخذت بين كتاب هاتين القارتين شكل اتحاد الكتاب الافرو آسيويين الذي ولد في طشقند عام ١٩٥٨ . وهكذا استطاع الكتاب الافرو آسيويين اولا ــ ان يكتشفوا ويتعلموا من الجهود الابداعية لمعاصريهم في البلدان الاخرى ، واستطاعوا ثانيا ان يدفعوا بقوتهم دعما لاشقائهم الاقل حظا الذين لا زالوا رهيني المعارك الدموية في اجزاء كثيرة من العالم ، في كوريا والهند الصينية والجزائر

ــ التتمة على الصفحة ٦٥ ــ

سعدي يوسف

منزل المسرات

آه ، لقد غدا صاحبي الذي احببت ، ترابا .
وانا ، ساضطجع مثله .
فلا اقوم ابد الآبدين .
فيا صاحبة الحانة .
ـ وانا انظر الى وجهك ـ
أيكون في وسعي الا ارى الموت
الذي اخشاه
وارهبه ؟

كلكامش

تزهر اشجار الكافور
عصافير ،
وتزهر اشجار الكافور
روائح مشتبهات
اذ يختلط الشارع ، والامسية الرطبة ، والاشجار

الجدران غصون
والاسفلت طريق ريفي يلمع فيه النهر
ولوحات السيارات ،
وثوب فتاة تسرع ...
كان المنزل في زاوية الشارع
يخفي عبر نوافذه سهر الليل الفائت
او سهر الليل القادم
او ثوب فتاة ينزع
في سهر الليل الفائت
او سهر الليل القادم
او في مقعد سياره .
. . . .
. . . .
اشجار الكافور
مصباح اخضر في باب المنزل
وسراويل نساء في الاغصان

●

اشجار السدر تراقب كل خريف الشارع
تتشبث بالاوراق المصفره
بلحاء الاغصان المتشقق ...
اشجار السدر تؤرجح في السر مقابرها
تفتح للبوم عيونا ماكرة ...
أشجار السدر تراقب باب المنزل :
تأتي السيارات
وتمضي .
تأتي الفتيات
وتمضي .
يأتي الليل .

●

اشجار الدفلى
تندس ، مع الليل المتدبت
والاوراق المالية
والصفقات
أشجار الدفلى
وعيون الفتيات ، غبار ليلي
ومياه يثقلها الملح ...
وتنقلها عجلات السيارات .
. . . .
. . . .
. . . .
في المنزل ، يدخل سادة منتصف الليل
ووحشة برد الليل
وآخر غدارات الليل
وازهار الدفلى .

بغداد

محمد علي شمس الدين

البحث عن خالد

١ ـ

كانت الطائرة تضع اخر لمساتها فوق المخيم . لقد سرحته سريعا اخيرا يليق بموت فلسطيني جميل .

هكذا بدا لي المشهد أولا ...
كنت بعيدا ، ومحايدا ...
لكن العرس ما لبث أن اصبح دمويا ، وجذبني اليه .

وقد تم ذلك ، حسب ما أتصور ، حين هرولت الطائرة نحوي ، من الافق الشرقي ، وكان فيه قليل من السحاب الدموي المتشقق ، وطيور صغيرة دموية ايضا ، وبكاء لطفل صغير شبيه بمسيح عصري مذبوح ...

فأحسست أن عروقي تفصدت ، ونزفت كثيرا كثيرا ، حتى امتد منها حبل مجدول ، والتف حول عنقي ، وجذبني الى جناح الطائرة ، وعلقني ، واخذ يطوف بي ، اولا : فوق حقل من التبغ كبحيرة خضراء صغيرة ، بدأت مياهها تحمر قليلا قليلا ... ثم تسود قليلا قليلا .. ثم تشتعل ... كان التبغ يشتعل . ثانيا : بين هضبتين كبيرتين، كثديين كبيرين ، وكان ثمة نهر صغير يلمع كالسكين ، وينبع على ضفتيه الاعشاب ، لانه ما كان بوسعي ان أرى الاعشاب الصغيرة ، وانا معلق في جناح الطائرة . ثالثا : فوق قرية مرسومة (كانت في الواقع قرية جنوبية صغيرة ، موجودة في الطبيعة ... أظنها موجودة .. ومرسومة ... وفي الطبيعة .. هكذا ... الخ) . المهم أن القرية محصورة ومحاصرة ، واحسست ان لها رئة تتنفس بصعوبة ، ورجالها يلعبون لعبة (الفراغ) .. وهي لعبة تتلخص بأن يصرخ اللاعب صرخة قوية ، يأخذ الصرخة بين يديه ، يكورها ، ويقذفها الى رفيقه ، وينام ، فيتلقفها هذا ، ويقذفها الى رفيقه ، وينام ، فيتلقفها هذا .. و .. يقذفها .. وينام ...

الطائرة تطوح بي فوق المخيم ، انها تحوم حوله ، كما يحوم الباشق حول الطريدة . المشهد شاعري ومؤثر حتى الموت . بيوت التنك والطين تكسوها ظلمة عميقة وقاتلة ، شبيهة باعماق المحيط . ثمة اضواء صغيرة تلمع مثل عيون صغيرة للشوادر . وكانت تتسرب لاذني حداوية لام تهدهد طفلها : « نامت عيونك وعين الله ما نامت » ...

٢ ـ

الساعة الآن هي الصفر . الهدوء تام والمخيم قابل للموت . تدور الطائرة دورتين ، تجنح ، وتنقض بسرعة رهيبة ، فتنفتح وردة لهيبية بحجم السماء . وتندفع من المخيم نوافير من الصراخ والدماء والغبار . ثم لا يلبث الهدوء أن يعود ، قليلا ، قليلا ، ويهدأ الصراخ ، وتنطفىء الاضواء ، الصغيرة ، التي كانت تلمع مثل عيون صغيرة للشوادر .

٣ ـ

انا الان واقف على الطرف الشرقي ، على طرف ما .. قد يكون الشرقي او الجنوبي للمخيم ، فقد انفصلت مثلما ينفصل الجنين من حبل السرة .

انفصلت ووقفت على طرف الخرائب . بعض الحرائق والانفجارات تحدث في الروح ، والارض مفلوحة فعلا . ومفروشة بالاشلاء البشرية، وكانت سواق صغيرة من الدماء تسقي آلام التراب ، وتغور بعيدا بين الحبات حتى مركز الارض .

. . . .

فجاة ، تمزق الصمت صرخة ، يتبعها جلبة وضوضاء .

تلفت الى مصدر الصوت . لم تكن المراة تبكي . كانت مذعورة . لكنها لم تكن تبكي .

تأملت وجهها جيدا على ضوء الفجر الذي بدأ يطلع من السماء ، فوجدت في عينيها بريقا ساطعا وشرسا يزيد في اضاءة الساحة .

... اندفعت المراة فجأة نحو ساق مبتورة ما زال ينزف منها الدم. اخذتها بيدها وصاحت : « هذه ساق خالد ... » .

جذبها من كتفها رجلان كانا يهدئان من روعها : تعالي ، فخالد ما زال نائما في السرير .. انه في السرير .

دفعتهما المراة بعيدا ، بحركة عصبية واكملت بحثها الملهوف ، وكأنها لم تشعر بوجودهما ، او تستمع لما قالاه ... ثم انطفت قليلا، واندفعت الى الامام بحركة عنيفة ، وانحنت الى التراب : ـ « ...وهذه كفه الصغيرة .. انني اعرفها .. هذه كفه .. » .

تبعها الرجلان ، حاولا الامساك بها مرة ثانية ، لكنها تخلصت منهما بعنف ، وتابعت طوافها متعثرة بين الاشلاء ... وقفت قليلا ، اجالت بصرها بعيدا ، بعد التفاتة يسيرة الى الخلف ، ثم اندفعت ، وقد ارتسمت على فمها ابتسامة قاحلة ومرة .

« ... هذه بقايا صدره الصغير ، بقايا صدره .. وجدتها .. وجدتها ... انها هي ... هي .. آ ... »

عبثا حاول الرجلان اقناعها بوجود الطفل في سريره . بانه نائم ، وان القنابل اخطأته .

تكمل المراة دورانها المذعور ، ثم تتسع البسمة القاحلة على شفتيها فجأة ، وترمي بكل جسدها على كتلة غامضة من اللحم الممزوج بالدم والعظام ، وهي تقول :

« .. لقد وجدته .. وجدته .. اخيرا .. لا اشك .. وجدته ... هذا هو رأسه الجميل .. وجدته .. آه .. هيا ، لنعد الى البيت . هيا .. تعالوا ... » .

تضم المراة الراس والجسد والاطراف .
يضمها الرجلان ...
ويبتعدون .

لبنان الجنوبي

شفيق مقار

٢ ـ في جذور الشر

الذئب الآتي من عند الاله

د. ستيوارت عن هرتسل

الحدود الجغرافية لعهد الاله

لا ندري ان كان دزموند ستيوارت (وقد اخترنا الكتابة عن كتابه ، « هرتسل » ، لتكون اطارا لبحث في جذور الشر ، لان الكتاب عن هرتسل ، ولانه بقلم مثقف اوروبي ، وبالذات بريطاني ، ذي خلفية ليبرالية وميول تجاه العرب اقل ما يقال فيها انها ليست معادية لهم) ، نقول اننا لا ندري ان كان ستيوارت ـ وهو يجمع مادة كتابه من المصادر التي رجع اليها ـ قد اخضع ما تقوله تلك المراجع لعملية غربلة ورقابة ، ام انه ـ وهو يراجع الكتاب ويعده للمطبعة ـ قد قام بعملية تهذيب وتجميل لما اخذه من مراجعه . ففي الكتاب ثغرات مرجعية لافتة للنظر ، والذي يجعلها كذلك بوجه خاص ما التزمه الكاتب من دقة وافاضة في استشهادات بعينها . فهو يقول على سبيل المثال (ص ١٢) انه تبعا لرواية سفر التكوين ، حدث ان تقدم الاله من ابراهام ، ذلك البدوي البالغ من العمر ٩٩ عاما ، الذي كان قد قدم لتوه من بلاد ما بين النهرين ، عارضا عليه صفقة لا غش فيها .. وارض كنعان ، التي كان ابراهام وقومه ، في ذلك الوقت عابري سبيل فيها ، يطيقهم اهلها بالكاد (وعد الاله ابراهام) انها ستصبح ملكا خالصا لنسله ،الى الابد . ويورد المستر ستيوارت بعد هذا الكلام مباشرة ، استشهادا طويلا من العهد القديم عن حكاية « لحم غرلة » اليهود الذي جن به ذلك الاله الطيب ، والذي بات تختين اولئك الناس فيه « علامة عهد بين الاله وبينهم » ، لكن الكاتب لا يورد ما يشير ـ رغم استفاضة الاستشهاد ـ الى ما سبق ذلك العهد باسطر قليلة من تحديد جغرافي واضح لا لبس فيه للارض التي انصب عليها عهد الاله مع ابراهام ونسله الذي سيجعله الاله كله ملوكا :

« وفي ذلك اليوم قطع الرب مع ابراهام ميثاقا قائلا : لنسلك أعطي هذه الارض من نهر مصر الى النهر الكبير نهر الفرات . القينيين ، والقنزيين ، والقدمونيين ، والحيثيين ، والفرزيين ، والرفائيين ، والاموريين ، والكنعانيين ، والجرجاشيين ، واليبوسيين » . (١).

فليس الميثاق ـ كما قد يتراءى لمن يأخذ الامور بظاهرها بالنسبة لحديث المستر ستيوارت عن ذلك العهد ـ قاصرا على ارض كنعان المسكينة وحدها او نسل الكنعانيين وحدهم ، بل بكل ارض مر بها العم ابراهام (معذرة ، سيدنا ابراهيم عليه السلام) وقومه من الرعاة الذين كان قد « انحدر بهم الى مصر ليتغرب هناك ، لان الجوع في الارض كان شديدا » (٢) ، فاكرمه اهلها الطيبون ابدا واشبعوا جوعه وجوع من معه رغم انه لعب عليهم « لعوبا » عبرانيا جلب على راس ملكهم فرعون « ضربات عظيمة » (٣) ، وبعد ان جاءهم هاربا من الجوع خرج من بلادهم « غنيا جدا في المواشي والفضة والذهب » (٤) . وفي حله وترحاله ، وكل بضعة ايام يظهر له الاله ، ويخطب وده ،ويكثر له من المغريات ، ويتقرب اليه ، مر ابراهام عليه السلام وقومه باراض واقوام كثيرة فراقت في عينه واعين قومه كل ارض مروا بها ،واضمروا القتل وسفك الدماء لكل قوم مروا بأرضهم ، واذا بالاله الذي يصوره سفر التكوين متمسحا بأذيال ابراهام عليه السلام ، يخمن ما بنفس ابراهام ونفوس قومه الرحل الذين كانوا بلا وطن ، ومن فرط حرص الاله على عقد حلف مع ابراهام ومعهم ، قطع على نفسه عهدا بأن يحقق لهم ما اشتهوه ، وان يعطي لنسل ابراهام كل تلك الارض التي بين النيل والفرات تكون ملكا حلالا لهم أبد الآبدين .

ونحن لا نقول ان المستر ستيوارت اسقط كل ذكر لذلك من استشهاداته ، بحيث بدا الامر كما لو كان متعلقا بارض كنعان المسكينه فحسب ، بسوء قصد او سوء نوية ، لا قدر الله ، لكن الذي نود قوله فقط انه ما كان أجمل لو عنى المستر ستيوارت ـ ما دام قد واتته الجرأة على الخوض في مثل هذه المحرمات المهلكة ـ ان يورد الحوار الدرامي البارع الذي وضعه الاحبار على لسان شخصية الالهة هذه المسرحيه المثيرة للاهتمام تعبيرا عن تطلعات شعبهم من قديم الى اراضي تلك الشعوب ، بالافق نفي يحتاط لنفسه كل من كان من اهل النيل او اهل الفرات او كان من سلالة القينيين او القنزيين او القدمونيين ،الى اخر شعوب تلك القائمة السوداء التي وضعها الاله من قديم . ولو كان المستر ستيوارت قد فعل ذلك (بغير كبير خشية فيما نظن ، لانه رجل اوروبي مسيحي مؤمن بالله والعهد القديم والعهد الجديد ولا حرج عليه ـ لذلك ـ في الاستشهاد بالحوار الذي اجرته الاقلام المقدسة على لسان الاله) ،لو كان ستيوارت قد فعل ذلك لكان قد حقق تماما ما يمليه التحضر والليبرالية والحرص على القيم الانسانية والاخلاقية العليا دون ان يلحق ضررا يخشى من مغبته باليهود او يفيد ضحاياهم فائدة تذكر ، لان حكاية من النيل الى الفرات شائعة وذائعة ومعروفة ومصورة بالنحت البارز فيما نعتقد على جدران الكنيست الذي يراقب الان ـ بوصفه مؤسسة ديموقراطية من مؤسسات العالم المتحضر الحر ـ تنفيذ بنود تلك الاتفاقية الدولية واسعة النطاق المعقودة مع الاله بهمة وكفاءة غريبة عالية . اما الوحيد الذي كان سيفيد من ذكر تلك الحكاية المعروفة في السياق فالمستر ستيوارت وحده ، لان ذلك كان سيخرجه بالاقل من الحشد الكبير من الكتاب المتحضرين المستميتين في التمسك بالقيم الانسانية والحضارية العليا الذين ياخذون على ضحايا تلك المسرحية المقدسة عدم تعاونهم مع الشعب المختن المختار في تنفيذ بنود الاتفاق كما وضعها الاله ، وبخروج المستر ستيوارت من ذلك الحشد العميم الذائب جوى في عشق شعب الله المختار ، كان كتابه سيصبح اكثر مدعاة للتصديق .

ومع ذلك فان المرء لا يجب ان يتجنى على المستر ستيوارت ويطالبه بما لم يكن بوسعه ان يفعله . لانه ، بالحقيقة ، ما الذي يسع الكاتب متى كان بريطانيا او اوربيا ـ مهما كان متحرر الفكر حسن النية

---

(١) العهد القديم ، سفر التكوين ، الاصحاح ١٥ ـ ١٨ / ٢١ .

(٢) نفس المرجع ، الاصحاح ١٢ ـ ١٠ .

(٣) نفس المرجع ، نفس الاصحاح ـ ١٧ .

(٤) نفس المرجع ، الاصحاح ١٣ ـ ٢ .

يقظ الضمير – ان يفعله ! ينحدر من الاسس التي تقوم عليها القيم الجوهريه لنشاطه حتى يستطيع ان يقلب بسرقة في عصبيه مريبة تهدده لانه لا مهرب فيما نعتقد ، من المجاهره – من مبدأ الامر – بأن اللعبه كلها قامت على صرح عتيق من الاكاذيب الزرية والتلفيقات المسرحيه . وان كنا لا نجد بين من يتهددهم الفناء ونهددهم الابادة بفضل ما يتوصل اليهود كل يوم الى تحقيقه عن طريق ذلك الصرح من الاكاذيب والتلفيقات ، ان كنا لا نجد من الكتاب العرب مثلا من يجرؤ على وضع هذا الهراء التوراتي موضع التساؤل والشك ، فكيف – بالحقيقه – يمكن لنا ان نتوقع ان يفعل ذلك دزموند ستيوارت او غير دزموند ستيوارت من كتاب الغرب الذين يشكل العهد القديم جزءا لا يتجزأ من تراثهم الروحي والثقافي ؟ واننا لنعتقد ان قدرا كبيرا مما اتصفنا به حتى الان من عجز في مواجهة دعاوي اليهود راجع الى عجزنا عن المجاهره – حتى فيما بيننا وبين انفسنا – بأن هذا الشق الفارغ كله ، من اساسه ، كذبة ردي لا ينبغي ان يثير في النفس الا الرغبة في الضحك . فنحن ، في قرارة انفسنا ، نأخذ اليهود مأخذ الجد ، وفي اعماق قلوبنا نعاني صراعا مهلكا بين مصالحنا الاساسيه كشعوب تعيش في اراض يريدها اليهود لانفسهم ، وبين مشاركتنا لليهود في المجال الروحي في الايمان بنفس الاله او بتصور مشابه له . والمشكلة الاخطر ان العالم الغربي المسيحي (الذي ينتمي اليه المستر ستيوارت) ليس اقل مشاركه لليهود في ذلك المجال ، فالعهد القديم والعهد الجديد كتاب واحد . وخطوره المشكله ماثله في انه اذا كان اليهود قد توصلوا الى كسب تواطؤ البشر في الغرب وغير الغرب ممن ارتبطت مصالحهم بمصالح الصهيونيه في جريمه اغتيال شعب باكمله هو الشعب الفلسطيني وسرقة ارضه بحجه ان تلك الارض ارض وعد الاله شعبه المختار بها من قديم ، فما الذي لا يمكنهم ان يتوصلوا اليه مستقبلا (بعد ان يستتب لهم الامر في فلسطين ويعززوا بها قواعدهم متحفزين لوثبة توراتية اخرى ، كما يبدو الان انهم لا محالة فاعلون بفضلنا وبتعاون منا) ما الذي لا يمكنهم ان يتوصلوا اليه مستقبلا بالنسبة لسائر تلك المناطق الاخرى التي تعينت « حدودها الآمنة » في ذلك الفرمان الالهي ؟

منذ ايام كتبت صحيفة انجليزيه « متحضرة للغاية » تقول ان على العرب ومن « يقفون وراءهم » اي السوفييت (فمحاولة العرب الدفاع عن انفسهم تصور باعتبارها « تغلغلا للنفوذ السوفييتي في المنطقة ») ان يدركوا ان « السماء ذاتها سوف تتشقق فوق رووس البشر بالف صدع رهيب ، في مواضع وباساليب لا تخطر ببال بشر » اذا ما حاولوا حقا اخراج اليهود من ارضهم الموعودة (٥) . فان كان ارتباط اولئك الناس بالدولة الصهيونية والتزامهم باستمرار جريمة اغتيال الشعب الفلسطيني واغتصاب ارضه قد بلغ مبلغ المجازفة بمثل هذا التهديد السافر بحرب نووية عالمية ، فمنذا الذي يضمن لنا اننا اذا ما خضعنا (« ابتغاء للسلامة ») وتركنا اليهود يستولون على هذه القطعة من الارض او تلك من كامل الرقعة الموعودة التي تعهد لهم الاله بها ، لن يتواطأ اولئك الناس معهم من جديد ، باعتبار ان تلك الارض (من النيل الى الفرات) ميراث وعدهم خالق الاكوان به كما هو مسجل في الكتاب المقدس بالفصل الاول من جزئه الاول ، « العهد القديم » ؟ ومن نكون نحن البشر لننقض وعد الاله لشعبه المختار ؟ حقيقة منذا الذي يضمن لنا ارضنا من مثل ذلك الاغتيال المقدس ؟ ومنذا الذي يضمن لنا الا يحولنا وعد الاله نحن ايضا الى لاجئين في خيام يجتمع العالم كله عليهم ليقتالهم ويتخلص من مشكلتهم الكئيبة المزعجة حرصا على الحضارة والقيم الاخلاقية والانسانية العليا؟

لهذا يبدو اغفال اي جزء من الصورة الرهيبة – وليسمح لنا المستر ستيوارت ، رغم ايماننا بحسن نواياه ونبله وتحضره العظيم وليبراليته البريطانية المتسامحة – باعثا ، بالاقل ، على الانزعاج والتساؤل . لانه ما الذي جعل بوسع مثل ذلك القلم (الذي ان لم يكن ماجورا فانه مسعور) ان يهدد البشر اجمعين في تلك الجريده بتشقق السماء فوق رووسهم في الف موضع اذا ما حاول احد ان يسترد شبرا من ارض فلسطين او يسترد حقا من حقوق شعب فلسطين ، ما الذي جعل بوسع ذلك القلم الماجور او المسعور ان يقول ذلك الا مجموعه المسلمات « الاخلاقيه والانسانيه » التي اقيم عليها التواطؤ بالنسبه للجريمة الراهنه وما سوف ياتي بعدها – لا محاله – من جرائم دمويه تعاني فيها شعوب باكملها ، باسم الله والدين والتمدين والاخلاق والحضاره ؟ ولئلا نبدو ظالمين للمستر ستيوارت او منكرين لفضله ، وهو الذي جرؤ على السير فوق هذه الارض الملغومه ، يحسن ان نذكر اننا نحن اصحاب المشكله لا نكاد نجرؤ على امعان النظر صراحة في جذورها الحقيقية ، لاننا لا نجرؤ . لان اشياء كثيرة وفظيعه تتوقف على مثل تلك المحاوله . ولذا فاننا ننساق وراء رغبتنا في الخروج من ذلك المأزق المهلك ونتقبل بارتياح بالغ الوهم القائل بأن نبع الجريمه المسموم لا وجود له الا في تربه الفكر الصهيوني . طيب . لنسلم بذلك . ولكن من اين نبعت الصهيونية ؟ ومم استمدت اسمها واطارها واحلامها ومراميها والاهم والاخطر : دعاماتها التاريخيـة والاخلاقيه ؟ فان كنا نحن « المحكوم علينا بالموت ونحييك يا يهوه » (كما كان المحكوم عليهم بالموت في ساحات الالعاب الرومانية يحيون اسياد روما قبل ان يدفعوا للافاه مصيرهم) ، ان كنا نحن لا نجرؤ فكيف يحق لنا ان نتوقع من ستيوارت أو غيره ان يجرؤ .. نيابه عنا ؟ وفوق ذلك ، فان اختلاف النظرة الى المشكلـة (الذي يعبر عنه المثل القائل « من كانت يده في الماء ليس كمن كانت يده في النار ») يجعلنا ، بل ويجعل من حقنا ، النظر الى ما يأخذ فيه الكتاب « المتحضرون » من اصطناع للنزاهة والموضوعية واتساع الافق الفكري وهم يناقشون مسائل فنائنا او بقائنا باعتباره رياء وتعمية وتعصبا .

ولقد مس ستيوارت ، والحق يقال ، صميم المشكلة ، من بداية كتابه القيم ، مسا حقيقيا لكنه لماح ، عندما اشار الى هرتسل بقوله انه الرجل « الذي توصل الى الربط بين المفهوم الغربي للدولة واحلام اليهود المسيانيه » لكن هذه الاشارة التي قد تكون مبهمة بعض الشيء ، كرسم مغبش على زجاج تنضح وتتحدد بجلاء ينفذ ، كالنصل البارد في العين المصرة على ان تظل مغمضه ، في كلمات لا مواربة فيها كهذه الكلمات :

« ان قوات « الدفاع » الاسرائيلية .. قد اعادت للبطولة اليهودية كل امجادها القديمة ، بشكل لعله لم يتحقق قبلا منذ ايام يشوع ابن نون ، والملك داود . » (٦)

والكلمات لديفيد بن جوريون بعد حملة سيناء الاولى . ويشوع الذي اعادت قوات الدفاع الاسرائيلية امجاده هو الذي كلمه الاله بعد موت موسى ، وكان ابوه نون خادما لموسى (وبالضرورة مطلعا على كل اسراره) ، فقال له :

« موسى عبدي قد مات . فالان قم اعبر هذا الاردن انت وكل هذا الشعب الى الارض التي انا معطيها لهم اي لبني اسرائيل . كل موضع تدوسه بطون اقدامكم لكم اعطيته كما كلمت موسى . من البرية ولبنان هذا الى النهر الكبير نهر الفرات جميع ارض الحيثيين والى البحر الكبير نحو مغرب الشمس يكون تخمكم » . (٧) .

وكانت أول امجاد يشوع مذبحة اريحا التي تواطأ فيها الاله ذاته بطريقة في الحقيقة مخجلة . فقد ارسل يشوع بن نون ذاك « رجلين جاسوسين سرا ، قائلا اذهبا انظرا الارض واريحا . فذهبا ودخلا بيت امرأة زانية (مومس) اسمها راحاب واضطجعا هناك .. فخبأتهما

(٥) « الديلي تلغراف » ، الافتتاحية ، عدد ١٦–١٢–١٩٧٤

(٦) Avraham Avi - hai , « Ben Gurion , State - Builder » John Wiley & Sons , N . Y . - Israel Universities Press , 1974 , P . 43 ,

(٧) العهد القديم ، سفر يشوع ، الاصحاح الاول – ٤/١ .

المرأة وقالت لهما علمت ان الرب قد اعطاكم الارض وان رعبكم قد وقع علينا وان جميع سكان الارض ذابوا من اجلكم . لاننا قد سمعنا كيف يبس الرب مياه بحر سوف قدامكم عند خروجكم من مصر وما عملتموه بملكي الاموريين اللذين في عبر الاردن سيحون وعوج اللذين حرمتوهما (ذبحتوهما) . سمعنا فذابت قلوبنا ولم تبق بعد روح في انسان بسببكم . لان الرب الهكم هو الله في السماء من فوق وعلى الارض من تحت . فالان احلفا لي بالرب واعطياني علامةامانة، لاني قد عملت معكما معروفا . بان تعملا انتما ايضا مع بيت ابي معروفا . وتستحييا (تبقيا على) ابي وامي واخواتي وكل ما لهم وتخلصا انفسنا من الموت » (٨) فما تفعله بعض الامم الان طالبة النجاة لنفسها فعلته المومس راحاب من قديم . وبعد ان خبات المومس الجاسوسين ومكنتهما من القيام بمهمتهما خير قيام عادا الى يشوع السفاح وقالا له « ان الرب قد دفع بيدنا الارض كلها وقد ذاب كل سكان الارض (رعبا) بسببنا » (٩) . وبعد غدو ورواح والاعيب الهية يكرر الاله فيها معجزة جفاف ماء البحر اكراما لخاطر شعبه المختار « فتقف المياه المنحدرة (بنهر الاردن) من فوق وتقوم ندا واحدا بعيدا جدا .. والمياه المنحدرة الى بحر العربة البحر الملح انقطعت تماما يعبر اليهود مقابل اريحا ويقف الكهنة (ولم تبتل اقدامهم) حاملين تابوت العهد على اليابسة في وسط الاردن راسخين وجميع اسرائيل عابرون على اليابسة حتى انتهى جميع الشعب من عبور الاردن » (١٠) وعندما مر الكهنة حاملين تابوت الشهادة من وسط النهر واجتذبت بطون اقدامهم الى اليابسة رجعت مياه الاردن الى مكانها كما من قبل الى كل شطوطه ، وصعد كل الشعب (كالذئاب المسعورة) من الاردن في اليوم العاشر من الشهر الاول وحلوا في الجلجال في تخم اريحا الشرقي .. وعندما سمع جميع ملوك الاموريين الذين في عبر الاردن غربا وجميع ملوك الكنعانيين الذين على البحر ان الربيبس مياه الاردنمن امام بني اسرائيل حتى عبرنا ذابت قلوبهم ولم تبق فيهم روح من جراء بني اسرائيل » . (١١) فالاله علم شعبه المختار من قديم فنون الحرب النفسية كما ترى وتعاون مع ذلك الشعب في اخراج بعض فصولها عملا على الا تعود في احد « روح من جراء بني اسرائيل ». لكن الاله لم يكن يتعاون مع شعبه السفاح ويصنع له المعجزات مجانا. فقد عاود الاله ولعه القديم بلحم غرلة ذلك الشعب الذي تدله في حبه ، ولذا فانه ـ بعد ان تعاون مع يشوع كل ذلك التعاون المثمر ـ جاء وقال له اسمع يا يشوع، الحق حق . انظر ماذا فعلتمن اجلك. والان عليك انتصنع من اجلي معروفاانت ايضا . عليك ان تصنعلنفسك « سكاكين من صوان وتختن بها بني اسرائيل من جديد » . ويقولالذهن المحموم الذي كتب هذا الهذيان : « وهذا هو السبب في تختين يشوع بني اسرائيل في القلف . ان جميع الشعب الخارجين من مصر الذكور جميع رجالالحرب ماتوا في البريةعلى الطريقبخروجهم منمصر».(١٢) وبعد ان تختن اليهود بسكاكين من صوان (ويصور لنا المستر ستيوارت هنا « الالم الذي يقطع نياط القلوب الذي عانوه المساكين من جراء تختينهم بساكين من صوان حرصا منهم على عهد الاله » (١٣) ،وعملوا

(٨) نفس المرجع ، الاصحاح الثاني ـ ١٢/١ .
(٩) نفس المرجع ، نفس الاصحاح ، ٢٩ .
(١٠) نفس المرجع ، الاصحاح الثالث ـ ١٦ / ١٧ .
(١١) نفس المرجع ، الاصحاحان الرابع والخامس .
(١٢) نفس المرجع ، الاصحاح الخامس ـ ٤/٢ وما بعدهما .
(١٣) دزموند ستيوارت ، « هرتسل » :
« The Joshua account has , as a penultimats incident , a sentence with the ring of agonizing truth . « When the circumcising of the whole nation was over , they stayed to rest in the camp till they were well again. » When adults are circumcised in unhygienic surroundings , etc . » (P. 14)

الفصح في اليوم الرابع من الشهر مساء بالقرب من اريحا ، واكلوا من غلة الارض في الغد بعد الفصح فطيرا وفريكا ،فاكلوا من محصول ارض كنعان في تلك السنة ، رفع يشوع عينيه ونظر ،« واذا برجل واقف قبالته وسيفه مسلول بيده ، فسار يشوع اليه وقال له هلانت لنا او لاعدائنا (اهل اريحا المساكين الذين لم يفعلوا شيئا الا انهم كانوا اصحاب ارض اشتهاها العم يشوع)فقال الرجل الشاهر سيفه بيده كلا بل انا رئيس جند الرب.الان اتيت . فسقط يشوع على وجهه الى الارض وسجد (انظر الى التقوى والخشوع !) وقال له بماذا يكلم سيدي عبده ؟ فقال رئيس جند الرب ليشوع اخلع نعلك من رجلك لان المكان الذي انت واقف عليه مقدس . ففعل يشوع ذلك ».(١٤) وسنعرف عما قليل لماذا هو مقدس ذلك المكان . لكثرة ما سوفيراق فيه من دم . فابتداء من تلك النقطة بهذا السفر الدموي الذي اكتفى المستر ستيوارت بتانق فكري يحسد عليه باستشهاد مؤلم واحد منه عن الالم الذي عاناه اليهود المساكين من جراء التختين ، تتحول الحكاية الى حفلة قصف خمرها دماء البشر وشواؤها لحمهم المزق ، بامر من الاله الذي ارتاح وهدا لما قطع اليهود من جديد لحم غرلتهم فقرر ان يكافئهم بتلك الوليمة الرهيبة !

« وكانت اريحا مغلقة ومقفلة بسبب بني اسرائيل . لا احد يخرج ولا احد يدخل . فقال الرب ليشوع .انظر . لقد دفعت بيدك (لقد جعلت ملك يمينك) اريحا وملوكها جبابرة الباس . تدورون دائرة المدينة جميع رجال الحرب . حول المدينة مرة واحدة . هكذا تفعلون ستة ايام . وسبعة كهنة يحملون ابواق الهتاف السبعة امامالتابوت. وفي اليوم السابع تدورون دائرة المدينة سبع مرات والكهنة يضربون بالابواق. ويكون عند امتداد صوت قرن الهتاف عند استماعكم صوت البوق ان جميع الشعب يهتف هتافا عظيما فيسقط سور المدينة في مكانه ويصعد الشعب كل رجل مع وجهة » .(١٥) فالرب يضع خطة المذبحة ليشوع السفاح وشعبه الجائع الى ارض الاخرين وذهبهم وفضتهم ، ويضع له ايضا الخلفية المسرحية التي تنفذ الخطة ازاءها. وهو ما زال اليهود ينفذونه حتى اليوم بحرفيته : كلما هموا ببلد او ارض مثلما هموا باريحا ، اكثروا من الشعائر والمعميات الغيبيةوالنواح والتوجعوصاحوا صياحا عظيما يربك الجميع وشتت انتباههم حتى تكون المذبحة قد وقعت وبات الاغتصاب امرا واقعا . ويوم اريحا قال يشوع بن نون خادم موسى « الذي كان قد امتلأ روح حكمة اذ وضع موسى عليه يديه » (١٦) ، لشعبه المختار « اهتفوا لان الرب اعطاكم (اريحا) فتكون المدينة وكل ما فيها محرما (ذبيحة)للرب. راحاب المومس فقط تحيا هي وكل من معها في البيت لانها خبات المرسلين (الجاسوسين) اللذين ارسلناهما (وانظر فقط جزاء منيلوذ باهاب الشعب المختار : ينجو من الذبح) .. وكل الفضة وآنيةالنحاس والذهب والحديد تكون قدسا للرب وتدخل في خزانة الرب .. (ودخلوا) المدينة ، واخذوها ، وحرموا (ذبحوا) كل ما في المدينة من رجل وامراة من طفل وشيخ حتى البقر والغنم والحمير بحدالسيف. واحرقوا المدينة بالنار مع كل ما بها . انما الفضة والذهب وآنية النحاس والحديد جعلوها في خزانة بيت الرب «.. وكان الرب مع يشوع وكان خبره في جميع الارض» .(١٧) فازرق الناب بن جوريون لم يذكر يشوع وامجاده التي اعادها جيش « الدفاع » الاسرائيلي اعتباطا . لانه بعد اريحا قال الرب ليشوع « قد دفعت بيدك ملك عاي وشعبه ومدينته وارضه ، فتفعل بعاي وملكها كما فعلت باريحا وملكها . غير ان غنيمتها وبهائمها تنهبونها لانفسكم . اجعل كمينا للمدينة من ورائها .. وكان لما انتهى اسرائيل من قتل جميع سكان عاي في الحقل في البرية حيث لحقوهم وسقطوا جميعا بحد السيف حتى

(١٤) العهد القديم ، الاصحاح الخامس من سفر يشوع ـ١٣/١٥ .
(١٥) نفس المرجع ، الاصحاح السادس ـ ٥/١ .
(١٦) العهد القديم ،سفر التثنية ،الاصحاحالثالث ـ ٩ .
(١٧) العهد القديم ، سفر يشوع ، الاصحاح السادس ـ٢٧/١٦ .

فنوا ان جميع اسرائيل رجع الى عاي وضربوها بحد السيف . فكان جميع الذين سقطوا في ذلك اليوم من رجال ونساء اثني عشر الفا ، ويشوع لم يرد يده التي مدها بالمزراق حتى حرّم (ذبح) جميع سكان عاي . لكن البهائم وغنيمة تلك المدينة نهبها اسرائيل لانفسهم حسب قول الرب الذي امر به يشوع » .(١٨) وبعد اريحا وعاي مدن كثيرة . فقد « ضرب يشوع كل ارض الجبل والجنوب والسهل والسفوح، ولم يبق شاردا ، بل حرّم (ذبح) كل نسمة كما امر الرب اله اسرائيل ..» (١٩) فالحقيقة انه سفر دموي ، وللمستر ستيوارت عذره في عدم الاستشهاد منه ، ذلك السفر بشيء ، الا بما يشير الى الالم الشديد الذي عاناه اسرائيل من جراء الختان الثاني . وللمستر بن جوريون كذلك عذره في الاشارة اليه ، ذلك السفر الدموي عينه وهو يتغنى بامجاد جيش الدفاع الاسرائيلي . وحقيقةً يا مستر ستيوارت جمع المستر هرتسل بين مفهوم الدولة الغربي (شديد التحضر)وبين احلام اليهود . ولكن الم يكن يجمل بنا ان نتساءل اي احلام هي ؟

الاحلام ، والاغاني ، والخرافات ، والاشرطة الملونة

ومع ذلك ، فان دزموند ستيوارت ليس ساذجا بكل ذلك القدر. فهو يخبرنا انه بعد انتصار البروسيين على الفرنسيين في سيدان واستسلام نابوليون الثالث ، « تغير دوري ، منذ تلك اللحظة ، فبات تيودور ، ولن نعود بعد ذلك نرى اسم تيفادار الهنغاري . ومنذ تلك اللحظة ،حتى نهاية مراهقته ، سيصبح كل ابطاله ، او اقنعته التي تنطق من خلالها افكاره ، المانا ، اما بالمولد، واما بالعماد .. وفيما بعد ،عندما التفت الى الوراء ناظرا الى تلك الاحداث التي تواكبت مع السنوات المبكرة من حياته ، قال : ومن اي شيء صنعت تلك الامبراطورية الالمانية ؟ من الاحلام ، والاغاني ، والخرافات ، والاشرطة الملونة . فكل ما فعله بسمارك انه هز الشجرة التي زرعها اصحاب الرؤى لتتساقط ثمارها » .(٢٠) ولقد كان بسمارك ثاني بطل يشعل خيال الفتى تيودور هرتسل . اما الاول فكان الافاق الفرنسي فردينان د لسبس . ولا نظن ان ستيوارت ساق هذا القول اعتباطا :« كان بطله الاول ذلك الامبرزاريو « Impresario » العظيم فردينان د لسبس . والواقع ان لفظة « امبرزاريو » هذه التي استخدمها الشاعر جون بدني في وصف د لسبس مطابقة لمقتضى الحال تماما (٢١) . فالرجل الذي سيطرت انجازاته على ذهن تيودور هرتسل خلال السنوات التسع الاولى من حياته لم يكن متخصصا في اي علم بعينه ، دع عنك الهندسة بوجه خاص . ومع ذلك فانه كان مثالا للرجال الذين غيروا وجه العالم في القرن التاسع عشر . فد لسبس ان كان قد افتقر الى العلم والمؤهلات الاكاديمية ، لم يفتقر الى العبقرية والموهبة . وقد تمثلت عبقريته في التمسك باهداب رؤية معينة لم يتخل عنها ، وتمثلت موهبته في الوسائل « الدبلوماسية » التي جعلت وضع تلك الرؤية موضع التنفيذ امرا ممكنا . ولقد كان الرجل انتهازيا ملهما ..» (ص ٣٢) .

وبالنسبة للبطلين اللذين الهبا خيال هرتسل في مطلع حياته ، يستخلص ستيوارت عنصرين هامين : في حالة د لسبس ،« كان مشروع قناة السويس اهم تدخل انساني متطرف لتغيير التكوين الجغرافي في التاريخ كله » (نفس الصفحة) وفي حالة بسمارك ، كان الرجل هو « الذي قام بحياكة المانيا الممزقة بابرته الحديدية ببراعة فائقة حتى لم يعد من الممكن رؤية الرقع التي حيكت معا » (ص ٣٦)والكلمات لهرتسل ذاته من يومياته الكاملة . والواضح طبعا ان « التدخل المتطرف جغرافيا » ولم شمل « امة ممزقة » لا يمكن اغفال اهميتهما بالنسبة لما انتهى اليه فكر هرتسل . الا انه من الواضح ايضا ان هناك ادراكا لا يخفى من جانب ستيوارت للعنصر المسرحي (البالغ الاهمية) في الحكاية كلها . وخذ مثلا قوله « الامبرزاريو » د لسبس ،واختياره لقول هرتسل ان الامبراطورية الالمانية (التي حاكها بسمارك بابرته الحديدية) صنعت من الاحلام ، والخرافات (fantasies) والاغاني والاشرطة الملونة .

والعنصر المسرحي اعتبار تيقظ اليهود لاهميته من قديم . حتى مذابحهم التاريخية الكبرى وحوادث السطو والاغتصاب التي قاموا بها المرة بعد المرة في سبيل مجد الاله وملء خزانته من اموال غيرهم من الشعوب والتي تحفل بذكرها وتزهو صفحات العهد القديم ، اخرجت اخراجا مسرحيا بارعا . ولا غرو ، فحسبما يقوله ذلك العهد الدموي كان مخرجها الاله ذاته ! وان عبرنا السنين ، من مذابح يشوع السفاح، الخادم الذي جعله وقوف ابيه على خبايا سيده ، زعيما لليهود ، الى احلام دوري هرتسل، رجل الاحلام والاعمال ،الى كلمات « بناء الدولة » ديفيد بن جوريون ، في مقال له عن غزوة من غزوات جيش الدفاع الاسرائيلي، لوجدنا ذلك الوعي بقيمة العنصر المسرحي حيا وماثلا في كل جريمة يرتكبها ذلك الشعب الذي يتمسح قوم المستر ستيوارت بمؤخرته لانه شعب مضطهد ومسكين :

« ان حملة سيناء (١٩٥٦) قد رفعت مكانة اسرائيل في العالم .. فدولة اسرائيل باتت الان ، ولاول مرة ،ماثلة على خريطة العالم بوصفها عاملا هاما يقام له وزن . ولقد بات العالم يدرك اننا لسنا قوة من سقط المتاع .. واني لا اعتقد ان هناك جيشا يلقى من المديح والتقريظ من جانب الرأي العام العالمي ما يلقاه الان جيش الدفاع الاسرائيلي»(٢٢).

ولقد قال بن جوريون ذلك في اعقاب قوله ان جيش الدفاع الاسرائيلي ذاك قد اعاد امجاد يشوع والملك داود ،وقد قال هذا وذاك متحدثا عن حملة سيناء التي قامت بها اسرائيل بالتواطؤ مع بريطانيا وفرنسا سنة ١٩٥٦ ، وانقسم البريطانيون على انفسهم بسبب خطتها وما انطوت عليه من سفالة على مستوى دولي لم يسبق له مثيل . ويقول الكاتب اليهودي الكندي الذي اورد الاستشهادين في كتابه عن بن جوريون :

« فهو ليس بغافل عن الكسب الذي يحققه النصر العسكري في مجال سياسة الامر الواقع والعلاقات العامة (ولذا) يعود مثنى وثلاث الى الامجاد القديمة .. راغبا في اعادة خلق حلقة وصل مع الوجود الاسرائيلي المستقل ، بادئا بابراهام الذي لم يقاتل طلبا للغنم المادي بل عملا على حماية قومه ، مارا بكل مراحل التجربة التوراتية القائمة على غزو البلدان واقتطاع الممالك من الارض . والاسطول، مثلا ، ليس مجرد تشكيلات من السفن ، بل اعادة خلق لتقاليد ملوك اليهودية ، ومهمته ليست فقط حماية الممرات البحرية لاغراض الدفاع وجلب المهاجرين ،بل ان له قيمة اخرى لا تقل عن استرجاع الصحراء وجعلها تزهر . فالواقع ان الوثبة الكبرى الى الوراء عبر ١٩٠٠ سنة واكثر من التاريخ الى تلك المرحلة التوراتية التي حفلت بالبطولات واتصفت بالاستقلال والتحرر من النير الاجنبي ، من ناحية ، والقفزة المسيانية الى الامام ، من الناحية الاخرى ، تمثلان الجهتين القرينتين لبوصلته التاريخية التي توصل بن جوريون باستخدامها من قيادة السفينة عبر مياه الحاضر.. ولقد قال ان الاختبار الاعظم لدولة اسرائيل لن يتمثل في قوتها العسكرية والاقتصادية فحسب ، بل وقبل هذه وتلك في الصورة التي تضفيها على مواطنيها » (٢٣) .

فالعنصر المسرحي والعلاقات العامة والصورة التي تضفيها دولة

(١٨) نفس المرجع ، الاصحاح الثامن ـ ٢٧ .

(١٩) نفس المرجع ، الاصحاح العاشر ـ ٤٠ .

(٢٠) دزموند ستيوارت ، هرتسل ، ص ٣٦ .

(٢١) John Pudney , « Suez : de Lessep's Canal » London , Dent , 1968 , P. 20 , quoted by Desmond Stuart , P. 32 .

(٢٢) افراهام آفي ـ هاي ، كتابه عن بن جوريون ، المرجع السابق الاشارة اليه، ص ٤٣ .

(٢٣) نفس المرجع ، ص ص ٤٣ ـ ٤٥ .

اسرائيل على نفسها وعلى مواطنيها لتعمي بهـا عيـون البشر وتذهلهمهي هي اشرطـة هرتسل الملونـة وخرافاته واغانيه . ولكن ماذا عن الاحلام؟ فيما يخص الاحلام :

« ..كان بن جوريون ينصحدائما بالمطالعة الدقيقة لسفر«الخروج» طلبا للحكمة السياسية العظيمة ، وبخاصة تلك الايات المتعلقةباستيطان الارض قليـلا قليلا بعد ان يخرج منهـا الكنعانيون (اي العرب فـي هذه الايام) على دفعات ،خوفا على الارض من ان تخرب وتعمرهـا الوحوش ...»(٢٤) .

والايات التي كان ينصح بن جوريون بتعلم الحكمة السياسيـة العظيمـة منهـا تقول :

« ارسل هيبتي امامك وازعج جميع الشعوب الذين تاتي عليهـم واعطيك جميع اعدائك مدبرين . وارسل امامك الزنابير فتطرد الحويين والحيثيين والكنعانيين من امامك . لا اطردهم من امامك في سنةواحدة لئـلا تصير الارض خربة فتكثر عليك وحوش البرية . قليلا قليلااطردهم من امامك الى ان تثمر وتملك الارض . واجعل تخومك من بحر سوف الى بحر فلسطين ، ومن البرية الى النهر . فاني ادفع الى ايديكـم سكان الارض فتطردهم من امامك . لا تقطع معهم ولا مع الهتهم عهدا . لا يسكنوا في ارضك لئلا يجعلوك تخطيء الي» (٢٥) .

والكلام موجه الى نبيّ الله موسى عليه السلام ، والكلام واضح. قليلا قليلا الى ان تثمر (تتكاثر) وتملك الارض واجعل حدود تخومك الامنـة كذا الى كيت ولا يسكنوا معك في ارضك لئلا يدنسوك ،فحولهم كلهم الى لاجئين ، قليلا قليلا حتى تستلم الارض منهم مزروعة وصالحة للاستيطان لا خربة .

فمن الاحلام والخرافات عد الى العهد القديم ، او كمـا يقـول الكاتب اليهودي الكندي ،الى ما قبل ١٩٠٠ سنة واكثر من التاريـخ اليهودي المجيد . ولكن منذا الذي يمكـن ان ينفذ الى اسرار ذلكالعهد الرهيب الا شعب الاله المختار اذ يعود فيستوطن ارضه .

« فقط للشعب الذي يستوطن ارضه من جديد ويمتزج بصورتها كمـا تشع من كل صفحة من صفحات سفر الاسفار (العهدالقـديم) وتصبح لغـة ذلك الكتاب لغته الطبيعية التي بهـا يفكر ويحلم ، بعلم منه او بغير علم ، فقط لهذه الامة سيكشف الكتاب عن خبايا اسرار قلبه واعماق روحه ، واذ ذاك سوف تتـوحـــد روح الكتاب بروح الشعـب» (٢٦) .

فللمستر ستيوارت وغير المستر ستيوارت العذر في انهم لا يرون ولا يفهمون ، ولكن ما ذنبنا نحـن حتى نؤخذ بجريرة عدم رؤيتهم وعدم فهمهم ؟ وهل ينبغي ان ننتظـر الى ان يكتووا بالنار هـم ايضا حتـى يفيقـوا وتنجاب غشاوة اثر غشاوة تطمس اليوم عقولهم وتعميابصارهم؟ لكنـا اذا انتظرنـا ذلك اليوم الذي يصحو فيه المتحضرون الليبراليون المتسامحون واليهود يحرّمونهم هم ايضا ان نكـون قد بتنا الا ذكـرى حزينة لشعوب بادت وانقضى امرها . فليعـذرنا السادة الاوربيـون المتحضرون اذا نحـن لم نسر على دربهم المتانقة المهذبة المتعالية ، لان الامر الان ،في هذه المرحلـة ، متعلق ببقائنا نحن ، وليسمح لنـا المستر ستيوارت وهو جالس مستريح في حمى كتبه وموسيقاهالكلاسيكية وفليونه وتحضره البريطاني الانيق حيث لا تعبث يد عربية غليظة ببريده المقدس ان ناخذ منه كلمة الاحلام المسيانية الجميلة ونمعن النظـر فيها بغلظة عربية غير متانقة لنرى اي احلام دموية هي !

يقول بن جوريون انه « بينمـا كانت اعين كل امم العالم القديم منقلبة وراء الى الماضي ، كانت اعين الشعب اليهودي مشدودة ابدا الى الامام ، الى رؤية اخر الزمان » .(٢٧) فهي حكايـة فلسفةالتاريخ مرة اخرى وحلم الفردوس الارضي في اخر الزمان . وفي العهد القديم، في سفـر اشعياء النبي يوصي الرب شعبه المختار بذلك ، فيقول له : « لا تذكروا الاوليات ، والقديمـات لا تتاملوا بها . هانذا صانع امرا جديدا . الان ينبت . الا تعرفونه ؟ اجعل في البرية طريقـا فيالقفـر انهارا .. هذا الشعب جبلته لنفسي . » (٢٨) فمـا هو الجديد الذي يعده الرب لشعبه الذي جبله لنفسه؟ « هكذا يقول الله الرب خالـق السموات وناشرها باسط الارض ونتائجها .. انا الرب قد دعوتك بالبر فامسك بيدك واحفظك واجعلك عهدا للشعب ونورا للامم لتفتح عيون العمي لتخرج من الحبس الماسورين من بيت السجـن الجالسيـن في الظلمة . انا الرب هذا اسمي ومجدي لا اعطيه لاخـر ولا تسبيحـي للمنحوتات . هوذا الاوليات قد اتت والحديثات انا مخبر بها . قبل ان تنبت اعلمكم بها .. ايها الصم اسمعوا . ايها العمي انظروا لتبصروا .. لا تخف (يا اسرائيل) لاني فديتك . دعوتك باسمك فانت لي . اذا اجتزت في المياه فانا معك وفي الانهار فلا تغمرك . اذا مشيت في النار فـلا تلذع واللهيب لا يحرقك . لاني انا الرب الهك قدوس اسرائيـل مخلصك . جعلت مصر فديتك ، كوش وسبا عوضك . لا تخف فانيمعك. اعطي اناسا (شعوبا) عوضك . من المشرق آتي بنسلك ومن المغـرب اجمعك . اقول للشمال اعط وللجنوب لا تمنع . ائت ببنيي(بابنائي) من بعيد وبناتي من اقصى الارض » (٢٩) .

هذا يفسر لنا احلام اليهود المسيانية بعض الشيء فيما نظن .ولكن لكي نفهم اكثر ما انطوت عليه حكايـة الاحلام والخرافات ، يحسن ان نصغي من جديد لكاتب سيرة بن جوريون وهو يتساءل :« اي شيء هي الرؤية المسيانية ؟ (ولفظة مسيانية ماخوذة من لفظة مسيح) (٣٠) . اذا عرينا الرؤية من التجسيد المتمثل في شخص المسيح المنتظر ، ذلك التصور الذي اشتركت فيه اليهودية والمسيحية بعض الوقت ، فانهـا تصبح رؤيـة لحقبة يكون خلاص الشعب اليهودي فيهـا بعودته الـى ارضه بدايـة تسبق خلاص النوع البشري كله .فاورشليم (القدس) التي تقوم من جديد ستصبحمركزا لتعليم الاخلاق العالمية وتصبحصهيون بؤرة « لكلمة الرب » . ووقتما سيسود السلام الابدي « فلن تعود امة ترفع السيف في وجه اخرى ،بل ولن تعـود الامم تتعلم الحـرب بعـد ذلـك » (٣١) او كمـا اوضح بن جوريون مؤخرا ، لن تصبح الحرب محرمة قانونا فحسب ،بل وستصبح العلوم العسكرية ممنوعة ».(٣٢) وذلك امر طبيعي . لانه سيكون من مصلحة الشعب المختار ـ بعد ان يبسط سيادته على العالم ويجعل من القدس عاصمة روحية لـه ـ ان يمنع الشعوب الاممية المستعبدة من ممارسـة الحرب او تعلم فنونهـا لئلا تحاول ان تسترد انسانيتها من براثنه . « ويقول بن جوريون ان هذه الرؤية المسيانية ، رؤيـة اسرائيل التي استردت ملكها واستعـادة شعبهـا واحيت الامجاد التوراتية القديمة الخلاقة ،هي التي اقتحلى اليهود احياء ، واجتذبت كل مهاجر الى اسرائيل حتى وان كان فـي نفس الوقت قد هاجر من المكان الذي كـان مشتتا فيه هربا مـن الاضطهاد .» (٣٣) فاليهـود لـم ياتوا الى اسرائيل هربا من اضطهـاد الاوربيين اوم بقدر مـا اتوا لتنفيذ الرؤية التوراتية المحمومة المخضبة

(٢٤) نفس المرجع ، ص ٤٥ .

(٢٥) العهد القديم ، سفر الخروج ،الاصحاح ٢٣ ـ ٣٣/٢٧ .

(٢٦) افراهام آفي ـ هاي ،ص ٤٦ .

(٢٧) نفس المرجع . ص ٤٩ .

(٢٨) العهد القديم ، سفر اشعياء ، الاصحاح ٤٣ ـ ٢١/١٨ .

(٢٩) نفس المرجع ، الاصحاح ٤٢ ـ ١٠/٥ و ١٨ والاصحـاح ٤٣ ـ ٧/١ .

(٣٠) المسيح المنتظر الذي حلم به اليهود ، والمفروض انه سياتي ليحملهم بمعجزة الى الارض الموعودة !

(٣١) وقد اوضح بن جوريون ذلك في كلمة القاهـا امام دورة للجمعية العامة للوكالة اليهودية ، عقدت بالقدس المحتلة في٢٣ يونيـو ١٩٧١ . انظر افراهام افي ـ هاي ، ص ٤٧ وص ٢٩٧ .

(٣٢) افراهام آفي ـ هاي ، المرجع السابق ،ص ص ٤٧/٤٦ .

(٣٣) نفس المرجع السابق ، ص ٤٧ .

بالدم التي تصبح مصر وغير مصر من الامم بموجبها « فداء لهم وعوضا عن نفوسهم » . وعندما تكون الضحايا قد اكتملت عددا على مذبح الاله ،شعبا بعد شعب،وارتوت اراضيها المنهوبة من دمائها ،«ستصبح اسرائيل ،في الفردوس الاتي في اخر الزمان ، نورا للعالم وخلاصا لشعبها » .

ولقد اهتم المستر ستيوارت اهتماما خاصا بان يؤكد لنا ان تيودور هرتسل كان يحصل على درجات سيئة في مادة الدين (ص٣٧). وبنفس الروح الطيبة اللطيفة يرجع اهتمام هرتسل بقناة السويس والافاق الذي قام بحفرها الى انسحاره بمنجزات العلم المثيرة للخيال ، والدليل على ذلك ان تيودور قرأ بنهم روايات جول فيرن التي من نوع « الخرافة العلمية »، مثل « خمسة اسابيع في منطاد »، و« رحلة الى مركز الارض » ،و « من الارض الى القمر » ، و « عشرون الف فرسخ تحت سطح البحر » . ويقول المستر ستيوارت : « ولقد كانت الدرجات السيئة التي حصل عليها تيودور في مادة الدين ذات مغزى في ضوء مستقبله.وهي ـ اذا ما نظر اليها في سياق عصره ـ تبدو متوقعة من شاب متحرر الفكر غير متدين freethinking عاصر ماركس وداروين.» (ص ٣٧) لكنه ـ على سبيل الحرص ربما ،او على سبيل الايضاح بغير أن يتهم من يكتب سيرته (وهو هرتسل لا أقل) بالانتهازية ـ يضيف بعد ذلك القول مباشرة قوله : « الا انه ،فيما بعد ، عندما بات ملتزما بقضية ذات مضامين دينية ، اعطانا ،في سيرة ذاتية قصيرة وفي مصارحات مع احد حوارييه ،ثلاث روايات عن موقفه من الدين في طفولته .. لكن تلك الحكايات لا يجب ان تؤخذ ماخذا حرفيا ، لانه كتبها ولسانه في شدقه كما يقولون . والحقيقة ان الهيومر المستدق في سيرة هرتسل الذاتية لم يتذوقه كثيرون كما كان ينبغي لهم ان يتذوقوه .. ولقد كان الفتى ممزقا بطريقة غير متكافئة بين تراثه الموسوي وتراثه الجوتوي (نسبة الى جوته) ! (ص٣٧-٣٨) ولكي يعطينا ما يمكن أن يوصلنا اذا شئنا الى حقيقة موقف هرتسل من تراثه الديني (وستيوارت جاهد هنا في تصوير الشخصية التي يرسم خطوطها كشخصية انسان ليبرالي متحرر عديم التعصب لا تهمه حكاية الدين هذه بالحقيقة كثيرا كاي بريطاني بروتستانتي متسامح مهذب) يسوق استشهادا طويلا اكثر مما يحتمل المجال ، لا عن هرتسل ذاته ،بل عن شاب يهودي من معاصريه كان هو الاخر ممزقا بين موسى وجوته المسكين كتب يقول في سيرة ذاتية له بعنوان « حياتي كيهودي والماني » ان مادة الدين بالمدارس الالمانية لم تكن مادة سارة. وذلك امر يحسه كل صبية المدارس في كل مكان وزمان ولا يعني شيئا الا انهم يفضلون ان يكونوا خارجا يلعبون الكرة . لكن المسالة هنا متعلقة بشخص اسمه يعقوب ، ويعقوب فاسرمان ، فلا بد ان يكون ما يقوله جليلا وذا وزن . ويضيف العم فاسرمان قائلا (متحدثا من تجربته الخاصة المحدودة مع معلم الدين بمدرسته ولا شك) ان درس الدين درس بلا روح يقوم بتدريسه عجوز بلا روح ، ولذا فالدرس يكون « هزيلا ، ميتا ، ومحنطا » .. الخ الخ (ص ٣٨) . غير ان ذلك لا شان له بهرتسل،ولا يعطي القارىء اي معلومة ذات صلاحية عنه . لان الاستشهاد هو عن شخص اخر . ومع ذلك وجد المستر ستيوارت من الضروري ان يستشهد به لا ندري لم ؟ الكي يدلل على ان هرتسل لم يكن متعصبا دينيا ؟ ولكن الم ير المستر ستيوارت انه في غمرة اهتمامه بتصوير هرتسل على صورته هو (اى صورة الاوربي المهذب « الذي لا يحب هذه الاشياء كالتعصب وما اليه »)نسي انه بذلك يتهم هرتسل بالنفاق وباستغلال ديانته التي لم يكن مهتما بها كثيرا على حد قول المستر ستيوارت في اقامة مذهب سياسي انبنى عليها اساسا ، وعندما فعل ذلك وجد من الضروري ان يربك الناس فيما يخص معتقداته الايمانية فاعطاهم تلك الروايات الثلاث التي يتحدث عنها المستر ستيوارت ؟فهل يريد المستر ستيوارت ان يقول ان هرتسل كان انتهازيا دينيا وسياسيا وافاقا ؟ لا نظن . والذي نظنه ان المستر ستيوارت نفسه هو الذي وجد انه واقع في ورطة لا هرتسل . فالاخير كان متسقا مع نفسه وكان يعلم جيدا ما يريد ويعرف كيف يتوصل اليه . اما المستر ستيوارت فيكتب عن هرتسل بروح المتحضر الليبرالي المتسامح البعيد عن التعصب او استخدام الدين في اغراض سياسية ، فكيف يكون « بطله » متعصبا يهوديا يصدر عن احلام العهد القديم الدموية ويسعى الى اهداف العهد القديم التي لا مواربة فيها ؟ ولذا فان المستر ستيوارت ـ بالحقيقة ـ يدخل في تبريرات وتخريجات ما كان اغناه عنها :« ومضات من النور جاءت الى هرتسل من عصر الاصلاح الديني اكثر مما جاءته من العهد الجديد. ولقد كانت احدى قصائده المبكرة حول مارتن لوثر ، القومي الالماني وسلف بسمارك في الكفاح الثقافي ضد الكنيسة الكاثوليكية .»(ص٣٨) بطبيعة الحال . وما الذي يثبته ذلك ؟ الا يرى المستر ستيوارت ان عصر الاصلاح الديني الذي فصل الدين عن الدولة في اوروبا فكان بداية النهاية للنظام القديم دولة وكنيسة وتمهيدا لبزوغ شمس النظام الرأسمالي الجديد كان فاتحة خير لليهود الذين يقول ان « حيطان الجيتو كانت قد تهاوت من حولهم في حياة جد الفتى تيودور، وان اخر جيتو في القرن التاسع عشر ،جيتوروما ،زال من الوجود بعد مولد تيودور بسنوات قليلة » (ص١٨) ، الا يرى المستر ستيوارت ذلك حقيقة ؟ وحقيقة ايضا لا يرى اهمية مارتن لوثر لليهود ولبزوغ النظام الاقتصادي والاجتماعي الذي حررهم وتقبلهم واخرجهم من وراء أسوار الجيتو ؟ ولا يرى ايضا ، المستر ستيوارت ، الخطر الذي تمثله الكنيسة الكاثوليكية في ذلك المدار كله ؟ والضجة التي اقامتها الصهيونيون بطون كتابها حول تواطؤ بابا الفاتيكان مع عصبة ماثلة في الاذهان . والصحف البريطانية ما زالت تجتر ما حشى به الصهيونيون بطون كتابها حول تواطوء بابا الفاتيكان مع عصبة هتلر البربرية ابان الحرب العالمية الثانية فيما يتعلق بعمليات قتل اليهود ، فلزم الصمت حيالها . ونحن ابعد ما نكون عن خداع النفس باية آمال بلهاء حول بطولات فدائية يقوم بها الفاتيكان او غير الفاتيكان بالنسبة لقضايا بقائنا او فنائنا . ولقد اوشك الفاتيكان منذ وقت ليس ببعيد ان ينساق فينضوي هو ايضا ويصدر وثيقة تبرئة اليهود مجازفا في سبيل ذلك باعلان ضمني يقول ان العهد الجديد ـ ما دام قد كذب بذلك الخصوص ـ كذب من اول الى اخر كلمة فيه . لكننا نسال المستر ستيوارت على سبيل التذكرة والتنبيه فقط ، لانه يبدو سادرا ، ببراءة بريطانية متحضرة للغاية ومحببة ،في تحويل ارتباطات المصلحة الصهيونية في فكر هرتسل وسياساته الى ادلة على معان غريبة نستشفها من هذه الاسطر الممتدة بحق:« عندما) حل يوم التثبت اليهودي « bar mitzvah » بالنسبة للفتى تيودور، استخدم ابواه اللفظة المسيحية (confirmation) في بطاقات الدعوة، وكان ذلك مطابقا لمقتضى الحال ، لان كلا النوعين من الطقوس كانا قد فقدا كثيرا من قوتهما الاولى . فالفتى المسيحي الذي يمر بذلك النوع من الطقوس مرتديا افضل ثيابه يقف امام الاسقف الذي يثبته وهو لا يكاد يثبت انتباهه الا في لحظات عابرة متقطعة على تلك المناسبة في الماضي البعيد باورشليم وقد وقف حواريو المسيح بقلوب هزتها الفجيعة .. وبالمثل فان يهود القرن التاسع عشر كانوا ، فيما يحتمل ، لا يركزون ـ اثناء الطقوس اليهودية المقابلة ـ الا بمثل ذلك الانتباه المبهم المشتت على دراما سيناء وموسى ينزل من فوق الجبل حاملا لوح الناموس ، وفي العصور الوسطى التي يمكن تعقب بداية تلك الطقوس اليهودية الخاصة بالتثبيت فيها ، كان الفتى الذي يمر بتلك الطقوس يقف معلنا التزامه بمراعاة ٦١٣ قاعدة هي قواعد القانون الموسوي .. غير انه في وقت هرتسل كانت المسالة قد باتت قاصرة على ترديد بضعة آيات بالعبرية من الناموس . وكان الاهتمام في مثل تلك المناسبات قد بات منصبا على الحفل الذي يقام بعد طقوس المعبد في البيت . وفي البيت كانت لدى آل هرتسل

مشاغلهم . فقد استثمر يعقوب هرتسل ، الاب ،ثروته في عملية متعلقة بالاخشاب التي كانت تغطي اكثر من ربع مساحة المجر ..» (ص٣٩-٤٠) والحقيقة اننا لا ندري فيم اهتمام المستر ستيوارت بحكاية التدين هذه كل هذا الاهتمام ، وكأن كون المرء متدينا تهمة يجب ان تدفع عنه، اللهم الا اذا كان المستر ستيوارت يرى ان لها في حالة « بطله » بالذات مغزى اخطر من مجرد تدين اي انسان ». (وهكذا) فان آل هرتسل لم يقطعوا ما بينهم وبين الدين ، لكنهم لم يعطوه ايضا تلك المكانة في حياتهم التي كان يتطلبها . وبوضعهم الدين ذلك الموضع المحدود من نسق حياة حضرية معقدة كانوا يهزمون مقاصد احبار ما بعد المنفى الذين قاموا بتقنين الشريعة الموسوية . فقد ابرز الاحبار عمدا تلك العناصر المحرجة من شريعة موسى التي تجعل من المستحيل بالنسبة لليهود تقليد الاممين واعطوها مكان الصدارة عملا على ان يذكروا انفسهم وشعبهم بمصير اليهود الفوق طبيعي والمهمة الملقاة على عواتقهم » .(ص ٤١) .

الفارس الصغير

يخبرنا دزموند ستيوارت ، في معرض متابعته الدقيقة للمؤثرات التي باشرت فعلها في صياغة تفكير هرتسل ومواقفه ، ان الشاعر اليهودي الذي اعتنق المسيحية ،هينريش هايني ، احتل المكانة الثالثة بعد د لسبس وبسمارك ، ويقول : « ولقد كان تاثير هايني قويا ، نظرا لاوجه التشابه بينه وبين تيودور . فقد ولد هايني لابوين يهوديين من الطبقة المتوسطة ، في دسلدورف » .. « ومثلما سبق مولد تيودور انهيار حيطان الجيتو في اعقاب الثورة الصناعية ».. « شقت جيوش نابوليون ، في صبا هايني طريقها في قلب الدويلات التيكانت تتالف منها المانيا ، و(من خلال ذلك) زلزلت الثورة الفرنسية ،والقائد الشاب (نابوليون) الذي كان مبعوثها ، الاسس الضاربة في القدم لطريقة الحياة الالمانية ، ومن بينها القيود التي كانت مفروضة على اليهود . ومثلما بدأت حياة هرتسل بداية خاطئة بدخوله مدرسة تعده لدراسة الهندسة ،بدأ هايني حياته بداية خاطئة بدخوله في شركة تجارية مع احد اعمامه ما لبثت ان افلست ،ومن ذلك الخطا انساق الى خطا اخر ، فالتحق بجامعة بون ثم بجامعة جوتينجن ، لدراسة القانون ، رغم انه - مثل هرتسل الذي كان يدرس الرياضيات - كان شغوفا بدراسة التاريخ والاداب وليس بدراسة القانون .« فأوجه التشابه ماثلة ، كما ترى ،في كون الاثنين يهوديين ، من الطبقة المتوسطة ، وكونهما قد عاشا في المانيا ، وبدأ كل منهما حياته بالانخراط في اهتمامات مغايرة لما كانا يهتمان به حقيقة وهو الادب، وكونهما ، كل في زمانه (وقد مات هايني قبل مولد تيودور هرتسل بسنوات قلائل) عاصرا انقلابات اوربية ادت التغيرات التي نجمت عنها الى تحسن اوضاع اليهود . ويخبرنا ستيوارت بعد ذلك ان هايني اقدم وهو في جامعة جوتينجن على خطوة طالما كان تيودور هرتسل « قد اعمل الفكر فيها بامعان » ، فاعتنق المسيحية ، او، كما يقول ستيوارت « خضع او استسلم للعماد باسم الاب والابن والروح القدس » ،ويضيف : « ولقد كانت دوافعه الى ذلك عملية. فقد كان مستوعبا « بالليباس ، واللغة ، وطريقة الحياة » ،في الاغلبية الالمانية ، ولذا فانه وقد قبل (بدخوله المسيحية) ان يعلن خضوعه ظاهرا لما رأى انه الميثولوجية السائدة ، لم يفعل اكثر من التقدم الى مرحلة اخرى من مراحل تكيفه للمجتمع الذي كان يعيش فيه . ورغم ذلك فانه لم يتنكر لاصوله اليهودية. والحقيقة ان نقاد شعره لاحظوا دائما تماثلات ووشائج رحم بين استخداماته للتصورات الطبيعية وبين استخدامات الشعراء العبرانيين لها ، بينما اتصف نثره المقصود بذلك « الازدراء الماحق والحس الذي لا يمحى بالعدالة الذي يتشارك فيه كل زعماء الجنس اليهودي ».. ولقد كان هايني طيلة حياته مكروها من السلطة في المانيا ، لا بسبب اصله اليهودي ، بل

بسبب انتماءاته الليبرالية (التي اعتبرت آنئذ مرادفة للثورية) ، (وهكذا) فانه عندما قامت الطبقة المتوسطة بانقلابها فيفرنسا ، سنة ١٨٣٠ ،وجاءت بلويس فيليب ملكا ، هاجر هايني الى فرنسا ،وقدم طلبا للحصول على اعانة من الحكومة الفرنسية ، وحصل على تلك الاعانة بشروط جعلت منه ، في واقع الامر ، مبلغا لدى البوليس الفرنسي .. وفي اواخر حياته اقعده مرض في العمود الفقري فالزمه الفراش ثماني سنين ،حتى مات . وقبل موته كتب قصيدة يعلن فيها حزنه لكونه سيموت منبوذا ، فلن يقرأ عليه احد بعد موته صلاة الموتى اليهودية (الكاديش) او يقيم قداس الموتى المسيحي. ولما كانت الديانة اليهودية تؤكد ان الخطيئة تلقى عقابها هنا ، في هذا العالم ، مثلما تلقاه في العالم الاخر بعد الموت ، فلا بد انه كان من الصعب بالنسبة للشاب تيودور هرتسل الا يرى فيذلك المرض الذي الزم هايني الفراش ثماني سنوات قبل موته عقابا له على اعتناقه المسيحية .. ابتغاء لمكاسب دنيوية .» (ص ٤٣ - ٤٤).

ورغم الافاضة ، لا يحدد ستيوارت التاثير الذي باشره هايني على هرتسل ، هل كان تاثيرا في الشعر ، في الادب ،في الفكر ؟ الله اعلم . كل ما هنالك ان الفتى هرتسل وجد في ورطة الشاعر « صدى لورطته ، من حيث ان لفظة« الماني» في حالته كانت تستحق ان توضع بين قوسين » (ص ٤٢)فقد بدأ تيودور هرتسل « يفطن الى الواقع فيما يخص مواهبه ، ومزاجه ، ووضعه في المجتمع . فلم تكن لديه امكانية الاستمرار في دراسة العلوم (ليصبح مهندسا)، وقد ادرك ان لوثر وبسمارك هدفين من المستحيل التوصل الى محاكاتهما . وحتى ان قبل الدخول في المسيحية لن يبيت بوسعه ان يامل في ان تتاح له فرصة القيام بدور مبرزفي الحياة الدينية او السياسية لاوروبا الالمانية . ولقد كان الوضع في المانيا عكس الوضع فيبريطانيا. (التي) كان بنيامين دزرائيلي قد اصبح فيها رئيسا للوزراء ، وعما قليل ،في سنة ١٨٧٦ ، سوف يعلن ملكتها فيكتوريا امبراطورةللهند. ومع ذلك فان يهوديا بريطانيا واحدا (بما في ذلك دزرائيلي الذي كان يؤلف الروايات) لم يكن قد اتيح له بعد ان يصل الى اعلىمكانة في الادب ، الفن البريطاني الرئيسي . وبينما كان ظهور دزرائيلي اخ في عالم السياسة الالمانية امرا لا يمكن تصوره ، كانالبهود قد بدأوا يرقون الى اعلى المراتب في الفنون الالمانية » . (ص ٤٢).

والكلام واضح ، فيما نظن . اعلى المراتب . فيالسياسة . في الادب . في الاقتصاد . ولقد وصف الجنرال ديجول اليهود بانهم شعب « ممتليء بنفسه ، ومتسلط » (٣٣) ، وقال عنهم اندريهسيجفريد:

« واليهودي ايضا شخص متشائم ، وبشكل صارخ فيما يخص المجتمعات التي ساقه قدره الى العيش فيها ، وبفضل ذلك الانفصام الفكري ،يبيت بوسعه ان يصدر الاحكام على ذلك المصير بنفس الصفاء البارد الذي يتصف به من لا علاقة له بالامر .وتحضرنيفيهذا المجال تلك الفقرة المشهورة لباريه (Barès) عن بيكود لاميرانفولا،التي يقول فيها :« يوجد بين العقول اليهودية قاسم مشترك اعظم يمكن لاي شخص ان يلاحظه بسهولة فيمن يعرفهم من الاسرائيليين ،وهو انهم يتناولون الافكار بنفس الطريقة التي يتناول بها الصيارفة رزم النقود او الاسهم والسندات . فالافكار ، فيما يخصهم ، لا تبدو ، كما هي

---

(٣٣) الجنرال شارل ديجول ، في مؤتمره الصحفي يوم ٢٧ نوفمبر ١٩٦٧ : « ولقد توجس البعض (اثر انشاء اسرائيل) من ان اليهود ، الذين كانوا قد ظلوا حتى ذلكالوقت مشتتين ، وظلوا طيلة الوقت كما كانوا دائما ، اي شعبا مختارا فوق غيره ، ممتلئينبانفسهم ومتسلطين ،قد ينقلبون ،وقد توحدوا ، فيحولون الامال التي ظلوا يتعلقون بها طيلة ما يزيد عن تسعة عشر قرنا : « السنة القادمة في القدس » ،الى طموح مشتعل للغزو » .

الحال فيما يخصهما بالنسبة لسائر الناس ، كصيغ يعبرون بها عن نوازعهم وادق التحركات الحميمة لكيانهم ، بل كقطع نقود يفرزونها على لوح من رخام بارد . ولقد لاحظنا ان اليهودي الذي ينتقد المجتمع الذي يعيش فيه لا يفعل ذلك كما لو كان ينتقد امه مثلا ، بل يفعل ذلك بقدر ملحوظ من الافتقار الى الرحمة والتورع. وبالرغم من كل المظاهر التي قد تغري بالاعتقاد بالعكس ، لا يكاد اليهودي يكون ابدا محافظا او تقليديا ، بل ثوريا (بالنسبة للمجتمع الذي يعيش فيه) اما المجال الذي يكون فيه محافظا فتراه اليهودي فقط ، واذ ذاك يكون محافظا بحرارة ولا يعود متعاملا فوق لوح الرخام البارد في السوق التجارية » (٣٤) .

ورغم حديثه عن « ورطة » تيودور هرتسل التي وجد لها صدى في ورطة هايني ، وضرورة وضع لغطة الماني ، فيما يخصهما ، بين قوسين ، يقول ان هرتسل ، عندما غير مدرسته ، والتحق بمدرسة ملحقة بالكنيسة البروتستانتية كانت تعتبر معقلا للقيم الجرمانية ، وجد ان معظم الطلبة بتلك المدرسة كانوا يهودا ، ويضيف قائلا : « ومثل تلك النسبة العالية يسهل تفسيرها ، فقد كان اليهود يشكلون الكتلة الكبرى من الطبقة المتوسطة المجرية التي كانت صغيرة وقتئذ (لكنها صاعدة ، وبسرعة) وكانت كثرة منهم ، كال هرتسل ، شديدة الالتصاق بالثقافة الالمانية » (ص ٤٥) ولعله كان ينبغي لستيوارت ان يضيف « .. البورجوازية الجديدة » الى قوله « الثقافة الالمانية » لتتضح الصورة ، فهو دائما يترك الصورة مبتورة او منقوصة ، لا ندري لم . ربما عن سهو . واحيانا يلويها قليلا ، لا ندري لم ايضا . ليبدو متحررا ، ربما ، ومعاديا لمعاداة السامية . فهو يفسر الحلف بين اليهود والبروتستانت في اطار الطبقة التي تسلمت المجتمع لادارته لا بالمصلحة الاقتصادية والتغير الذي طرأ على المجتمعات الاوربية ، بل بتعصب الكاثوليكية ! ولقد كان لدى اليهود من الاسباب ما يجعلهم يحسون انهم اقرب للبروتستانت منهم الى الكاثوليك . فالبروتستانت المجريون كانوا ، كاليهود ، اقلية ، حتى وان كانوا اقلية داخل اطار العقيدة الحاكمة (المسيحية). والاهم من ذلك ان بروتستانت القرن التاسع عشر في اوربا كانوا ، بوجه عام ، ليبراليين ، بينما لم يكن رؤساء الكنيسة الكاثوليكية كذلك . » (ص ٤٥) وليلاحظ القارىء انه لم يقل الكاثوليك ، بل « رؤساء الكنيسة الكاثوليكية ». والطريف انه بعد ذلك باسطر قليلة يقول ان المجر كانت تحكمها وتستغلها اوليغاركية كان ضحاياها الاساسيون هم الفقراء لا الاقليات الدينية (اليهود والبروتستانت) الذين كانت احوالهم قد تحسنت كثيرا . (ص ٤٦) ولا يقول لنا ممن كانت تتكون تلك القلة الثرية الحاكمة المستغلة ، حكما مطلقا واستغلالا مطلقا كان ضحاياهما الفقراء ، اي السواد الاعظم من الشعب . ربما من كبار التجار والمولين اليهود المضطهدين المساكين الذين كان ابناؤهم يعانون من ورطة كونهم يهودا ، كال هرتسل البؤساء الذين لم يتوصلوا الا الى شراء اكثر من ربع غابات المجر فقط ؟ لا يقول . لكنه ، المستر ستيوارت ، يحتاط ـ بالحقيقة ـ لنفسه دائما ، فهو يقول بعد ذلك مباشرة ، (لا من عنده هو ، بل استشهادا ، في معظم الامر ، من كاتب اخر ، حتى لا يكون الملوم او يتهم بالهمجية) ، يقول ان اليهود لم يكونوا قد عادوا يعانون من اية « عاهات » قانونية ، منذ سنة ١٨٦٧ . وقد كانت المعارضة التي واجهتهم ناجمة بقدر كبير من الغيرة التي اثارتها قوتهم الاقتصادية . ولقد كانت اهميتهم ، كما كتب احد المراقبين فيما بعد غير متناسبة اطلاقا مع عددهم ، من حيث انهم احتكروا جانبا كبيرا من النشاط التجاري ، وباتوا هم والالمان سواء اكبر مستخدمين للبد العاملة في البلد ، ولم يتحكموا في مالية البلاد فقط ، بل وفي قدر كبير من نشاط الحكومة وصحافة البلاد ،

(٣٤) Raymond Aron , « De Gaulle , Israel and the Jews » André Deutsch 1969 , London , PP .135 /136

ونتيجة لتبذير ملاك الاراضي المجريين وسفههم ، وفقر الفلاحين ، بدات تربة المجر هي الاخرى تنتقل تدريجيا الى ايديهم . (ص ٤٦) فلعلنا نعرف الان من كانت تتالف منهم تلك الاوليغاركية التي حكمت المجر حكما مطلقا واستغلت شعبها . ومع ذلك ، فيما يخبرنا المستر ستيوارت ورغم ان عدد اليهود وصل قرب نهاية القرن التاسع عشر الى خمس سكان بودابست ، فانهم لم يكونوا محطا للكراهية الشعبية التي انصبت على اليهود في فيينا التي كان عددهم فيها لا يتجاوز واحد الى عشرة من السكان. ولقد كانت الاغلبية المسيحية الساحقة هي التي انكرت عليها المجر في ظل آل هابسبورج الحقوق المدنية ». (ص ٤٦) .

ورغم ذلك كله ، فيما يخبرنا المستر ستيوارت ، استجاب تيودور هرتسل للمجر والثقافة المجرية بالرفض وتطلع هو واسرته الى فيينا ، التي يبدو ان فرص الثراء والاستغلال فيها كانت اعظم . لكن المستر ستيوارت يعطينا لذلك الرحيل من بودابست الى فيينا (الذي جاءت مناسبته عندما ماتت ابنة الاسرة بولين بالتيفود) تفسيرا ساميا كالعادة ، فيقول « ان قرار الرحيل الى فيينا يصبح مفهوما اذا ما ركزنا على فيينا نفسها التي كانت قد باتت رمزا للحضارة او الثقافة (kultur) التي كانت قد باتت بدورها بديلا للعقيدة الدينية » ! وبعد صفحة كاملة من التحذلقات الترانسندنتالية يقول « واما بالنسبة الى تيودور هرتسل ، فقد كان الرحيل من بودابست يمثل الوداع لمرحلة الصبا ، والصعود الى فيينا يمثل الطموح والرغبة ، ولقد كان هذان القطبان يتواتران في طبيعة تيودور من خلال اكتئاب استمده جزئيا من كتابه الاثيرين الى نفسه ، وجزئيا من شكوكه التي دارت حول الوجود الانساني ، ولعله سيكتشف في فيينا ان الحياة ، وهي محاطة دائما بهذين اللغزين الابديين اللذين لا حل لهما : الموت والفناء ، ستظل شيئا له غاية . » (ص ٥١)

وبنفس المنهج العذب يحلل لنا المستر ستيوارت مولد « رجل القوة » في نفس فارسه الصغير ، الشاب تيودور ، فيؤكد لنا باصرار بالغ ان تيودور لم يكن مصابا بالشذوذ الجنسي . وهو لا يقول ذلك ، بطبيعة الحال ، بمثل هذه العبارات الفجة التي نستخدمها ، بل يذهب الى ما اراد قوله من درب متوقرة بالعلم والاسماء الرنانة ، فيقول لنا دون ان يطرف له رمش ان « معاصر (هرتسل) ومثيله في الديانة (اي اليهودي مثله) سيجموند فرويد ، وقد اقام نظرياته عن النفس الانسانية على دراسته للمرضى من خلفيات شبيهة جدا بخلفية تيودور ، قال ان فترة المراهقة يصحبها عادة اتجاه الليبيدو (الطاقة الجنسية في المصطلح الفرويدي) نحو افراد نفس الجنس (اي عشق الرجل للرجل والمراة للمراة) . الا انه لا توجد اية آثار تشير الى وجود مرحلة كهذه في النمو العاطفي لتيودور . » (ص ٤٧) لكن مستر ستيوارت ما يلبث ان يحتاط كعادته . فسمعته ككاتب مدقق ليست اقل تاثيرا فيما يبدو من حرصه على عدم الخوض في السير المقدسة . ولذا فانه يضيف قائلا « .. وهو مراهق ، على الاقل » ! ويضع علامة هامش صغيرة بجانب هذا التحفظ تشير الى هامش منزو صغير في ذيل الصفحة يقول ، وكانه يقول « لكني انا لا شان لي ! » : « وقد وجد تلك الآثار محلل نفسي اخر (ومن هو المحلل النفسي الاول ؟ مستر ستيوارت ؟) فيما بعد في حياة هرتسل » ، ويذكر اسم العالم وعنوان كتابه . (٣٥) وعلى اية حال فان المستر ستيوارت ، مستشهدا برواية

(٣٥ هامش بذيل ص ٤٧ :
(* Another psychoanalyst has found them later in Herzlls life :professor Peter Loewenberg in « Theodor Herzl : A Psychoanalytic Study in Charismatic Political Leadership » pp . 182 - 183)

محسن أطيمش

ليلة المسافر

يتقدم ، كانت خطاه
سلسًا في الرمال الغريبه
تملأ الريح كفيه ، تنشر اشرعة حوله
انها ظلمة والمدى لا يبين ،
فيا ايها المتلفع بالليـل ، ليس سوى الليل مركبة
ليس غير الهواجس حقل ، فلا تتئد
ولتغذّ المسير ، فبين الضفاف وبين الخطى
زمنٌ ممطر كلّ ماء الصبابة ، بين الخطى
لغة (هل نقول الذي يكره الليل اعلانه)
ان امرا تأرجح وسط الغصون ، ارتدى خضرة
دون ان تعرف الأرض ، ثم تناثر في الرأس ،
صار طبولا تدّق ، وكنت تحدثني :
(آه لو يأخذ النهر صوتي الى المنتهى)
وكنت بعيدا ، فلم اتبين حديثك ،.. مرتجفا ،
كان كل الذين عرفت كسعف النخيل
انها ليلة راجفه
تلك مرثية العشب ، كل كسعف النخيل
ثابت بين قرع الطبول ،
وانت بدأت خطاك ، فيا ايها المتلفع بالليل ،
ليس سوى الليل مركبة
فلتغذ المسير ولا تتئد .

* * *

أيبتعد الماء ؟ هل اهتدي بالرمال ؟ اتمشي الرمال الى البحر ،
مثل السواقي ؟ ام اهتدي بالكلام القديم ،
ولي حكمة
كلما ارتجف الامر ، اعلن بدء الفناء
كلما تكبر الارض ، يكبر خطوي
والم شتات الزمان ، فايتها الريح ،
ايتها الظلمة اجتمعي
ان بين الاكف لمتسعا
والذي تعرفين
ساهر ، والضفاف ساهرة ، فاستقري
فما كل خطو بلا ضجة ، وما كل قول يضيع ،
فهذي الرمال صدى ، والمياه التـي تهرب الان ترجعية
ان أفقـي حقل الطيـور ، وفـي راحتي نبعهـا الابدي .

* * *

في الصباح رأته المياه
كان ممتلئا مثلها ، زرقة صافيه
والندى والطيور
تنشران الثياب الانيقة اشرعة
ـ : هل رأتك الحقول نبيا ؟
ان ما بيننا يتلون مثل الغصون
وها انت لون جديد
فمن أين جئت ؟
وكيف اهتديت ؟
قال لي :
اننا صورة واحده .

روبرت موزيل (Robert Musil) وعنوانها (Young Torless) التي تدور حول النمسا في ظل فرانتز جوزيف ، يقول لنا آسفا « ان تلك العلاقات ازدهرت ، بنفس الطريقة المؤلمة ، في اوربا الوسطى ، بقدر ما ازدهرت في بريطانيا او فرنسا » ! (ص ٤٧)

ومن هنا يذهب الى تصوير الشاب تيودور هرتسل بوصفه ابنـا مطيعا لاسرة متزمتة أخلاقيا من شعب متدين يعرف خشية الله . لكن الفتى « كمراهق ، عرف الاندفاق العارم للشهوات الدفينة ، فكـان صراع . » وفيما يبدو مما يرويه المستر ستيورات ، وجد تيـودور هرتسل حل الصراع في تأليه المرأة رومانسيا : « ان المرء لا ينبغي له ان يحول الفتيات من عذارى جميلات الى كادحات من اجل العيش مثلنا نحن الرجال . فالذي ينبغي هو ان يتركن ليخطون فوق المروج، ويقطفن الازاهر والورود ليضعنها في شعورهن » ! (ص ٤٨) والكلمات مـن مذكرات هرتسل ، اما المستر ستيوارت فيقول : « واذا ما كـانت رفيقة الشاب الوحيدة اخت فاضلة ، بات مثل ذلك التاليه شيئـا مفهوما . الا انه يمكن ان يكون خطرا . فبينما يوضع موضوع الحلم على قاعدة تمثال ، تزاحمنا المرأة الحقيقية بالمناكب في أوحال الطريـق . فالنساء كجنس يقسمن (في مثل هذا الضرب من التأليه) الى قبيلتين متناقضتين : الامهات والاخوات في الجانب الوضيء ، والمومسات في الجانب الوضيع . ومثل ذلك التقسيم اعداد سيء للزواج ومشجـع قوي على المغامرات المختلسة . لكن تلك المغامرات يصعب القيام بها في مدينة يكون الفتى الحالم معروفا فيها . وهكذا فانه لا يجد أمامـه الا القيلولة الخانقة والليالي الطويلة الخاوية ... ورويدا رويدا يواجـه الفتى بالاختيار الصعب : ان يستسلم للشهوات ، أو ان يكبح جماحها بصرامة . والبعض يستسلم . بيرون ، مثلا ، تحول الى دون جوان . ذلك طريق . لكن هناك طريقا آخر متطرفا . فالشهوات يكبح جماحها بحزام ضاغط . وبذا يولد رجل القوة . » (ص ٤٨)

لندن

محمود الريماوي

الجرح الشمالي

بعد وجبة الصباح ، شربنا شايا رائعا ، سائغا كما تحب يا احمد. لكنه توقف عند الكوب الاول ، وانسل من بيننا ، نحن المسافين ، ليقتعد هناك تحت المجوزة ، تحت الشجرة الهرمة ، قرب جذورها الضخمة القاهرة ومعه سلاحه مثل التلميذ معه كتابه ، او مثل الاب ياخذ ابنه عن الناس ، ويقول له في الخلوة كلاما . كان بادي التعب لا يزال ، تعب الحمية والاهبة لا الاعياء . جلس هناك يلتقط الانفاس ويسترجع اطيافا واشواقا غلابة ، وكنا نراعي جانبه ، بعد ان اسعدنا برجوعه . انه في ذهن رائق شفاف يليق بشبابه الغض ، وبه روح مضطرم يجيش هادئا في دخيلته . وكان هواء الصباح النظيف ، يشق فراغ الاغصان ويمر على وجهه ، لعله يذب احلاما تنوس وتنثال صامتة دقيقة في كيانه (هل كانت وجبة الصباح صعبة ؟ اقول ، بل هذه الحياة هي الصعبة) . ثبت سلاحه بالارض وجعله مستقيما ، كما يدرب الاب ابنه على الوقوف الثابت ويقيس قامته . واخذ ينظر ويديم النظر في المدى امامه . اي افق ؟ انت لا تعرف . ثم اخذ يقربه اليه، الى انفه (هل تفعل شرا ؟ لم افعل) كان يدفيه ويقصيه بجذب متواتر ، حتى احتفظ به على مسافة اقصر من طول ساعده ، وشدد قبضته عليه كما على يد الصديق في المحنة ، وكاد ينطق فالتفت الينا، ورأى بعضنا يبصره فتدارك ، ونهض الينا بابتسامة ، غامضة مختبئة.

- انها ساعة الصباح الاولى .
- مـا بها ؟

بابتسامة قصيرة جذلى :

- احبها . هل هناك مانع ؟

انتظر برهة قبل ان يجلس معنا ، ثم جلس .

- المهم تكون استرحت ، لم تأخذ على التدريب بعد .
- وهل هي اول مرة ، انت تقول ؟.
- لا اقول ، ولكنك انقطعت .

اطبقت غمامة على قسماته ، وذهب في شتات .

- وهل تحاكمني ؟
- نتحدث عن التدريب . لا عن محاكمات .
- ما به التدريب ؟
- فعلا ما به ؟ ماذا تقول .. أليس مثيرا ساعة الصباح الاولى ؟
- بلى . انك تبدأ نهارك بداية صحيحة .
- تبدأ من اول السطر . احمد قل بضميرك ، هل هناك مشكلة؟.
- لا ، ابدا .. ليست هناك مشكلة .
- ما الامر اذن ؟ .
- لا شيء حقا ، لا شيء . لكن ، كما لو ان له رائحة .
- رائحـة ؟
- في الحقيقة اني اراه مختلفا .
- هذا السلاح ؟.
- نعم . اراه زهرة برائحة نفاذة غريبة ، تغمرني . اسميها زهرة الآر. بي.جي.
- اهلين . سنتان ، زمان .
- صدقني . رائحة قاسية وحبيبة يا رفيق .
- كنا نعرف اننا لم نفقدك .
- والله زمان . لكنكم نقصتم ، ماذا اقول ؟.
- تقصد ازددنا ؟.
- آه حقا ، يا لضعف الملاحظة . لم اعرفهم بعد .
- هم يعرفونك .
- ربما لم يفعل احد مثلي .
- بعضهم ، وبعضهم سيرجعون .
- لـكن ..
- جميعهم يرجعون ونلاقيهم . الطريق واحدة لا تخطىء ، هل تفهمني ؟
- لا اعرف . هل من زيارة قريبة ؟
- هذا سبب وجودنا . ماذا نفعل هنا ؟.
- انني حاضر ومشتاق .
- لسوف تفيدنا الان ، اكثر . هلا نهضت ؟.

٢ -

في مساء اليوم التالي كان احمد يقف عند مدخل خيمة ، يشهد شجرة في الغروب . الشعاع الذي يتكسر على الاغصان . والحال ، انه لم يكن وحده منفردا . كانوا يلتقون للحظات ، يسالون سؤالا : ما معنى هذه الكلمة بالعبرية ، او هل الافضل ان اكون جائعا ؟ او يسدي احدهم نصحا ميدانيا : كن سريعا لماحا دون ان تنسى انها معركة طويلة . اطرد وهم القصيرة الحاسمة ، لان ذلك في مصلحتهم في جميع الظروف . ولا تتوقع الخطأ منه ابدا . لانه دائما في ظرف افضل . لكن الشباب كانوا لا يلبثون ان يتفرقوا . بعضهم يرجع الى خارطة ، او يخرج لاداء رياضة عنيفة . والبعض ينام ، ذلك النوم المستحيل ، حيث الحلم هو قوام النوام : حلم وذكرى وخيال انيس يستغرق الاعصاب والاصابع . يستثير الدم ، يخفق في الصدر وعلى الاهداب ، على الجلد وعلى بشرة الارض القريبة ، التي تظل تتنفس دون ان تنطق .

كان احمد يعرف ان هذه الشمس لا تغرب الا لكي تبزغ بعد وقت. وكان يعرف ان حياة اخرى سوف تضطرب تحت جلد الليل السميك ، وانه سيبصر منها نفسه البعيدة وقد اقتربت ، نفسه المعلقة وقد هبطت ، ولسوف يلمس المعنى الضال ، الذي يذوب في اشعة الشمس ، ويحوم غامضا في الظل . وحين استدار الى الداخل بحركة عصبية متوفزة ، كانت قد بلغته في النهاية تلك الرتابة الكامنة في المشهد . ان ثمة ابدية لا تحفل بهذه الالوان الخادعة ، وهذه الايحاءات الرثة ، فالوقت يتعاقب ، والحياة لا تتوقف ، ولا تعطي اية مكافأة .

هكذا بدا احمد عصبيا . وقد اخذ يصغي لاغنية صاحبة من الترانزستور ، حتى يدفع عنه لوعة مباغتة اشرأبت في روحه ، فاغلق الصوت ، رجاء صمت يسمع فيه نبض روحه المغلول . انها ذات اللوعة دائما ، في مثل هذا الموقف دائما . في الصغر كان منظر الحلوى التي يحبها يقترن بالحزن ، يضع في قدمه حذاء جديدا فيصاب بتعاسة حتى الخجل ، يخرج الى العيد باكرا ، خوفا منه لا شوقا اليه ، ويقضي كل وقته في تعب متصل لكي ينسى . والان رغم بعد الشقة ، ورغم الرجولة ، ها هي الحالة تتكرر . يسمع صوتا ولا ينتبه، تدخل ريح فلا يمنعها ، يحب رفاقه ولا ينهض اليهم . آه ايها الوطن، لم تكن مرة واحدة ومع ذلك اراك تتكرر ، ويستغربون . لم تبق غير ساعات ، سيان ، لم تبق غير حياة واحدة ، اي موت واحد . سيان. الوطن والسجن والمنفى ، واحد .

هل تأتي يا احمد ؟ اتبعك . هل تتأخر ؟. لا اتأخر .

في هذا اليوم السادس من حزيران . كان الجند الاعداء يقتربون من بيتنا ، من هذه الخيمة ، في القدس . كانوا يضغطون على يفاعتي بموت فجائي حاد ، لا شيء بعده . وقد ذهلت ، وان رغبة في حياة اخرى ، في حياة اولى لم تبدأ . قد اندلعت في روحي . رأيتها في تلك اللحظات الرهيفة مفتوحة مفعمة بالاحتمالات . بالرغم من انه لم يكن هناك اختيار بالمعنى الدقيق . امام ذلك الموت المجاني الانطفائي . وفي عمان تبدى لي الامر على صورة كابوس ، ان اهانة قد لحقت برجولتي المبكرة ، مع اني لم افعل ما هو مهين . هرولت من الجبال المقدسة الى الاغوار التاريخية الى جبال صحراوية ، بشفاعة ان افهم. ولا ريب ان ذلك كان قاسيا ، وان الثمن كان باهظا . وحين بدأت افهم في شارع المهاجرين ، في زحمة بشر ملتاعين ، يدفعون عنهم مصيرا اخرق ، ويتكدسون في غرف المدارس اخلاطا اخلاطا دون موت جميل دون حياة قليلة . وقد تعلقوا جميعا بحبل مؤقت ، خسر ورجراج ، عرفت اني في الكابوس ، وانه قديم العهد . ولم اقرر ان ادخل بيتي المحترق ، ولكني فعلت مع الجموع . تعمدت في الشريعة كثيرا ، في غطاس الشعب ، لكي يمسكوني قبل ان يجف ثيابي ، ولم يفعلوا غير توبيخ الطفل . وفي المرة الثانية عبرت مخاضة ، محاذرا الماء الاخضر الغريق ، لكي اصل الى مشارف اريحا ، الى شجر غفير. لكنهم صادفوني في اول شارع . كثيرون غيري نجحوا في الدخول ومن المرة الاولى ، دون مشقة تذكر . احتفظوا بي يومين ، ثم اطلقوني وراء النهر ، وهم يقولون : هذه ليست طريقة صحيحة ، فوافقتهم الرأي .

الموقف السياسي يقتضي اسلوبا عسكريا مناسبا ، كان نشغل فواتهم اطول فترة ممكنة عبر انتشارات مديدة ، حتى لو كلف الامر تجنب الاشتباكات . لاننا نخوض معركة طويلة على امتداد الارض ، ولا نخوض مبارزة قصيرة في رقعة ضيقة . (هل تقصد ما افهمه ؟ نعم ، افهم ماذا تقصد ، شجر لا يرحل) . ما السبب ايها الصليب الاحمر ؟ لا سبب ، سوى ان الوقت لم يحن . كانت منظمة الصليب الاحمر قد اعلنت ان باب العودة مفتوح للنازحين . خرجت من طابور بائع الفلافل ، والقروش في قبضتي ، دفعتها لاول سائق تكسي ، وفي مدرسة الفرير وجدت الباب مقفلا . طردوك حتى يعيدوك ؟ لا لكي يطردوك . وحسب ، لماذا كثرة التأويل ؟

كان يجب ان لا نتركنا . انا قادم اليكم .

وكان يجب ان انتظر قانون لم الشمل . لكي ادرك اني بلا عائلة ، بدون من يشملني . اشملني برجائك . هذا اليأس قديم عريق في عمر الوطن . من يعترض ؟ يقتلك اليأس ويتواطأ عليك الامل ، فلا تعرف ايهما الذي معك او ضدك . غير ان هذه ليست المسألة . انني لست نائما . وليس هي الليل قمر ، وانا لست قيس ، وهذا الليل ليس اعمى ، ولم تخرج انت ولا انا الماء ، والقبور تحركت قبلنا، والزغاريد الاولى هي من يؤنسنا . لو لم تسمعها هل كنت تقدر على الصمت، فاخفض صوتك ، وارفع رأسك ، ولا نرجع الى الوراء حتى لا تسقط ، واذا ذهبت الى امام قاعير ، تتعرف في أي ارض تموت ، حتى تمنع عنك لعنة الفناء ، ولا ينقطع من بعدك خيطك .

من الذي انقطع ؟ كانت الشام ابعد من الصين . كانت اخلاقي تنزل كل يوم ، وانا انزل الجبل الى العاصمة التائهة العاصية. ولكني كنت استعيد كل اخلاقي وادبي امام اول صاحب مطعم . كنت اطوف في ذات الشوارع مثل بغل ، حتى تصدق اقدامي اني امشي ، ولكي لا ابتعد . هذا السلاح النائم هو نفس الحلم النائم الى جواري وفي سريرتي في تلك الايام الكلبية . نفس صورته وطيفه ، فماذا تبدل . ان احدا لا يغير اسمه ولا يستبدل جلده ، وليس في ذلك ايها الخرافيون ، معجزة . هكذا يفعل البشر جميعا ، هكذا تتكلم الاوطان، هكذا تفعل الاوطان بالبشر جميعا . اية معجزة . هذا السلاح حمل ابي مثله ، وجدي من قبل . وابوك انت وجدك . لماذا تنسى ، ولماذا تريد ان تقتطع النهر ؟ انا « اسير النهر » وانت . وعندما حملته اول مرة، كان يجب ان افعل ، فقد نضجت وبلغت الرجولة . ربما لو فعلت ذلك من قبل لكنت اخطأت . جمعت صورهم على الحائط ، ثم ترجلوا عن الحائط واندفعنا معا . كنت قادرا وفي تمام الشوق فلماذا اتأخر ؟ كان الشوق يفرع ويرتل في بدني ، وكان يجب ان ابارك رجولتي . لا تصدق ان الحجاج يفدون اليها لانها مقدسة فقط ، بل لكونها جميلة حتى العبادة . تستدرجك على الابواب لتأسرك عند اول مرتقى . هل سنتكلم عن القدس الان ؟.

بقيت ساعتان ، لكنها حياة واحدة وموت واحد . عندما وضعته ــ انت الذي يلتفت الى الوراء . لم يبق احد لم يضع قدمه، جميعهم يرجعون ، فهل تريد ان نمنعهم ، هل يريد احد ان يمنعني ويمنعك عما ننوي ان نفعل . عجائز رجعت بعد اسبوع . صديق ارمني رجع الى القدس قبلي ولم يفشل مثلي . بعضهم رجعوا مع الصليب الاحمر اياه . وبعضهم دفع رشوات الجنود . رجعوا بقانون لم الشمل. بعضهم رجع من كندا باذن دخول وهبط في مطار العدو ، ولكن على ارض هي له وليست للعدو . رجعوا ايضا بتصاريح : انت زعلان ، ما عليك ، اعرف موطىء قدميك بعد قليل ، ولا تقل ان الطقس بارد .

بعد عشرين شهرا ، بعد كم زيارة ؟ انت تعرف . بعد ايام سوداء ، بعد موت عميم ، ليس سعيدا بالتأكيد . تطلق النار وسط اهلك ، فهل تفويهم . هكذا جربت نفسي بدون هذا السلاح ، مثل الاعزب بعد زواج . جربت الحياة على الهوى ولم انم . نعيش هفهافا طافيا هكذا . تعرف ان يدك فقدت كثافتها ، وناخذ العزاء من وجوه حزينة مصلوبة حولك . ويحضرني الكابوس . ونبلل اقدامي موجة طاغية رقيقة لكنها لا تاخذني ، فتقدم اليها الان .

٣ ــ

تقدم الان . يتقدم احمد ، لكي ينفذ اجراءات الدخول . ويشد بطاقة الزيارة ، البطاقة التي لا تبطل ولا تبلى . توزعوا يا شباب . هنا وهناك ، لا اسراف في الذخيرة ، فنحن لا نحتفل بابن المختار ابو الشوارب .

اين انت يا احمد ؟ في الربع الساعة الاول ، اخوض حربنا

في جميع اللغات ، بجسد واحد ، عبر طريق متعرجة ، تعطيك الدهشة والشوق ، وهي خرساء ، اوافقها بجميع اللغات وهي خرساء . سوف نقطع مسافة طويلة قبل ان نبلغ او نفعل شيئا ، من اول فلسطين الى اخر دخول .

سوف اكمل لك ، نحن في صدد واحد . كنت اعرف انهـا لن تحملني ، ومع ذلك استخدمت الورقة العبرية . لماذا نهرول ، هـل اختلفت مع عقلك ؟ وضعت الورقة في جيبي ودخلت الجسر الخشبي مع الجموع . اول مرة ؟ سالني الضابط . انه لا يعرف . اذن ليكن : اول مرة . بدأت بزهر الليمون العاصف ، بأريحا تستحم في الشمس والتاريخ . وقلت : دخلت . هذا هو الارب . قلت رجعت . هذا هو الحق . لان الواحد يسافر ويرجع ، يخرج من بيته ويرجع اليه فهو سكناه . ذات يوم رأيت عمتي تحضر الينا الى بيت عمي ، بنقود وجبن وزيتون وحلويات . خالتي تهيء الطعام في المطبخ وعمتي تقول لها دعي عنك فاحمد مثل ابني . عمي يتحدث عن غلاء الاسعار في عمان، وخالتي تجمع ثيابي ودموعها في حقيبة واحدة . ما بك يا احمد ؟ لا شيء ، سامحكم المولى . طعامك يتهيأ بعد قليل ، لعلك تذكرنا . اذن ارجـع في الموعد . برد الطعام ولم ارجع . ذهبت اطارد الارض ، ادقها بقدمي ولهفتي . انا هنا ، ولا تسمعني الخرساء . وبقية القصة هم يعرفونها، هيا نبدأ .

٤ ــ

تعتبر مستوطنة المنارة في الجليل الاعلى ، من اهم التحصينـات المتعددة من الناحيـة الاستراتيجية ، لاشرافها على القطاع الاوسط من جنوب لبنان ، ولحساسية موقعها العسكري ومواءمته ثانيا ، حيـث يعتمد العدو عليهـا في النجدات السريعـة للمستعمرات الاخرى فـي نفس المنطقة . وثالثا لارتفاع الكثافة العربية فيها .

هذه المستعمرة هي التي قام الثوار الفلسطينيون باقتحامها،حيث زرعوا عبوات ناسفة في احد المستودعـــات التابعة للتجهيزات العسكرية ، وقد انفجرت العبوات في الوقت المحدد : الرابعة صباحا. وعلى الاثر دفع العدو بقوات كبيرة ، بينمـا انتشر الثـوار في المنطقة في مواقع عديدة حيث يخوضون اشتباكات متفرقة متتالية مع قـوات العدو وفق الخطـة الموضوعة ، والمبادرات القتالية ..

٥ ــ

هذا غروب اليوم الرابع . امامي ارض منبسطة خضراء وشعثة ، خلفها سلسلة جبال متداخلة تتلوهـا غابة تمتـد الى اخر المدى المشهود، والى جواري صخرة مفردة اسميهـا صخرة المتكـا . تغيب الشمس الان، بحركة انزلاقيـة ، ويسيل الليل على بدنـي ، ويمتـزج بشهواتي . تتراءى الكائنات الجامدة حولي ، باشكال ذات جاذبية طاغية . واكون وحيدا مع هذه الخرساء . اقول يربطنـا جرح واحد ، دم واحد بلون هذا الفسق ، ويضغط علي الجرح ، تناديني حفرة قريبة ، لها شكـل حوض او مهد ، كثيفـة نباتاتها ، اسود كامد جوفها . ادفع عني هذا النداء ، واصغـي .

ــ تأخـرت .
ــ لم تبق الا خطوات اخيرة .
ــ هل انت جريـح ؟
ــ لا ، انني خفيف في الرياح الطلقة، بدون صعوبة .
ــ حائر النهـار .
ــ المكان ماهول هنا في مصارع العشاق . ولم اكن يوما الا وحيدا .
ــ اين انـت ؟
ــ انا ؟ في الجرح الشمالي .
ــ هل ترجع اليـنـا ؟
ــ رجعت اليهـم .
ــ ماذا تقصد .
ــ اني وحيد مثلها ، نليق ببعضنا .
ــ هذا خطـأ .
ــ الدم لا يخطيء ، لا ينقطع اذا احببت .
ــ هل ترجع الينا ؟.
ــ انت تعرف ..
ــ ماذا تقصد ؟
ــ اقصد ما تفهمه .
ــ اين بقيتكـم ؟
ــ في المصير قرب الاشجار . وهناك يبحثون عنك .
ــ كانت المعارك صعبة ؟
ــ لم تكن . قابلنا اشباحا من رصاص ، ومضينا ، كانت حياة صعبـة بطيئة ضيقة باطلة ، يليق بها الزهو والنسيان .
ــ والنتيجـة ؟
ــ انتشار مديد في اربعة انحاء الجرح . اقامة ابدية ،هذا يكفي .

اخذ الصوت يتساقط ويضمحل في فراغ الليـل . واحمد يتوغل في الداخل يستحثه جرح في اعلى الساق ، ويضم سلاحه الى صدره، كما يضم الحاج زوادتـه . تتجدد خطاه وتتابع ، بايقاع الانفاس المتقطعة الحرى ، مثل طفل يختال بخطاه الاولى ، مثل عجوز يحتفل بالقدرة الباقية على المشي . ومع اول شحوب النهار ، كان يطوف بين سلسلة جبال متداخلة متباعدة تبدو على هيئة بشر اسطـوريين ، متصلبيـن مضطجعين : كـان وحيدا مثل نجمة الصباح . وفي نهايـة المشهد ، يتحرك جيش من الشجر ويمدح في عنف سري متعال اخضر . واحمـد يطارد شهـوة كثيفـة عاصفة ، تأخذه اليهـا وتلفحه، ويستجيب ..

وهذا يكفي .

الكويت

عبد الجبار عباس

« كرنك » نجيب محفوظ : رواية هابطة ...

(الكرنك) رواية نجيب محفوظ الاخيرة هي الخطوة الثانية في الانعطافة السلبية الغريبة التي بدأت برواية (حب تحت المطر) ... فبعد شوامخه الواقعية التاريخية الباقية ، وبعد عطائه المجدد ابان المرحلة الفلسفية السيكلوجية ، تأتي الروايتان الاخيرتان نقطة هبوط مفاجيء في الخط البياني لرحلة نجيب محفوظ الروائية ، حتى لتعجب كيف ارتضى الكاتب الدؤوب الخبير بوضع الحقيقة الشاملة المستفيضة في بناء يوازيها دقة وعمقا وضخامة ، ان ينقلب العمل الروائي لديه الى لعبة صغيرة جاهزة ومكررة ، سلسلة مجازات معادة يتراجع فيها الابداع ازاء الحرفة التي لم تعد متخفية متكتمة ، بل ولم تعد تثمر بناء متماسكا منضبطا يتطابق مع الموضوع تطابقا لا ثغرة تفسده ، ولا حواشي تثقل اطرافه المتراخية الباردة .

حقا انه ما زال على طريق الغرض الكبير ذاته : ان يواكب حركة الواقع ويلم بابعاده في صورته الشاملة ومساره التاريخي ، لكن هذه المحاولة لم تعد تتحقق الا في انجاز روائي باهت وصغير لا يرقى الى مستوى الغرض ذاته ، ويعجز بالتالي عن ان يكون شهادة عميقة وصحيحة عن الواقع ... فنجيب محفوظ في (الكرنك) يختار المقهى، بدلا من البنسيون او العوامة ، مسرحا يجمع بين عدد من الشخصيات الممثلة للاجيال والطبقات المصرية ويقيم بينها سلسلة من العلاقات العضوية والمفتعلة لتكشف عن رؤية المؤلف لمسار الحياة العامة خلال العقدين الماضيين من تاريخ مصر الحديث ، وهي رؤية تتذبذب بين الولاء لهذه الفترة والاعجاب بابرز مزاياها التاريخية ، وبين فضح لما رافقها من اخطاء ومثالب تضافرت على اطفاء جذوة الامل والايمان الثوري في صدور الشباب الوطنيين الذين يمثلهم في الرواية اسماعيل وزينب وصديقهما حلمي حماده ، فقد عانوا من الفترة التي آمنوا بها وارخوا ميلادهم بميلادها مظالم غير مبررة ولا معقولة فسجنوا وعذبوا واستخدمتهم اجهزة القمع والتسلط مخالب ذليلة في قبضتها العاتية، فساد الايمان الحقيقي بقوة التسلط والخوف الذي يستهلك الروح والشعور بالسقوط المفضي الى الاستهتار بكل شيء .

ان توزع المؤلف بين الاعجاب والفضح ، بين الاعتراف بما حفقته فترة ما قبل حزيران من انجازات حضارية متقدمة ، ولمس ما انطوت عليه تلك الفترة من امتدادات التراث الوحشي المنحدر من عهود الطغيان الاسود هو عنوان الرواية ومحورها : (وترددت طويلا بين انبهاري بالعظمة ومقتي للفزع والارهاب . ص ٣٤) ، لكنه بدلا من ان يكون اساسا للعمل ، او بذرة للموضوع الخصب ، او مسارا دراميا لحركته الداخلية ، فقد بقي مجموعة ملاحظات متناقضة تتناثر هنا وهناك بعد كل مرحلة من مراحل الحدث ، او تعليقات خاطفة اقرب الى الهوامش والاستنتاجات العابرة ، ذلك ان الحدث في الرواية لا يمت بأدنى صلة الى (العظمة في تولدها وامتدادها) والتي يدعونا المؤلف الى ان نتذكرها اذا ما تذكرنا الحياة الزاخرة بالآلام والسلبيات ، فهو مثال على تسلط وامتداد الجاهلية الرذولة الغامضة وقد تضاعف جبروتها، (فلم يخل احد من رواسب الذل والهزيمة والخذلان . ص ١١) .. وما عاناه بطلا الرواية جزء من (الحقائق المرعبة) تبوح بها القلوب المغلقة المنكسرة للمؤلف ، الشاهد ، الراوي ، الذي يجهد ان يقيم توازنا مفتعلا بينها وبين ما يتطلبه (انشاء دولتنا العلمية الاشتراكية الصناعية التي تملك اكبر قوة في الشرق الاوسط) من آلام ينبغي تحملها ، فهي (ليست الا النفايات الضرورية التي يلفظها البناء الضخم في شموخه .) . ان الرواية تفتح امام القاريء ثغرة اساسية لا تفتحها الاعمال الكبيرة الناضجة ، فهي بدلا من ان تطرح الحقيقة الشاملة في اتساعها وتعقدها وقوة الصدق فيها ، تمسي مجالا لآراء وتقييمات

شخصية يمكن مناقشتها او رفضها لما تنطوي عليه من تناقض لم يبذل الكاتب جهدا لاستثماره كمادة درامية خام يمكن ان تضاعف ثراء العمل، بل ظل ثمرة الترجح بين طابع الشهادة المعنية بالحقيقة ، والنزوع الى التبرير الذي يتسد هذه الحقيقة حين يلتمس للطغيان عذرا ، وللفتلة فكرا ، وحين يسيم مقاربات تاريخية غير واردة : (هل عرفنا ما كان يعانيه سكان الحارة في القاهرة عندما كان صلاح الدين يحقق انتصاره الحاسم على الصليبيين ؟ هل تخيلنا آلام اهل القرى المصرية عندما كان محمد علي يكوّن امبراطورية مصرية ؟ هل تصورنا عصر النبوة في حياته اليومية والدعوة الجديدة تفرق بين الاب وابنه والاخ واخيه ، تمزق العلاقات الحميمة وتحل العذاب مكان التقاليد الراسخة، وبالمثل الا يستحق انشاء دولتنا العلمية الاشتراكية الصناعية التي تملك اكبر قوة في الشرق الاوسط ، الا نستحق ان نتحمل في سبيلها تلك الآلام ؟ وكنت اشعر طيلة الوقت بانه يمكن ان اقنع نفسي بضرورة الموت وفائدته بمثل هذا المنطق . ص ٢٠) .. فمن حق القاريء ازاء اسئلة كهذه ان يشير الى التباين الجوهري بين عهد النبوة او عهد الانشاء الحقيقي للبناء العلمي الاشتراكي ، وبين مصر الخمسينات والستينات ، ذلك التباين الذي تكتسب به التضحيات والآلام معنى ودورا تارة ، أو تمسي مجرد علامة ادانة واتهام لزمن (القوى المجهولة وجواسيس الهواء واشباح النهار ـ ص ٢٢) تارة اخرى ... من حق القاريء ان يقول : لا شيء يبرر قتل الانسان في ابناء الثورة وجنودها فلا يعود الواحد منهم سوى مخبر ذي (مرتب ثابت وضمير معذب ص ٦٣) ، ولا يملك اذ تتكرر طعنات البطش (اي تساؤلات ولا عنفا في ردود الافعال ، كالعادة ـ نفس الاسباب ـ نفس النتائج ـ لا جدوى من التفكير . ص ٣٦) . والرواية بمنطقها الفني مكرسة دون ريب لادانة هذا المسلك الدموي اللامبرر ، لكن المؤلف بمنطقه الفكري الخاص ، وبسبب توزعه بين الادانة والتبرير ، يعد آثار ذلك المسلك (نفايات ضرورية يلفظها البناء الضخم في شموخه ـ ص ٢٠) ، لذا تأخذه الحيرة بشأن وطنه ، فهو (رغم انحرافاته يتضخم ويعظم ويتعملق ، يملك القوة والنفوذ ، يصنع الاشياء من الابرة حتى الصاروخ ، يبشر باتجاه انساني عظيم ، ولكن ما بال الانسان فيه قد تضاءل وتهافت حتى صار في تفاهة بعوضة ، ما باله يمضي بلا حقوق ولا كرامة ولا حماية ، ما باله ينهكه الجبن والنفاق والخواء . ص ٢٨)، ولئن كان جواب هذا السؤال لدى الكاتب هو ان هذا التضاؤل جزء من آلام التحول ، وتلك التفاهة جزء من ثمن النصر ! فانه حين يلتفت الى آراء شخصياته فانها تهمس بالحقيقة الاصدق والملاحظة الاكثر صوابا وشرعية : (يقولون اننا نعيش ثورة يستوجب مسارها تلك الاستثناءات ، وانه لا بد من التضحية بالحرية والقانون ولو الى حين ، ولكن مضى على الثورة ثلاثة عشر عاما او يزيد ، فآن لها ان تستقر على نظام ثابت . ص ١٩) .. الم يكن هذا المطلب العادل ، هذا الطرح الصحيح للقضية ، جديرا بان يحمل المؤلف على تنقية روايته من التماس المبررات المفتعلة لما يعده استثناءات او اخطاء في مسيرة ايجابية صاعدة ، وما قد يحق للقاريء ان يعده الثمرة الطبيعية لجوهر المرحلة ذاتها .. فالقتلة في (الكرنك) ليسوا بناة تحول عظيم اخطأوا في غمار العمل ومصاعبه خطأ هينا فداسوا هذه الضحية او تلك عبورا الى تحقيق هدف جليل يمكن ان تتضاءل بعد بلوغه الاخطاء او حتى تغتفر ، اذا ما قورنت بضخامة الانجاز الحضاري الجديد، لكنهم صنائع العرش والاقطاع يواصلون (نشوة تقليد الآلهة) لصالح اقطاع الطبقة الجديدة :

(نحن في زمن القوى المجهولة وجواسيس الهواء واشباح النهار،

وجعلت اتخيل وأتذكر ، تذكرت ملاعب الرومان ومحاكم التفتيش وجنون الاباطرة ، تذكرت سير المجرمين وملاحم العذاب وبراكين القلوب السود ومعارك الغابات ... وعندما يلفنا الظلام او تسكرنا القوة او تطربنا نشوة تقليد الآلهة فانه يستيقظ في اعماقنا تراث وحشي ويبعث فينا العصور البائدة .. وظلت معلوماتي ترتكز على الخيال حتى اتيح لي بعد ذلك بسنوات ان تفتح لي القلوب المغلقة في ظروف جد مختلفة وتمدني بالحقائق المرعبة وتفسر لي ما غمض علي فهمه من الاحداث في ابان وقوعها ص ٢٢) .

تلك واحدة من ملاحظات عابرة ، او اشارات طارئة ، لو كان الكاتب سعى الى ان تكون مركز العمل ينهض البناء على اساس منها ، وتتردد اصداؤها في اطرافه ، لكانت (الكرنك) مما يستحق المقارنة مع روائع نجيب السابقة ، والانتساب الى تاريخه الروائي الحافل ... فما فعله نجيب محفوظ انه اختار من هذه (الحقائق المرعبة) مثالا : معاناة ونهاية عاشقين امنا بالثورة ، فكانا ـ دون سبب او عزاء ـ ضحيتين لبطش لا مبرر له فتك بهما حتى (تسلل مرض مجهول الى روحيهما فبانا غريبين او كالغريبين ، حتى بت اعتقد انهما واريا حبهما القديم التراب ، وان كليهما قد استقل بحياته واحزانه . ص ٤٢) ، ثم احاط هذا المثال بمجموعة آراء متناقضة ، تدين الجريمة تارة ، وتعدها امرا طبيعيا او ضروريا في مراحل التحول الحضاري ، تارة اخرى .

ان قصتي اسماعيل وزينب بين الفقر والحب والسجن والخيبة خطان متشابهان يضمان في سابكهما وعلاقتهما بنهاية حلمي حمادة قصة قصيرة مستقلة شبه معزولة عما حولها من شخصيات واجواء يمكن ان تكون ديكورا : قصة الحلم الكبير والامتحان الصعب والنهاية الاليمة التي جاءت مع هزيمة حزيران .. وحتى علاقتهما بصديقهما حلمي حمادة ممثل اليسار في الرواية لم تلتحم في بناء روائي عضوي ، لان حلمي حماده كان له قصته القصيرة المستقلة مع الشخصية ـ الرمز: العجوز قرنفلة ، الراقصة القديمة وصاحبة المقهى تنطوي شخصيتها في الروايه على ايحاءات رمزية بمصر ذاتها ، فمنذ ان استهوى الكاتب ان يلتفت النقد الى الشبه العفوي بين مصر الحرب وحميدة بطلة (زقاق المدق) في ضياعها وآمالها وسقوطها ، وهو يكرر هذه اللعبة الروائية المرة بعد الاخرى : زهرة في (ميرامار) ، عليات في (حب تحت المطر) ، سمارة في (ثرثرة فوق النيل) . ان الهوية البسيكلوجية لقرنفلة تتكفل ، منذ الضربات الاولى ، بفضح الوظيفة الرمزية لها : (انطفأ سحر الانوثة ، وجف رونق الشباب ، ولكن حلت محلهما روعة غامضة واسى مؤثر . ما زالت نحيلة رشيقة يوحي عمودها بالنشاط والحيوية، وثمة قوة مهذبة مكتسبة من التجربة والعمل ، اما خفة روحها فآسرة نافذة . ص ٤) ، ويحقق الكاتب عن طريق علاقتها بحلمي حمادة : حبها له ، واعجابها به ، وقلقها عليه ، رؤيته السياسية المتكررة : ان الخلاص والكرامة في انفتاح مصر على اليسار الذي يتحمل احيانا مسؤولية ابتعاده عن مصر التي تعشقه .. ومصر ليست (قرنفلة) فقط، بل هي (زينب) ايضا ، فلا بد اذن ان يميل قلب هذا الفتى الرشيق الوسيم الشجاع الثائر على التقاليد ، الى زينب ايضا : (ولم تكن جاذبية قرنفلة موضع شك عندي ، فقد وقعت انا نفسي في اسارها ، ولكن هل يكفي ذلك لاعدل عن ظني القوي فيما يتعلق بحب حلمي حمادة لزينب ـ ص ٤٩) .

ان معاناة زينب تكرار شبه ميكانيكي لمعاناة حبيبها اسماعيل، وان اختلفت بعض التفاصيل ، فهما ابنان نموذجيان للبرجوازية الصغيرة : معاناتها ، ضعفها ، احلامها ، سقوطها .. وعلاقتها بالشخصيات الاخرى تكرار حرفي لما قدمه نجيب محفوظ في (زقاق المدق) و (ميرامار) مغزى ودلالة .. فالجميع يطمعون بها ، وعلاقة الاخرين بها مرآة تكشف جوهر اولئك الاخرين ... هكذا يشاركها اسماعيل حياتها الفقيرة المحبطة ، ويخفق لها قلب حلمي حمادة ، ويطمع بها بعد سقوطها عم حسب الله عشيقة لا زوجة ، وزين العابدين عبدالله (مسرة يتسلى بها) .. تلك هي الاداة الجاهزة المكررة الاخرى ، فاقتران الفساد السياسي بالسقوط الاخلاقي (تيمة) اساسية طالما تكررت في روايات نجيب السابقة منذ (القاهرة الجديدة) وتفرعت عنها مواقف وتصرفات شخصياته الروائية ، هكذا يكون سقوط زينب واحتراف امام الفوال الجرسون وجمعة مساح الاحذية ، القوادة بلا حياء ، تعبيرا عن الانحراف السائد ونتائج طبيعية له .

ليست (الكرنك) سوى مجموعة شخصيات او نماذج تقدم عبر مجموعة حيل روائية مكررة : تلك طريقة كتاب الدرجة الثانيةالمحترفين: عبد القدوس ، السحار ، السباعي ، ومن يشابههم في القصة العربية: يجمع الواحد منهم خلال عمله الصحفي او الوظيفي (عينات) مختارة اق طريفة او نموذجية او ممثلة لقطاعات اجتماعية ، ثم يعمد الى الجمع بينها في عقدة او حدث او سلسلة علاقات تتنامى تارة في مسار درامي او تنحرف الى تلفيق ميكانيكي اخرى ، ويبذر المؤلف خلال ذلك بضع معان او آراء او افكار مدخرة . و (الكرنك) بين هذا اللون من الكتابة الروائية اقرب الى مجموعة تخطيطات صحفية حملها الكاتب حملا على ان تجتمع في كتاب واحد .

يختلف الفصل الاول المعنون (قرنفلة) عن الفصول الثلاثة اللاحقة المعنونة باسماء ابرز الشخصيات : اسماعيل الشيخ ، زينب دياب ، وخالد صفوان ، في انه يبدأ بالحديث عن ماضي قرنفلة ، ثم يصبح [illegible] في المقهى [illegible] قرنفلة واحده من المجموعة ، ويمسي تناول الكاتب اقرب الى السرد المقتصد المألوف .. اما الفصلان الثاني والثالث ، فمعالجة الكاتب فيهما اقرب الى الريبورتاج الصحفي : يتولى هو دور الصحفي الشاهد : يسأل ويعلق ويصف ... ويتولى اسماعيل وزينب رواية الاحداث بطريقة باهتة باردة متعبة لا فرق فيها بين اللحظات المشحونة المتفجرة والايقاع العادي للايام العادية .. واما الجزء الاخير الخاص بخالد صفوان ، والذي كان ظهوره مفاجئا ، فقد كان مزيجا من الوصف والاعتراف ، ويحكمه منطق فكري غريب لا حدود فيه بين الفهم والتبرير ، الاستغوار والاحتضان .. ها هو الجلاد القاتل ليس فقط ضحية لاغراء الكرسي الذي يشع قوة غير محدودة، والذي افترس براءة القرية ووطنية المدينة ، فاحال الثائر في الظلام الى (جرثومة كامنة تدب فيها الحياة . ص ١٠١) ، بل هو مفكر واع ومسؤول يملك تفسيرا سياسيا شاملا للواقع ، ويقترح ـ على ضوء تجربته الخاصة الخصبة ـ مبادىء تعلمها في اعماق الجحيم ..

ولكن الباب المضيء لا يفتحه الجلاد صفوان ، بل تشير اليه دمية قصصية جديدة واخيرة : منير احمد ، ممثل الجيل الجديد ، جيل ما بعد النكسة : (ثمرة لم تكن متوقعة ، فمن ظلام شامل انبعث نور باهر كانما تخلق بقوة السحر . ص ١٠٦) .. فبسبب ان الروائي الكبير لا ينبغي ان يغلق مسالك الامل امام شعبه وشخصياته الروائية، فتكفر (باول تجربة وطنية خالصة جاءت في ختام سلسلة من عصور الذل والاستعباد ص ٣٨) فاي ضير في ان يحلم حلما جميلا لا نصيب فيه للحقيقة الكالحة التي يغمض نجيب محفوظ ، اول مرة ، عينيه عنها ؟ اليس التطلع الى افق الخلاص حق للكاتب وواجب قومي عليه ؟ هكذا ينبثق من اعماق الجحيم (صراط متوازن بلا انانية من جهة ولا استغلال من الجهة الاخرى ليتحقق للحب النقاء والبراءة . ص ١٠٩) .. ويا له من صراط يمده صنيعة وضع فيه نجيب حلمه ورؤيته السياسية ، فهو : (يحترم الدين واليسارية معا ، لا عودة للتراث ، ولا اتجاه نحو الحضارة الغربية ، بل اصالة تكمن في الذات ..) وبها سيحل يوما محل حلمي حماده ويواصل طريقه ، فتحبه مصر : قرنفلة .

ذاك هو الخلاص البهيج يسوقه حلم مقحم ومفتعل يفضح حيرة الكاتب وتعبه ، حيرة يشي بها السؤال : (لم ادر كيف يمكن ان يتطهر من الحشرات ذاك البناء الشامخ ـ ص ٣٤) ، وتعب يبوح به اعترافه بان (من العبث ان تحاول الوصول الى منطق ثابت من خلال عاصفة ـ ص ٨٨) .

بغداد

لقاء مرتجل في حلم

احمد يوسف داود

- ١ -

- قل لي : اتعرف من يغادر ... هذه الساعه .،
الليل منطفىء .. ورعبنا .
علام اراك متشحا بارديه من الصمت ؟..
اصباع من الكلمات ؟..
تاريخ من الصمت والدمع الطويل ؟
قل لي : أتعرف من يغادر : اين .. ؟؟
هل هذا اقتناص خائر بحلم ام ظما بدين ؟
قل لي ، اراك وكل نافذة تنام ، وكل ضوء يستقيل ؟
وادن علام اراك ؟ هذا الليل منطفىء ...
وبين اكفنا جرح التواصل .. هذه الساعة!
فمن المسافر ؟..
لو ملئت دما لاحرقني ... لاشعل هذه الكلمات ...
واحترق الحساب ؟
قل لي : تحن الى ارتعاشة ذلك الوجع الذي اخترناه ؟!..
كيف انهار فيك الصوت والدم والشباب ؟
انا نسافر كل ثانية ! مصادفه يلاقينا الاحبه في سواحل غير هادئة ...
مصادفة نحل قلادة الذكرى
نعيد تعانق الاشياء ثانية ..
ونختبر الهوى !
وعلى المواعيد الجميلة نستريح ...
كأنما خوف من النسيان يأتينا ..
فنطبع قبلة فوق الانامل .. او نلوح ..
ثم نهرب من جديد
ويظل يتبعنا الهوى
ويظل يتعبنا .. نسافر ثم نهدا كي نسافر .. هل تغيرنا اذن ؟
ام ان وجهك انت غيرني
وعلمني التمهل ، والحساب ؟
أصبحت ادرك كيف ان البحر يخذلنا ..
وكيف يعيدنا الحلم الجميل الى التراب
في الطين ترتسم الاشارات الحميمة :
- ها هنا ارتعشت اصابعنا ..
- هنا وعد ..
- هناك تلامس الثغران وافترقا
- هناك تعلم القلب البكاء بلا بكاء
والارض تسكن في اختلاج النبض !
آه أراك مغلولا بأكفان من الكلمات ميتة ..
ومذعورا من الاحلام ان تأتي وانت بلا غطاء !
وأراك مغلوبا .. اذا جاء الاحبة سافرت عيناك في النسيان ! ..
لا ظل المواعيد الجميلة .. لا الاشارات الجميلة !! ..
لا لقاء .. ولا اقتراب !
والارض اين الارض ؟ صار البحر يخذلنا ..
انرحل ام نعود ؟
قل لي . اراك وكل نافذة تنام وكل حلم يستقيل
فعلام صوتك لا يغني ، بعد ؟..
زندك لا يعانق ؟!
وجهك المرتاح لا يهب الضياء المستحيل ؟
وعلام انت .. علام تفتلك الاقامه والرحيل ؟

- ٢ -

= تتالقين وانت مترعة الذوائب للنسيم .. حبيبه ..
والسرو يبكي
والحلم وهاج كزبيفه ؟
وريح متلفه !!
تتكاثف الاشياء : ارصفة .. مدارج .. وازدحام لا تمس القلب شعلته .
وانت بعيدة مثل الطفوله
خوف يجيء .. ولذة في الحلم ضائعة .. وظل لا يصير !!
لا عذبة - كالورد - انت ولا مغادره
وتحت اشعه القمر الجديد نموت دون منازل الارض الجديده
واراك في ظمئي على عجل
وتهتز الرمال بلا اتجاه
والشوق : آه ... وانت : آه ...
وكل حلم عنك : آه !!

* * *

لك لا اغني . الريح متلفه !!
تباعد بين تعري عاشقين ولا تغيب
ويمر ظل بيارق انخفضت ..
وكف تسند الخد الذي أعياه ذل الصمت ..
كف لا تحن ولا تشير ..!!
لك لا اغني! كل قتلى الارض يجتمعون في ليل الدماء
والكف ما لمست جبيننا متعبا .
والقاتل استرخى ..
تدور الارض حائرة على اطراف اغنية ...
فمن قتل الهوى ؟
تتعلمين الان اسئله عن الدنيا ؟!!
سواعد فوق اغنية . تدور ولا تدور
والريح متلفة ... فمن قتل الهوى ؟
تتعلمين الان اسئلة عن الدنيا ؟! واحزان الرحيل والانتظار ؟
ويداك .. كيف يداك عانقتا ؟
وكيف تواصلت فيك اللفات بالاحتضار ؟!!
واموت من ظمئي .. وانت بعيدة مثل الطفولة
حلم غريب .. لا يجيء ولا يغيب
وتواصل الاشياء رحلتها معلقة بذل الصمت ..
والقلب انتباهته الجريحة ..
ثم ماذا بعد ؟! آه ...
آتيك معتصما بحبك لابسا خوفي .. وآلام انحصار
آتيك مقتولا بأسئلتي .. واعرف كل جرح فيك ..
اعرف انك الشوق المعطل واللهيب
واظل فيك مكابدا ..
وتظل تهتز الرمال بلا اتجاه !
والحب : آه .. وانت : آه ...
وكل حلم عنك : آه !

سورية - دريكيش

أمجد توفيق

لحن جديد لأغنية قديمة

كان الرجل العجوز جالسا على رابية صغيرة ، تشرف على بساتين الفواكه ، واشجار الحور العملاقة ، والصنوبر الرشيق ، وهو يتأمل رحيل الشمس وحفيف الاوراق المترافصة في الريح ، بقلب مفعم بالحزن والذكريات .. كانت الاشياء تبدو له حزينة وقد فقدت بريقها القديم عندما كان يحمل فأسه ويجوب بين الاشجار ليقطع الاغصان المرهلة التي تعوق السير ، ويقطف انضج الثمر ليقدمها الى ابنه وزوجه عندما يعود مع المساء الى البيت .. كان ابنه يقف امام البيت لينتظره ويحمل حقيبته الصغيرة الممتلئة بالثمار ويأخذها الى الداخل، فتستقبله امه بالضحكات وتحاول ان تأخذها من يديه فيهرب الى ابيه ويحتمي به ، فيجلسه الاب في احضانه ، ويفرغ له محتويات الحقيبة ..

حين رحلت الشمس غابت اشجار الفواكه ولم يبق من البساتين غير اشجار الحور والصنوبر العالية .. كان الظلام ينتشر كرائحة الاوراق المتفسخة بعد سقوط المطر .. نهض العجوز ببطء ليتجه الى البيت ، فدار حول الرابية خشية الانزلاق ، واخذ يهبط .. شعر العجوز بان امجادا صغيرة تتدحرج خلفه وتمر من بين قدميه . نظر الى الوراء .. كان حفيده الصغير يناديه ، وهو في اعلى الرابية .. توقف الرجل بانتظار الصغير ، وطلب منه ان ينزل بهدوء .. هتف الطفل :

ـ لقد عاد ابي من البستان .. وهو ينتظرك لتناول العشاء ..

امسك العجوز بذراع الطفل ، واخذ يسير ثانية باتجاه البيت .. فقال له الطفل :

ـ يا جدي .. الا تخشى الظلام ؟

كان حزينا فقال له :

ـ هيا اركض الى البيت وقل لهم بانني في الطريق ..

كان العجوز يكره البقاء في البيت ، ويشعر بانه قد تحول الى شجرة يابسة يستعملونها في المواقد .. فزوجة ابنه لا تكف عن الثرثرة ، وتتهمه بافساد الطفل وتدليله .. وذلك لم يكن شيئا هاما بجانب الطبخ داخل البيت ، فقد اخبرها مرارا بانه لا يستطيع تحمل الدخان ، وطلب منها ان تطبخ في الساحة الصغيرة خارج البيت، لكنها رفضت ذلك وتعللت بعدم وجود موقد في الساحة .. كان يشعر بانها تكرهه لذا كان حذرا منها .. لكن الدخان يغيظه .. فقرر ان يحرجها .. في اليوم التالي استيقظ العجوز فجرا وجلب مجموعة من الصخور وكميات من التراب وباشر بعمل موقد كبير .. اعتنى به كثيرا كاعتنائه باشجار بستانه . وبعد الانتهاء منه ذهب الى قبر زوجته ، ولاول مرة منذ سنوات طويلة انهمرت دموعه وشعر بطعمها المالح في فمه .. وحين رجع الى البيت وجد الموقد مهدما ، فاجتاحه غضب شديد .. قالت له زوجة ابنه :

ـ ان الطفل هدمه .. الم اقل لك لقد افسدته ..

استطاع العجوز كبح غضبه ، ولم يتكلم ، اذ عرف بانها قد هدمته . ومن يومها كره البيت ، واخذ يخرج الى الحقول ويجلس على الرابية بانتظار عودة الفلاحين الى البيوت ..

في البيت كان العشاء جاهزا فجلس الرجل بهدوء .. ثم طلب من الطفل ان يأتيه بقليل من الماء .. نهضت زوجة ابنه وجلبت الماء ، فوضعه العجوز بجانب العشاء ، وبقي صامتا ..

قال له الابن :

ـ لماذا لا تشرب ؟

رفع العجوز الاناء وشرب ثم اعاده وهو يقول :

ـ كنت تعبا ..

ـ لماذا تخرج كثيرا يا ابي ؟. ان ذلك يؤثر عليك ، فلم تعد شابا ..

غمغم العجوز بحزن :

ـ نعم .. ذلك صحيح ..

ـ حسنا ، ارجوك يا ابي تناول عشاءك ، واذهب الى الفراش ..

قالت الزوجة :

ـ انه عنيد جدا ..

قال الابن بغضب :

ـ اخرسي ..

نهض العجوز الى فراشه ، فلحق به الصغير وهو يتشبث بذراعه، فاحتضنه الجد واستلقى على فراشه ، وبدا يتحسس الخطوط التي

رسمها الدمع على وجنتيه ..

استمر الابن بتناول عشائه وهو ينظر الى زوجته بعتاب .. فقالت:

ـ اسمع .. انه يتدخل في ابسط الامور .. لا ادري ما الذي اصابه ؟ صمت الزوج ، ثم شرب قليلا من الماء ومسح فمه ، ونهض ليغير وضع الفانوس المعلق بجانب الباب .. بحث عن مكان مناسب، ولكنه لم يجد ، فجلس ووضع الفانوس على يمينه وقال لزوجته :

ـ انه ابي .. ولا اريد ان اصبح مسخرة بين الرجال .. قرأت الزوجة تعابير الغضب المرتسمة على وجه زوجها ، فابتسمت وقالت ببراءة :

ـ هل جلبت لي اللوز الذي حدثتني عنه ؟

اجاب الزوج بصوت خفت غضبه :

ـ لم اجد الا قليلا .. انه في الحقيبة ..

نهضت الزوجة ، وجلبت الحقيبة الصغيرة ، واخرجت اللوز منها وجمعته في ثوبها ، ثم ذهبت الى غرفتها .. حمل الزوج الفانوس وتبعها ، بعدها كان الضوء يخفت تدريجيا مع اصواتهما .. حين تأكد الرجل العجوز من نوم الطفل ، وتلاشي الاصوات في البيت ، خرج بهدوء ، وحمل فأسه من الخارج واتجه نحو البساتين .. سار بين الاشجار ، واقدامه تسحق الاوراق المتساقطة التي تبدو طرية تحت اقدامه .. تسلق الرابية بسرعة ، وهناك وقف فترة قصيرة نظر خلالها الى البيت المحاط بالاشجار العملاقة وبعدها انحدر نحو البساتين الممتدة ، وقد رفع فأسه نحو الاعلى وامام رأسه كي لا يصطدم باغصان الاشجار التي تصادفه .. وكلما وجد غصنا متهدلا كان يضربه بالفأس ويزيحه عن الطريق كعادته عندما كان شابا .. انتابت العجوز احاسيس عذبة جعلته يقفز بين الاشجار ويطلق اصواتا وحشية وهو يضحك ويلوح بالفأس .. شعر بانه قد عاد الى ايام مجده وما هذه التجاعيد التي يحملها وجهه الا كذبة كبيرة الصقها به الاخرون فصدقها دون تفكير .. اشرف العجوز على الترعة الكبيرة التي تغذي البساتين المجاورة فوضع الفأس على كتفه وحاول ان يقفز من فوقها ، ولكنه لم يستطع اجتيازها ، فسقط في الترعة ، وغاصت اقدامه في الطين .. حاول ان يخرج .. فشلت محاولاته الواحدة تلو الاخرى .. اراد ان يصرخ ، ولكنه كتم صوته اذ لاحت له زوجة ابنه وهي تبتسم بمكر .. كانت الفأس قريبة منه ، فاخذ يزحف نحوها باستماتة ، وعندما لامست اصابعه حديد الفأس البارد شعر ان انفاسه تأبى الخروج ، فانكفأ على وجهه وهو يئن بعذاب مقهور ..

سمع العجوز صوت اغنية بعيدة ، كان يرددها عندما كان شابا ، يجتمع حوله الرجال والنساء ويطلبون منه ان يستمعوا اليها .. كان يحدق نحو الفتيات ، ويطلق صوته ، عذبا ، رخيما فيرقص الرجال بجنون وهم يدورون حوله وعيونهم تتوقد كالجمر ، وترميه الفتيات باللوز وحبة الخضراء ، فيهرب ويتسلق جذع شجرة قريبة .. حينها كانت الارض تشهق والاشجار تتمايل ، والاوراق من فرحها تهجر الغصون لتحلق فوق رأسه وتلتصق بصدور الفتيات ..

لم يلبث انين العجوز ان اصبح متوافقا مع لحن الاغنية التي يسمعها ، فشعر بهدوء وبقدرة على التفكير .. رفع رأسه وجذب الفأس ، وامسك بها ، ثم رفعها فوق رأسه وضرب الارض بكل ما في نفسه من حزن .. اختفى حديد الفأس في الارض ، فاخذ العجوز يسحب نفسه ، وهو ممسك بذراع الفأس علّه يستطيع الخروج من الترعة ، ولكن سرعان ما اصبح الفأس بيد العجوز اذ لم يتحمل ثقله .. فرفعه العجوز ثانية ليغرسه في الارض ، رفعه بقوة رجل يائس .. لم يستطع السيطرة عليه ، فهوى على رأسه .

سال الدم على جبين العجوز وسقط في الترعة .. وكانت اصوات اغنيته القديمة تتلاشى تدريجيا ، كما تتلاشى دماؤه في مياه الترعة ..

بغداد

صبري حافظ

« المصطافون » ... او غوركي على الطريقة التشيخوفية



لا الكاتب في حاجة الى تقديم ، ولا الفرقة التي قدمت مسرحيته. فالكاتب هو مكسيم جوركي العظيم ، والفرقة التي قدمت المسرحية هي « فرقة شكسبير الملكية » العملاقة بامكانياتها الضخمة وحسها المسرحي المرهف . لكن المسرحية ذاتها هي التي تحتاج الى ان اقدمها للقارىء العربي . ليس فقط لانها اقل مسرحيات اليكسي مكسيموفيتش بيشكوف — جوركي — شهرة في عالمنا العربي ، بل توشك ان تكون احدى مسرحياته المجهولة بالنسبة للقارىء العربي . وليس ايضا لانها حظيت عندما قدمت لاول مرة على خشبة المسرح الانجليزي هذا العام بتقدير كبير من النقاد والجمهور على السواء . ولكن ايضا ، وهذا هو الاهم ، لان القضايا التي تطرحها والرؤى التي تثيرها ما تزال شديدة الحداثة والمعاصرة برغم مرور سبعين عاما كاملة على كتابة هذه المسرحية العظيمة. بل لقد احسست في بعض المواقف ، برغم المشاهد الروسية والوجوه الغريبة واللسان الاجنبي ، بان المسرحية تناقش قضايا المثقف العربي اليوم في السبعينات ، حيث تتسع الهوة بين قطاع عريض من هؤلاء المثقفين وبين كل من قارئه من جهة ، وجذوره الطبقية من جهة اخرى. ويجد نفسه وقد اصبح فريسة لداء غريب يوشك ان يستلب حيويته وفاعليته ، ويلقي به في انشوطة السلطة التي ما تلبث ان تحتويه بسهولة برغم تناقضاته الحقيقية معها . ويصبح في وضعه الجديد ، وقد نسي او تناسى ان انتماء المثقف الحقيقي هو لضمير امته في حركتها التاريخية وليس لسلطة موقوتة او جاه زائل ، غريبا مغتربا يجتر مرارات الاحباط والمعاناة ، وقد تقطعت الجسور بينه وبين جذوره الطبقية التي كان يمكنها ان تحميه من كل اغتراب ، واستبدل متع الحياة ولذاذاتها العرضية بنشوة اليقين ، وحرارة الالتزام بالقضية ، وتوهم ، وقد اصبح جزءا من الانظمة التي عمل ضدها في مقتبل العمر، انه قبل المساومة حتى يستخدم صولجان السلطة في تحقيق افكار سنوات الشباب الاولى ، وقد فاته ان المساومة هي الخطوة الاولى في طريق التخلي والضياع .

كل هذه الاسباب ، فضلا عن القيمة الادبية والانسانية لهذا العمل الثري بالرؤى والدلالات ، هي التي تدفعني الى تقديم هذا العمل المسرحي الكبير للقارىء العربي ، في فترة يشتد فيها الحاجة الى ارهاف حس العربي بواقعه وقضاياه ، وتحاك فيها المؤامرات من اجل تعمية الحقائق من حوله ، وفصله عن اصوله الطبقية ، وطمس اهمية الوعي بالانتماء الى ضمير امته العربية في صيرورتها التاريخية، وفي صراعها من اجل السيطرة على مقدراتها او تحرير ارادتها واراضيها. هذه الفترة التي تشبه في بعض الوجوه ، الفترة التي كتب فيها جوركي مسرحيته ، وحاول من خلالها ان يقدم رؤيته للخلاص ، وان يصحح وضع البوصلة التي اختل توازنها ، بوصلة الرؤية الفكرية لواقع مضطرب ، هي التي تسهم في منح بعض اسقاطات هذه المسرحية بعدا حيويا ومعاصرا .

اسم المسرحية في الروسية هو « Dachniki » اي من يستأجرون او يمتلكون — ولاحظ هنا ان البشر هم الذين ينسبون الى الاشياء وليس العكس — « Dachas » اي كوخا او منزلا للاقامة الموسمية ، او كما نسميه في مصر (شاليه) او (فيلا) لتمضية فصل الصيف فيه بعيدا عن حر المدن المزدحمة الخانقة . او باختصار وكما دعتهم الترجمة الانجليزية التي اعدها جيرمي بروكس وكيتي هنتر بلير (المصطافين) او (زوار الصيف) . غير ان (« الداشا ») ، وهي كلمة روسية دخلت الكثير من اللغات الاوروبية الاخرى ، ليس من الضروري ان تكون على شاطىء البحر — كما توحي للقارىء العربي كلمات الاصطياف والشاليه والفيلا — ولكنها في اغلب الاحيان تكون في قلب الريف وعلى حواف الانهار والغابات .

وقد كتب جوركي مسرحيته (المصطافون) تلك في خريف عام ١٩٠٤ ، اي بعد اقل من تسعة اشهر من عرض مسرحية تشيخوف (بستان الكرز) على خشبة مسرح الفن بموسكو . ولكن بمعيار التطور الاجتماعي فان المسرحية يبدو وكأنها قد طوت جيلين كاملين من خلال هذه الشهور التسعة . وكان لوباخين قد اجتث اشجار بستان السيدة رانيفسكايا (1) وبنى مكانه بيوت الاصطياف هذه حول النهر وها هم امثال لوباخين واخلاف لوباخين من ابناء وحفدة الفقراء والحرفيين الناجحين يتكاثرون مع نمو المدن وحركة التصنيع ، ويرثون بعض مزايا وفتات غنائم الطبقة الاقطاعية التي انحدرت شمسها صوب المغيب ، ويرسلون ابناءهم الى المدارس والجامعات التي حرموا هم من الذهاب اليها . وها هم هؤلاء الابناء يصبحون اطباء ومهندسين ومحامين ، ويرحلون مع قدوم الصيف عن المدينة ، ويفدون — كعادة السادة

(1) لوباخين ورانيفسكايا هما بطلا مسرحية (بستان الكرز) ، راجع تحليلنا لهذه المسرحية في كتابنا (مسرح تشيخوف) ، منشورات وزارة الاعلام ، بغداد ، ١٩٧٣ ، ص ١٤٩ — ١٧٠ .

القدامى ، الى المناطق الريفية حيث اسس لوباخين وامثال لوباخين بيوتا للاصطياف مكان بستان الكرز القديم الذي اجتثت اشجاره العريقة الساحرة . وفي واحد من هذه البيوت التي انشئت على حواف الانهار والغابات تدور احداث المسرحية التي كتبها جوركي عام ١٩٠٤ لمسرح الفن بموسكو ولكن المسرح رفضها ، وعرضت في مسرح جانبي صغير بعد حذف بعض اجزائها بناء على تعليمات الرقابة التي كانت تخشى اعمال جوركي المهيجة بعد النجاح الكبير لمسرحيته (الحضيض) على مسرح الفن قبل ذلك بعامين .

وقد كان من الطبيعي ان تتهيب الرقابة اي عمل لجوركي في هذا الوقت ، حيث اضرب في عام ١٩٠٣ اكثر من ربع مليون عامل في المصانع والموانئ والسكك الحديدية وفي كل حقول الجنوب ، وحيث انتشرت المجاعة في مزارع اوكرانيا ، وحيث كبحت مظاهرات الطلبة بالخيالة والجنود ، وحيث اغتيل وزير الداخلية في قلب قصر مارينبسكي الشهير بيد شاب ثائر في العشرين من عمره ، وحيث وقعت بعد شهرين من عرض المسرحية - وفي يناير ١٩٠٥ - مذبحة يوم الاحد الدامي الشهيرة في بطرسبورج حين فتح جنود القيصر النيران على المتظاهرين على مبعدة ميل واحد من المسرح الذي تعرض فيه(المصطافون) فسقط المئات مضرجين في دمائهم . وكأنهم يبرهنون من خلال هذه الدماء الغزيرة على سذاجة تصورات احدى شخصيات المسرحية الرئيسية « سيرجي باسوف » عن ضرورة التطور التدريجي نحو غد افضل وتجنب الثورة .

في مثل هذا المناخ كتبت المسرحية وعرضت لاول مرة ، لتجعل جوركي - كما يقول تشيخوف في رسالة الى سيمباتوف يوجين - الاول في روسيا وفي العالم الذي عبر على نطاق واسع عن الاشمئزاز والازدراء للبرجوازية الصغيرة ، وقد فعل ذلك في اللحظة المناسبة بالضبط، لحظة ان اصبح المجتمع مستعدا للاحتجاج ناضجا للثورة . والمسرحية بالفعل صرخة احتجاج ضد كل الذين يتصورون ان الظروف يمكن ان تتحسن بالتدريج ، وان علينا ان نستشرف العالم الجديد دون التضحية بالعالم البالي القديم . وبرغم ازدحام المسرحية بالشخصيات (١٥ شخصية رئيسية و ١١ شخصية ثانوية) فان كل شخصيات المسرحية الرئيسية ، باستثناء شخصية واحدة ، تنحدر من اصلاب الشرائح المختلفة للطبقة الوسطى المثقفة الروسية التي يقول عنها تروتسكي « ان طبقتنا الوسطى المثقفة متخلفة وميئوس منها . ولدت مصحوبة بعملية مستمرة من استنزال اللعنات الاجتماعية عليها . وهذا ما جعلها معلقة فوق هاوية من التناقضات الطبقية ، مثقلة بميراث التقاليد الاقطاعية، واقعة في شبكة عنكبوت التعاملات العلمانية ، مفتقرة للقدرة على المبادأة ، عاجزة عن التأثير على الجماهير ، ومجردة من كل ثقة في المستقبل » . من اصلاب الشرائح المتعددة لهذه الطبقة المأساوية تنحدر شخصيات المسرحية ، ويتفاوت حظها من عقد وتناقضات هذه الطبقة. وحتى نتعرف على الابعاد المختلفة لهذه الشخصيات ، علينا ان نتعرف عليها في علاقاتها المتعددة خلال حركة الحدث ، او بالاحرى اللاحدث في المسرحية . حيث لا حدث اساسي ، وانما هو ركام من الجزئيات والكلمات والثرثرات اليومية في احدى (شاليهات) الاصطياف تلك ، حيث اعتادت الشرائح الميسورة من البرجوازية الصغيرة الوفود الى منطقة الريف والغابات لاسترواح نسيمها البليل تشبها بالسادة الاقطاعيين القدامى . تمضي الوقت في اصطياد السمك والمشي في الغابة والثرثرة المستمرة .. ثرثرات تطوي بها هذه الجماعة اسابيع الصيف ، ولكنها في نفس الوقت تعري خلالها قروح نفوسها الوضيعة المحبطة امام بعضهم البعض وامام جمهور المشاهدين .

ويبدأ الفصل الاول في بيت الاصطياف الذي يسكنه المحامي سيرجي باسوف .. يعيش فيه مع زوجته فارفارا ميخائيلوفنا ،او فارا كما يدعوها الجميع ، المغرمة بقراءة القصص والروايات ، ومع شقيقته كيليريا التي توشك اقدامها ان تنزلق الى هاوية العنوسة ولكنها تغطي وعيها المر بهذه الحقيقة بقناع من الترفع والفطرسة وادعاء الانشغال بالهموم الفكرية العميقة ، وكتابة قصائد معقدة مشوشة لا تفلح في اخفاء رعبها من الذبول دونما حياة ، اقصد دونما زواج . ويقيم معهم ايضا فالاس شقيق فارا الذي يعمل كاتبا لدى صهره المحامي باسوف، وان كان لا يكن له في الواقع اي احترام حقيقي ، ويحس بانه لم يخلق كي يبدد عمره في هذا العمل التافه ككاتب لمحام تافه. فهو تواق الى القيام بدور في هذه الحياة ، والى الانفلات من ربقة الفظاظة والتفاهة والى التحقق . وهو يعي هذا التناقض الحاد بين تألق شهوته للحياة والتحقق ، وكآبة واقعه الرتيب. ولذلك فانه يلعب دور المهرج ويسخر من كل شيء ، ولا يتناول اي حدث يقع في بيت الاصطياف هذا بجدية، ويخفي وراء قناع المهرج الساخر وعيا عميقا بفظاظة الحياة التي يعيشها الجميع من حوله وترفعا عن معاملة اي من غليظي الارواح والمشاعر هؤلاء بجدية . ويقيم في نفس البيت ايضا نيقولاي زاميسلوف مساعد باسوف وشريكه في العمل ، وهو ابن اسرة فقيرة عانى اشد الحرمان في طفولته وصباه . ويريد ان يغترف الان بنهم من لذاذات الحياة وشهواتها ليعوض حرمانه وفاقته القديمة . فاستحال الى كائن شره للطعام والشراب شبق للنساء شديد التبختر والاعجاب بذاته ، يشعر في قرارة نفسه بنوع خفي من التميز على هؤلاء الغارقين في الوهم ، وقد اغوى زوجة احدهم ، ولكنه يعي في نفس الوقت اتضاع منبته ، وان الجميع قد تقبلوه حقا بينهم ولكن بشيء من التحفظ الخفي والرفض المخافت .

هؤلاء هم سكان بيت الاصطياف الذين نتعرف عليهم في الفصل الاول ، ونتعرف ايضا على مجموعة من جيرانهم الذين يفدون لزيارتهم، ينفقون معهم الوقت في الثرثرة والشراب واغتياب الاخرين دونما وعي بان هذه الحياة الفظة الغليظة تترك ميسمها على ارواحهم المليئة بالقروح . بين هؤلاء الجيران نتعرف على بيوتر سوسلوف المهندس الغارق في الشراب الذي يهجس ان زوجته تخونه ولكنه عاجز عن مواجهتها وان كان دائم الشجار معها ويصفها بانها بغي ،وحينما تقول هي للاخرين انه يصفها بانها بغي تصعق الكلمة فارا وتسالها وماذا قلت له ، فترد .. لا شيء ، فانا حتى لا اعرف ما معنى بغي .. وهي وان كانت لا تعرف معنى البغاء فانها تمارسه بخيانتها لزوجها الذي لا تابه به . وتعرف ان شبقها للاستمتاع ينطوي على رغبة خفية في تعذيب الاخرين ، بل انها وهي تحكي للاخرين عن ان زوجها يصفها بالبغاء ، تفعل ذلك دون ادنى خجل بل ربما بشيء من الفخر والمباهاة . فهي امرأة هلوك وجدت في شره زاميسلوف الى الحياة والاستحواذ على مزايا ونساء الطبقة التي صعد اليها ، ولا تزال تتقبله بشيء من الامتعاض ، ما يرضي شبقها الى الاستهتار والتبرج . وبين هؤلاء الجيران ايضا نلتقي بالطبيب كيريل دوداكوف الذي تقيه طبيعة مهنته الانسانية من الولوغ في التفاهة ، ولكن شيئا في طبيعته او في تكوينه النفسي والطبقي معا يبهظ روحه ، وتثقل عليها ايضا زوجته الشكاءة البكاءة اولجا الكسيفنا التي تشعر بانها بددت حياتها هدرا في هذه المنطقة الريفية المحدودة - فهي تعيش في المنطقة وليست من المصطافين المؤقتين - الافق والامكانيات . ترعى الاطفال ، وتهيء حياة هادئة لزوج غارق في عيادة الفقراء التي لا تعود عليه بدخل وفير ، لا يوفر لها رغد العيش ولا هو يعير مشاعرها او صبوات روحها التفاتا . ولكنها تدرك ايضا انها ادركت هذه الحقيقة متأخرة وبعد فوات الاوان . فتنخرط في نوبات من البكاء والاكتئاب او احلام اليقظة بالسفر في العالم وبداية حياة جديدة . وهناك ايضا بافيل رويومين احدى البقايا الهشة للطبقة القديمة ، القت به طبقته الى الحياة وقد اوشك قاربها على الغرق ، وتركته وحيدا بعد ان لفظت انفاسها الاخيرة ، وان لم يفتها ان تخلف له

بعض الثروة التي يعيش من ريعها متبطلا خمولا متفطرسا بين ابناء الطبقة الجديدة التي ورثت طبقته والتي لا تعيره ادنى اهتمام .. يحوم حول فارا ويكن لها حبا يائسا صامتا ، ويتصور البعض انه المرشح الملائم لانقاذ كليريا العانس ، ولكنه لا يفهم شيئا من شعرها المعقد وافكارها المشوشة . ولا تحس هي بانه اهل لها لبلادتهوخموله وعجرفته وعدم اهتمامه بالافكار « العميقة المجنحة » .

وبين الجيران جماعة اخرى من ثلاث شخصيات متميزة عن معظم افراد اسرة باسوف وجيرانها الذين تعرفنا عليهم حتى الان .اول هذه الشخصيات الثلاث هي الطبيبة الارملة الكهلة ماريا لفوفنا .. اكثر شخصيات المسرحية نضجا ورجاحة عقل ، واشدهم التزاما بكل القيم التي تؤمن بها ، ولذلك فهي اكثر شخصيات المسرحية حدة وصراحة وانتقادا لسلوك الاخرين ورغبة في اصلاحهم عبر دستور صغير ولكنه عظيم وصعب معا .. وهو ضرورة ان يكون كل انسان حقيقيا مع نفسه ، يتطلع الى مستقبل افضل ، وان تكون حياته نافعة للاخرين . والشخصية الثانية هي ابنتها سونيا .. شابة في السابعة عشرة من عمرها ، تربت على الصدق والاخلاص والتطلع الى حياة افضل ، وهي القيم التي نشأتها عليها والدتها ماريا لفوفنا التي تكفلت وحدها بعبء تربيتها عقب وفاة والدها وهي لما تزل في مطلع الصبا . ولذلك فانها وقد شبتعلى الصدق مع النفس والايمان بالمستقبل والرغبة في اسعاد الاخرين تتصرف بثقة وانطلاق وامل في المستقبل . وتصارح امها بحبها للطالب الشاب مكسيم زيمين المليء مثلها بالامل والثقة في المستقبل . وهي تتحرك مع مكسيم على تخوم عالم المصطافين الراكد الاسن دون التورط في الاندماج فيه . وهما بموقفهما هذا يرهصان بالامل فيان الجيل الجديد لا يزال بعيدا عن تلوث الجيل القديم ، وانه يعي ، بصورة من الصور ، قتامة عالم الجيل القديم ويتجنبها ، ويؤكدان من خلال انطلاقهما وصدقهما وتوهج قيمة الحياة في اغوارهما حدة التناقض والمفارقة بينهما وبين بقية المصطافين . ولا غرو ، فان كان معظم المصطافين ينتمون زمنيا او موقفيا الى الجيل والى المؤسسة التي اطلقت الرصاص على المتظاهرين في يوم الاحد الدامي من يناير ١٩٠٥ ، فان سونياومكسيم ينتميان الى جيل الطلبة الثائرين الذين سقط منهم المئات في هذا الاحد الدامي المضرج بالدماء . وهو نفسه الجيل الذي فجر واحدةمن اعظم ثورات الشعوب بعد عقد واحد من ذلك التاريخ عام ١٩١٧ .

هذه هي الشخصيات التي نتعرف عليها في الفصل الاول من المسرحية . وهناك قادمان جديدان نسمع عنهما دون ان نراهما . الاول هو الكاتب والقصاص ياكوف شاليموف الذي دعاهباسوفلزيارتهم وتمضية بعض الايام معهم في مصيفهم هذا . ونعرف حينما نسمع بمجيئه كيف ان فارا ، زوجة باسوف ، المغرمة بالكتب والروايات تكن لهذا الكاتب تقديرا خاصا ، وتنطبع له في خيالها صورة لا تمحى منذ ان زار مدرستهم وهي لما تزل مراهقة في السادسة عشرة من عمرها ، وحاضر فيها وانطبعت صورته في ذاكرتها وكانه اله صغير يشع فطنة وحكمة وموهبة . ولذلك فانها تنتظر قدومه بشغف ، وفي داخلها هاجس يهمس لها بانه سوف ينقذها من وهاد البلادة والخمول الذي يبهظ روحها . اما القادم الثاني فهو سيمون ديفويتوتشي عم المهندس سوسلوف والذي نعرف انه قد وصل فعلا ، وانه عصامي شديد الثراء كبير السن يبحث في هذا المصيف عند قريبه الوحيد ، وبالتالي وريثه الوحيد ، عن بعض الراحة . ولكن ابن الاخ المهندس ضائق بعمه العجوز دون ان نعرف لذلك الضيق سببا ظاهرا ، ربما لانه يستبطيء رحيله ، او لانه غير واثق من انه سيترك له كل ثروته الطائلة ، او لانه يحس بتلك الهوة التي تفصل بين افكاره الكسيحة وواقعه البليد ، وبين الحياة الخصيبة من العمل الدؤوب التي عاشها هذا العم حتى اصبح مليونيرا

وينتهي الفصل الاول بعد ان تعرفنا على كل شخصيات المسرحية الرئيسية ، وبدأت خيوط الموقف المسرحي في التشابك مثيرة الكثير من التوقعات . فنحن نتوقع شيئا مبهما بين فارا وكاتبها الذي تنتظر قدومه بشغف . وبين الطبيب دوداكوف وزوجته بعد انتوتر الموقف بينهما للحظة ، وبين ماريا لفوفنا وفالاس الذي يقول لها عندما تطالبه بأن يخلع قناع المهرج عن نفسه ، وان يكشف عن حقيقته التواقة الى الحقيقة والحياة : « هؤلاء سحب من البعوض، فكيف تريدينني ان اعاملهم بجدية .. انني ضائق .. ضائق بنفسي وبالاخرين » .. ونتوقع ان نعرف اكثر عن كيليريا بعد ان ينتهي الفصل بقصيدة مربكة لها عن الجبال والصمت والحياة والنمو والموت والمعاناة والرجال . ونتوقع ان تفك الغاز هذه العلاقة الغريبة بين المهندس سوسلوف وزوجته . وما أن يجيء الفصل الثاني الذي يدور في شرفة بيت الاصطياف ، واثناء رحلة في الغابة بعد اسابيع قليلة من الفصل الاول — حتى يشبع الكثير من هذه التوقعات ولكنه يثير مجموعة اخرى من الحدوس والمواقف .

فها هي فارا تلتقي بكاتبها المنتظر ، ولكنها تفتش فيه عن معبود المراهقة القديم دونما جدوى . خامل الروح هو ، لا همة له ، ولا اشعاع . لا يختلف كثيرا عن بقية المصطافين فقد تزوج مرتين انتهيتا بالفشل والطلاق . وكما انصرفت عنه كل من زوجتيه السابقتين ، ينصرف عنه الان جمهوره القديم هو الاخر . ويسمع عن جمهور جديد ، ولكنه لا يعرف اين يلتقي بهذا الجمهور ، ولا بأي لغة يمكنه ان يخاطبه . لديه وهم بانه لا يزال كاتبا هاما ، وانه حصيف الرأي ثاقب الفكر ، وبان العيب ليس فيه وانما في هذا الجمهور الجديد الذي ظهر فجاة ، وفي ذلك الجمهور القديم الذي اختفى او ادار له ظهره . وهو في حيرته هذه قد وجد نفسه عاجزا عن الكتابة او — كما يقول هو — عن العثور على موضوع جدير بالمعالجة . هذا هو الكاتب الذي خطف روح فارا في سنوات المراهقة وكان له فعل السحر في دفعها نحو مزيد من القراءة والمعرفة . ولكن يبدو ان هذه القراءة والمعرفة قد وضعت فارا في مصاف القاريء الجديد او القاريء القديم الذي ادار ظهره فكريا وموقفيا لياكوف شاليموف الفكر والكتابة وكان لا بد ان تدير ظهرها بعد قليل لياكوف الانسان . وبعد ان عرّت بلادة الايام في المصيف والثرثرة وتحويمه كطائر هرم حولها خواء روحه ونزعت عنه القناع . وحتى حيرته ازاء عجزه عن الكتابة واحساسه بانصراف القاريء عنه لا تثير العطف ، بل تستدعي الرثاء. لانها حيرة انانية .. حيرة ذات اخذت مرة اكثر مما تستحق فتوهمت ان ذلك حقها المشروع والمكتسب . ولم تحاول هذه الذات ان تمارس واجب العطاء ، بل لا تزال ذاتا تدور حول نفسها . فياكوف لا يعذبه ان لديه فكرة لا يجد لها جمهورا ، او قضية ايا كانت درجة جدارتها بالاهتمام يريد ان يكسب لها الانصار وانما يحيره ان الجمهور قد انصرف عنه ، وانه لا يعرف ماذا يريد الجمهور الجديد ولا كيف يثير اهتمامه .. ان حيرة من هذا النوع الاناني الذي يريد الاخذ ولا يفكر في العطاء لا يمكن ان تحظى بتعاطف احد ، حتى ولو غلفتها اوهام المراهقة ، وحالات الفطرسة والتبختر بالنفس التي يجيدها ياكوف . ومن هنا تدير فارا ظهرها لياكوف ، وترفض بحزم غزله السقيم لها. بل وتواجهه بحقيقة المفارقة المريرة بين صورته القديمة في خيالها ، وواقعه الجديد وهو يغازلها بطريقة مكشوفة — تراها هي — مقززة فجة . ليس فقط لان من تصورته راعي المثل ومنقذ الارواح الضالة لا يتورع عن المغازلة الفاضحة لزوجة صديقه الذي دعاه للاقامة معه ، ولا لان غزله ، كما تقول له ، لا رقة فيه ولا براعة . ولكن ايضا لانه عاجز عن رؤية المفارقة المثلوالاخلاق التي كان يدعو لها في كتاباته وترديه في مغازلة زوجة صديقه ومضيفه بلا ادنى مواربة او دوران ، فيه فظاظة الاناني الشره الى الاخذ دون ان يفكر في العطاء . وهكذا يعمر شاليموف الواقع الق

الصورة القديمة لشاليموف الوهم ، او للكاتب كما تصورته فارا وكما تخلفت ملامح صورته في اغوارها .

وها هي توقعاتنا عن ماريا لفوفنا وفالاس تتحقق هي الاخرى بصورة ما في الفصل الثاني من المسرحية . فحديثه الجدي معها ، ومصارحته لها بمطامحه وشهوته العارمة لحياة افضل يعمق من غربته عن المحيطين به بحياتهم البعوضية التافهة ، ويشده اكثر الى الارتباط بماريا لفوفنا التي تتقد فيها رغبة حقيقية في حياة افضل ، ويصارحها بانه يحبها ولكنها ترفض منه الاندفاع في حب كهذا ، فهو شاب بينما هي قد توغلت في سن الكهولة . وتنبهه الى هذا الفارق الكبير في السن بينهما ، والى ما يمكن ان يقوله الاخرون عنهما لو استسلما لهذا الحب . وهو لا يعير اعتراضاتها التفاتا ، ويواصل بشاهبه ، وينفض كل حججها ، لكن ماريا عنيدة لا تريد منه التضحية بشبابه من اجل سنوات قلائل، وبعد ان تخفق ماريا لفوفنا في صرف فالاس تأتي فارا فطلب منها لفوفنا ان تساعدها في صرف فالاس عن هذه المشاعر ، وعندما تسالها فارا ، هل تشعرين بالاسف من اجله ، فتجيب ماريا بانها تشعر بالاسف من اجل نفسها ، لانها هي الاخرى تحبه .. تحبه كما تحب النبتة التي اوشكت على الذبول الري واليناعة . فقد كرست حياتها بعد ان مات عنها زوجها في مقتبل العمر لتربية ابنتها ،وضحت بكلشيء حتى نشأت سونيا التنشئة التي تبغيها . وها هي سونيا توشك ان تتزوج بعد عام او نحو عام وتنصرف عنها . وتلح عليها فارا ان تتقبل حبه ما دامت هي الاخرى تحبه هكذا ، وان حبا متوقدا كهذا كفيل بان يجهز على فارق العمر بينها وبين فالاس . لكن ماريا برغم غرامها بفالاس لا تريد له ان يرتبط بها لانه قد يندم بعد سنوات على هذا الارتباط ، سنوات قليلة قد يسعد فيها معها لكنها لن تلبث ان تشيخ وتتركه وهو لا يزال في شرخ الشباب ، ولانها وهي الاخلاقية الصارمة لا ترضى ان تحقق سعادتها على حساب شاب في مقتبل العمر دفعته الظروف الخانقة الى التمسك بها لانها اكثر الشخصيات المحيطة به اصالة ونقاء . ان عليه ان يسافر في العالم وان يلتقي بأناس اخرين عديدين حتى يجد شابة في مثل عمره مليئة برؤى مثل رؤاه ونزوعات مثل نزوعاته ، على هذا تتفق ماريا مع فارا وتحاول كل منهما فيما بعد على حدة ان تقنع فالاس بان خلاصه في الابتعاد عن هذا المناخ الآسن .

مشهد الاعتراف الطويل بين ماريا لفوفنا وفالاس تشهده من بعيد شخصان . يشهد القسم الاول منه ، حيث فالاس يبث ماريا عواطفه ، سيرجي باسوف ، وعندما يخبر زوجته فارا – التي تعرف بحق طبيعة الموقف – بطريقته الهازلة وتفسيراته الفجة للامور بما رأى وكأنه شهد فاصلا هزليا غريبا ، ترجوه باخلاص الا يفاتح احدا في هذا الموضوع وان يكف لفترة عن الحديث فيه وسوف تشرح له المسالة فيما بعد . ولكن انى له ان يفعل هذا وقد عثر على موضوع مثير في هذا المناخ الراكد الذي لا يحدث فيه شيء مثير للالتفات ، فما بالك اذا كان هذا الموضوع المثير حول ماريا لفوفنا التي يكتوي الجميع بتعليقاتها الحادة وانتقاداتها المرة الساخرة . انها فرصتهم جميعا للتشفي في هذا الضمير المتحرك الذي اوسعهم تأنيبا. ومن هنا فانه لا يعبأ برجاء زوجته له بان يتكتم ما راى . ويظل ينقل القصة بتفسيراته الخاصة وطريقته الهازلة الى كل شخص وكأنه سر له امرا مثيرا للضحك والرثاء . ينقل القصة لهم جميعا بطريقة تحنقنا عليه وتكشف لنا تهرؤات روحه اكثر مما تثير فينا الدهشة الوقائع الغريبة التي تحكيها .

اما القسم الثاني من مشهد الاعتراف ، وهو حديث ماريا مع فارا بعد انصراف فالاس ، فتشهده سونيا ابنة ماريا دون ان تحس اي من ماريا او فارا بأنها قد سمعت الجزء الهام من الحديث والذي تعترف فيه امها بانها تحب فالاس بالفعل ولكنها مصممة على نزع هذه الفكرة من عقله ، وعلى الا تحقق سعادتها في الايام الباقيات على حساب هذا الشاب المليء بالحيوية التواق الى التحقق والنقاء . وقرب نهاية الفصل الثاني وعندما تختلي سونيا بامها في واحد من اعمق وابدع مشاهد المسرحية – كما يقول مارتن اسلن – « فحتى بمعايير المسرح الطبيعي فان هذا المشهد كان لا بد ان يولد في نفس الابنة شيئا من التقزز والاشمئزاز ، لكن جوركي بمهارة يجعل الابنة تناشد امها ان تستسلم لحبها – ها هو الجيل الجديد المستنير يمنح اباءه شيئا من الحرية الجنسية ،هذه لمسة لا تزال تنبض بالثورية حتى بعد سبعين عاما من كتابة جوركي لمسرحيته » (٢) .. في هذا المشهد تأخذ سونيا رأس امها المرهقة في حجرها وتهدهدها في واحد من مشاهد تبادل المراكز ، فها هي سونيا تلعب دور الام التي تهدهد طفلتها في حجرها ، وتصارحها بانها سوف تتزوج مكسيم بعد عام ومن الممكن ان يعيشوا هم الاربعة جميعا تحت سقف واحد حياة هادئة سعيدة ، ولكن الام تصر على انه سوف يكون هناك ثلاثة فقط هي وابنتها وزوج ابنتها مكسيم ، وان الحياة ستكون اهدأ واسعد بهذه الصورة .

في هذا الفصل ايضا يتطور الموقف بين سوسلوف وزوجته يوليا من ناحية ، وعمه سيمون من ناحية أخرى .. فها نحن نتيقن من ان زوجته تخونه معزاميسلوف بصورة توشك ان تكون علنية تماما ،وتريده ان يعرف لانها تعرف انه حتى لو عرف بوضوح شديد فانه لن يفعل شيئا ، وسيزداد في نظرها ضعة وبلادة . بل انها تكاد في احد المشاهد ان تقول له هذا صراحة .. وهي تؤكد له ان حياته لم يعد لها معنى ولن يكون لها بعد اي معنى ، وتقول له من الافضل ان يتركها تقتله ثم تقتل نفسها وتستريح ، فهي لم تعد تطيق الحياة معه ، ولا هي حتى تحب زاميسلوف الذي تخون زوجها معه ، بدرجة تدفعها الى ترك زوجها والحياة معه . انه كان نوعا من الهرب من الملل والبلادة ولكنه هرب لا يهب اي راحة او علاج . ومن هنا فانها تخرج مسدسا من تحت شالها وتهم بان تقتل زوجها المرتعد الجبان الذي لا يثور حتى وقد تدهور الموقف الى هذه الدرجة . لكن دخول بعض الشخصيات الى المشهد يمنعها من تحقيق هدفها . وعلى الناحية الاخرى فان العم العصامي الذي خبر الحياة وعركته تجاربها ما يلبث خلال ايام قليلة ان يكتشف حقيقة ابن اخيه ، ويعرف بخبرته الا خلاص له ، بل انه يجد فكرة ماريا لفوفنا عن ضرورة ان يترك ثروته التي جاوزت المليون للعمل الاجتماعي ، والا تترك حصاد عمله يضيع بددا في يد وريث لا يستحقه ، فكرة جيدة ، ويصارح سوسلوف بها فيجيء هذا ثائرا على ماريا راغبا في الاطاحة بها .

اما زاميسلوف ، فانه يريد ان يبرهن على جدارته بالانتماء الى هذه الطبقة التي انحشر في زمرتها ، فيعد مسرحية تمثل في حديقة بيت الاصطياف ولا يشهدها سوى الكاتب ياكوف شاليموف الذي يريدون ان يبرهنوا له على انهم معنيون مثله بالهموم الثقافية المترفة . وهي ليست مسرحية داخل المسرحية بالمعنى الحديث للاصطلاح ولكنها نوع من الاسقاط الذي يتيح للكاتب ان يعري بعض شخصياته وان يستبق مصائر البعض الاخر خلال الماحات خفيفة هنا وهناك . غير ان اهم ما يؤكده هذا العرض المسرحي الذي يصبح هو الاخر جزءا من نشاطات المصيفين التافهة لقتل الوقت ، ان هؤلاء ليسوا بأي حال مثقفي هذه البلدة وانما هم اقوام صيفيون عرضا في حياتها ، او انهم كما تصفهم كلمات احدى شخصيات المسرحية – طيور هرمة حط كل منها على مقعد في الخريف .

---

(٢) راجع مقال مارتن اسلن عن المسرحية في مجلة Plays and Players العدد العاشر ١٩٧٤ .

طيور هرمة تشقشق بالفاظ كبيرة وتواصل خلال حركتها وثرثرتها تعرية ارواحها حتى النخاع .

وما ان يجيء الفصل الثالث من المسرحية حتى تبلغ هذه التعرية ذروتها .. وحتى تبدأ بعدها عملية مواجهة ومكاشفة من طراز رائع ، توضع فيها كل النقط على كل الحروف .. فقد بلغ سيل الثرثرات الزبى ، ولم يعد باستطاعة اي من الشخصيات ان تحتمل اكثر مما احتملته .. بصورة يتحول معها الفصل الى مجموعة من السورات والانفجارات التي يدفع فيها المؤلف شخصياته الى ذروة التمرد او الحصار او الانهيار . فها هي فارا تنفجر في الجميع بعد ان اصبحت عاجزة عن تحمل فظاظة الحياة وهي تسمع باذنيها اتهامات بذيئة ، برغم تسترها باقنعة من الشك والادب ، بانها امتنعت بطريقة ما عن انجاب الاطفال حتى لا تتورط في الاندماج الكلي في هذه الحياة . هذا ما تتهمه بها اولجا زوجة الطبيب دوداكوف التي تريد ان تترك زوجها واولادها وتهرب ، والتي تقابل عرض فارا عليها مساعدتها بقدر من المال الذي تحتاجه في رحلتها تلك ، بصراحة جارحة فظة ، ترفض فيها المال وتقول لها انها وقد دبرت ، بصورة ما ، ان تبقى بلا اطفال تمارس عليها نوعا من التعالي الخفي ، وانها تتمنى لو كانت هي في مكانها ، هي التي تعطي ، حتى تمارس الشعور بالازدراء لها .. وخلال هذا الحوار المقعد المتعدد الدلالات يعري لنا الكاتب ابعادا غامضة في لا شعور الشخصيات تقود حركة بعض تصرفاتها دونما ان تدري .. فربما كان صحيحا ان ثمة دافعا لا شعوريا هو الذي جعل فارا تتجنب التورط في الاندماج الكلي في هذه الحياة . لانها لم تتيقن في يوم من الايام ان هذه حياتها او ان هذا هو مصيرها النهائي ، بل ظل هناك في ركن قصي من اعماقها ذلك النداء الخافت بان ثمة حياة جديدة في انتظارها ، وان عليها ان تبدأ بداية جديدة في يوم من الايام .

وها هو هذا النداء يفلح في انتزاعها بالفعل من هذه المباءة الروحية التي ساخت فيها روحها حتى الاختناق . يدفعها الى تلك الثورة التي تقرر فيها ان تترك زوجها ـ لتكون نورا جديدة كما يقول ابسن ـ وترحل مخلصة البقية الباقية من ايامها من حماة الركود ، ولكنها في منولوج طويل ـ كمنولوج نورا (بطلة بيت الدمية) قبيل الرحيل ايضا ـ تواجه الجميع بحقيقة الوضع الذي يعيشون فيه وتكشف لهم زيف وفراغ هذه الحياة الاسنة التي فيها يعمهون . ولكن ما يميز منولوج فارا عن منولوج نورا هو بعده الاجتماعي الشامل الذي يتناول ، لا حياة زوجين وحدهما ، بل حياة شريحة طبقية كاملة في المجتمع الروسي ونمطا اجتماعيا في الرؤية والسلوك . هذا من ناحية ، ومن الناحية الاخرى فانه لا يصبح صوتا للتمرد والاحتجاج الفردي كصوت نورا ، بل يندغم في جوقة من الاصوات المماثلة التي تعطيه بعدا اكثر عمقا وتوسع من افق دلالاته الاجتماعية والفكرية .. فهناك ثلاث شخصيات قررت نفس القرار وانطلقت تقريبا من نفس الدوافع .. فالاس الذي قرر ان يرحل بعد اصرار ماريا لفوفنا على ان سبيله الوحيد لخلاص حقيقي هو في الارتحال بعيدا عن سحب البعوض تلك وبداية حياة جديدة ، ومن هنا يقرر الارتحال مع سيمون ديفويتوتشي الذي يئس هو الاخر من ابن اخيه المهندس سوسلوف ، وقرر ان يعود من حيث اتى ، ينفق امواله في عمل نافع كما نصحته ماريا لفوفنا ـ وهذا العمل النافع الذي يعتزم ان ينفق فيه امواله هو بناء مدارس جديدة . وسوف يعمل معه فالاس وفارا في انجاز هذه المهمة التي تجعل حياة الثلاثة بالفعل نافعة لهم وللاخرين .

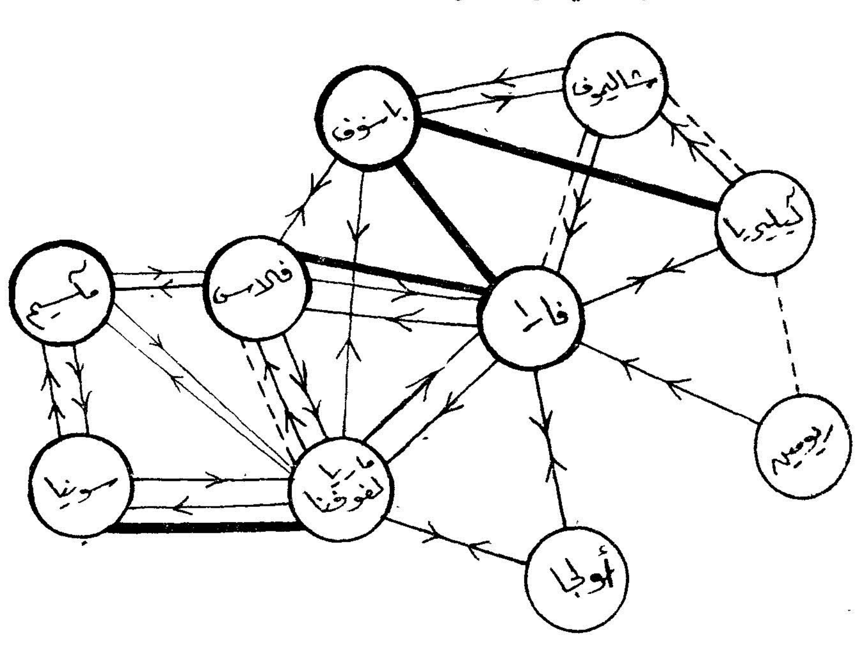
غير ان اهم الاحداث التي فجرت كل سورات الغضب والمكاشفة والرغبة في الارتحال في هذا الفصل هو تصدع المصنع الذي كان من المفروض ان يكون المهندس سوسلوف مشرفا على بنائه ، وقد مات نتيجة انهيار بعض هذا البناء الذي لم يكتمل شخصان من العمال . وحينما ياتي الخبر الصادم والفاجع يسأل العم سيمون ابن اخيه سوسلوف : هل ذهبت الى هذا الموقع وتفقدت سير البناء فيه ؟ ويكذب بالطبع ويقول نعم لكن زوجته يوليا تصرخ في وجهه بازدراء بانه كاذب وانه لم يذهب مطلقا الى هذا الموقع . وتكون هذه هي الشرارة التي يقرر بعدها سيمون الرحيل وتنفجر بقية الشخصيات في تعرية جارحة وممزقة للذات وللاخرين .. فها هما شخصان عاملان يدفعان حياتهما ثمنا لاهمال وثرثرة هؤلاء المتبطلين . وحدة المفارقة بين شقي الموقف العمل مقابل التبطل ، الموت مقابل الحياة ، وان كانت هي حياة كالموت ، في هذا الموقف هي التي تدفع الموقف الى هذه الذروة وهي التي تعري كلمات باسوف عن ضرورة التطور وليس الثورة وهو يرد على حديث فالاس المتحمس للتغيير ، من كل معنى . لانه ليس ثمة سبيل الى التطور مع مثل هذا الوضع ، بل لا بد من اكتساح كل المواصفات المغلوطة التي تجعل العمال يموتون في مواقعهم ، بينما يستمتع هؤلاء الكسالى الغليظو الحس بالحياة .

من خلال هذا التحليل لاحداث المسرحية تظهر لنا الطبيعة التشيكوفية لهذا العمل المسرحي .. فقد ابعد جوركي كل الاحداث الهامة في حياة شخصياته عن خشبة المسرح ، ولكنه مع ذلك تمكن من خلال الثرثرات اليومية وعلاقات التشابه والتضاد ، ومثلثات الحب والوهم ، والحوار الشاعري ذي الدلالات المتعددة ، وذلك الركام من الكلمات والجزئيات وتفاصيل الحياة اليومية المضجرة المألوفة التي تبدو لاول وهلة وكأنها خالية من اي درامية بينما تنبض تحت وقع تناول الفنان الحساس بتوتر درامي وحيوية فنية لا مثيل لها . من خلال هذا كله تمكن جوركي ان يهب مسرحيته الحركة والتوهج وان يثير خلال طبقات المعنى المتعددة فيها الكثير من الرؤى والافكار . انها دون شك مسرحية مكتوبة على الطريقة التشيكوفية . وفيها من خصائص المسرحية التشيكوفية اكثر مما يبدو على السطح . فهناك ذلك الصمت الكئيب الذي يحط كالعقبان الجارحة فوق اخر الكلمات فيلتهمها ويوقف الشخصيات عن البوح بأسرارهم او الصراخ من لسعات الالم التي تنهش ارواحهم ، ويكبحهم عن التواصل مع الاخرين الذين يعانون نفس العي عن الافصاح . فيتحول الحوار في بعض المواقف الى منولوجات متقطعة ومتقاطعة لا ترد فيها الشخصيات على بعضها ولا تتواصل ، بل تحاول يائسة ان تبوح ببعض ما يبهظ كاهلها دونما أمل في التفاهم ودونما استعداد لفهم الاخرين . وهذه الوسيلة الفنية تكشف ما في اغوار هذه الشخصيات من عذاب وتناقض معا وتعري بعد الجلاد والضحية في كل منهما في نفس الوقت .

وهناك من الخصائص التشيكوفية ذلك الاهتمام بمثلثات العلاقات التي تكشف اعماق الشخصيات بصورة لا تقوم بها العلاقات الثنائية . ففي المسرحية عدة مثلثات للعلاقات .. مثلث فارا وزوجها باسوف والكاتب شاليموف . ومثلث شاليموف وفارا والشاعرة كيليريا التي تظل تحوم حول الكاتب وتطارده بمجموعة مؤلفاتها الكاملة حتى تبوح له من وراء قناع القصائد بما فشلت ان تبثه اياه مباشرة ، ولكنه منصرف عنها في محاولة لمطاردة فارا ولكنها ما تلبث ان تصارحه بانها فقدت كل امل في الخلاص من خلاله وكل يقين فيه . وهناك مثلث مجهض كالمثلث الاول وهو فارا وزوجها باسوف والوريث المتبطل ريومين المولع بها ولكنها لا تحبه فيحاول في نهاية المسرحية ان ينتحر باطلاق رصاصة على كتفه فيثير بذلك السخرية اكثر مما يثير الرثاء . وهناك مثلث الخيانة بين المهندس سوسلوف وزوجته يوليا ومساعده باسوف زاميسلوف . الى جانب هذا يوجد مثلث من نوع خاص تقف في مركزه ماريا لفوفنا ويمثل طرفاه مرة ابنتها سونيا وحبيبها مكسيم ، ومرة اخرى فالاس وسونيا . غير ان مثلثات

العلاقات لدى جوركي ليست في تحديد مثلثات تشيكوف الصارمة في (النورس) مثلا حيث تسير حركة السهم في اضلاع المثلث في اتجاه واحد تقريبا لتشكيل دائرة عبثية يائسة مغلقة على ذاتها - بمعنى ان (أ) يحب او يتجه بعواطفه صوب (ب) ، و (ب) يتجه صوب (ج) ، و (ج) صوب (أ) وهكذا - ولكنها في الواقع مثلثات مندغمة في دوائر اوسع من العلاقات وخصوصا في الدائرة الاساسية في العمل والتي تقف في منتصفها فارا وتشمل في الواقع عددا كبيرا من شخصيات المسرحية .

ويتضح مدى ما في هذه الدائرة الواسعة من تشابك وتعقيد اذا ما ترجمت خريطة العلاقات الى صورة بيانية . وكان بودي لو ان في امكانيات (الاداب) الطباعية القدرة على نشر مثل هذه الصورة التي تحتاج الى استخدام بعض الالوان لايضاح النوعيات المختلفة من العلاقات .. ولان شيئا افضل من لا شيء كما يقولون فان هذا رسم شديد التبسيط لمثل هذه الخريطة ، وبالطبع فانه من الممكن فصل بعض جزئياتها الى خرائط ثانوية ، كما انه من الممكن اشراك البعض في خرائط اخرى .

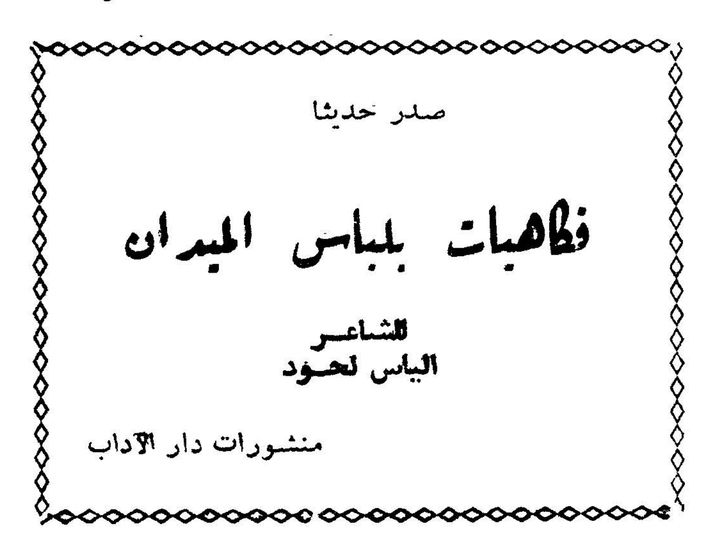


واذا علمنا الدلالات المتعددة للخطوط في هذه الخريطة - حيث الخط الغليظ يمثل علاقة رسمية كعلاقة الزواج او الدم ، بينما يمثل الخط المتقطع علاقة محبطة او مجهضة ، والخط ذو الاسهم المتعارضة علاقة تنافر سواء سافرة او تحتية مبيتة ، والخط ذو السهم الواحد علاقة صداقة او تماثل في اتجاه السهم ، والخط ذو السهمين في اتجاه واحد علاقة حب في اتجاه الاسهم - اتضح لنا مدى تشابك مثلثات العلاقات في دوائر اوسع تتبادل التأثير والتأثر وتكشف لنا عن ابعاد اخرى في علاقات التماثل والتضاد في شخصيات المسرحية . غير ان هناك بعض السمات التشيكوفية الاخرى في هذه المسرحية مثل الرغبة في اكتشاف المأساوي في الحياة اليومية وبعيدا عن الاحداث الزاعقة او المفاجآت ، وهي رغبة تنطوي على وعي جوركي بأن دوره كفنان يتطلب منه ان يثير في القارىء الرغبة في اعادة اكتشاف حياته على ضوء جديد ، وفي عدم التسليم بان حياته عادية ومألوفة كحياة الاخرين ، فكثير من هذه الحيوات التي تبدو عادية بريئة تنطوي على ما هو مأساوي وفاجع . وهناك ايضا ذلك الولع بادارة الحديث والحدث امام خلفية من الطبيعة الروسية الجميلة ، بغاباتها الصلبة واراضيها الشاسعة وانهارها الجارية ، وكأنه نوع من ارهاق حدة المشاهد بالمفارقة بين الطبيعة بصلابتها وجمالها ورسوخها ، والانسان بهشاشته وفروح روحه وعرضيته .

ومنذ عنوان المسرحية (المصطافون) أو (زوار الصيف) وجوركي يحاول ان يرهق وعي المشاهد بعرضية هذه الجماعة وهذا الوجود الانساني الممزق . فالعنوان نفسه يحمل هذه العرضية والموقوتية في كلماته .. انهم مجرد زوار صيف لن يلبثوا ان يرتحلوا . فجوركي مؤمن بصيرورته وتغير الواقع الدائمين . وهو لذلك ولوع بالتركيز على حركة وتغير شخصياته بصورة يستحيل معها ان نجد اي شخصية لم يمسسها التغير خلال هذه الفترة القصيرة التي استغرقتها وقائع المسرحية . صحيح ان هذه الحركة - ككل حركة نحو الوعي - مصحوبة بالالم والتمزق ، لكنها في نفس الوقت - ككل حركة نحو مزيد من الوعي - تستهدف التقدم . وفهم جوركي للتقدم فهم جدلي وثوري لانه ينهض على اسس صلبة لا ترى التقدم بمنظار وردي زائف تطلع فيه الشمس على احلام الجميع ، بل بمنظار واقعي تطلع فيه شمس التقدم على الجديرين بالحياة ويلفع الظلام ارواح الطفيليين الجديرين بالنسيان ومن هنا كان التأكيد على العرضية في الموقف باكمله تأكيدا على مقولة الحركة في التاريخ وفي الزمن ، بكل ما تعنيه مثل هذه الحركة من استنقاذ وتضحية .

فقد ادت الحركة في المسرحية الى استنقاذ فريق من الشخصيات والى التضحية بفريق اخر من الميئوس من خلاصهم . وهنا يجيء ايضا دور علاقات التشابه والتضاد بين شخصيات المسرحية والتي يمكن استخلاص بعضها من الرسم البياني السابق . غير ان هناك علاقات اخرى لم تظهر في هذا الرسم ، لان كشف كل العلاقات المختلفة بين الشخصيات يحتاج الى مجموعة من الرسوم لا الى رسم واحد .. لكنني اريد ان اجمل في النهاية وجود فريقين اساسيين . اولهما يضم فارا وفالاس وماريا لفوفنا ومكسيم وسونيا والعم سيمون والطبيب دوداكوف ، وثانيهما يضم باسوف وزاميسلوف وسوسلوف ويوليا وشاليموف وكيليريا وريومين . هذان الفريقان متعارضان بشكل اساسي ، افراد كل فريق ليسوا على نفس الدرجة من التشابه ، وكلما تدنى نصيب الفرد في اي فريق من صفات فريقه الاساسية كلما اقترب من مواقع الفريق الاخر . وهذا هو ما يعطي الشخصيات نوعا من الغنى وما يؤكد جدلية العلاقات داخل العمل المسرحي . وهذا الغنى وتلك الطبيعة الجدلية لكل من الشخصية والموقف هي التي وهبت المسرحية قدرتها على تخطي اللحظة الانية التي كتبت فيها واجتياز سبعين عاما من الزمان لتثير اليوم الكثير من الرؤى والايحاءات الانسانية المعاصرة .

لندن



ذو النون الاطرقجي

في انتظار ليلة القدر

ـ الى حيدر حيدر ـ

« صفحة .. صفحتان ...
وكنت تطالع في البحر ،
تقرأ موجك في الموج ،
يغرق في حزنك البحر ،
تغرق في البحر ،
انطوت صفحة ثالثة
وانطويت ،
انكسرت على موجة الحزن
في الساحل البشري تجمع في ورق الذاكره
ما طفا من حكايا معادة .. »

* * *

.. غزال من الغيم يختصر الافق ، ينسجه بالصواري البعيدة ، والموج قوس الى سدرة الافق ، والنفس سهم يمر على حافة الارض ، والجسم محارة غادرتها اللاليء ..
ـ لا تستفق ان للخمر حكمتها .
ان في البحر سرا سيبزغ في اخر الليل .
ـ هاتف : انها ليلة القدر .. هيا اسجدوا في انتظار الاشارات .
ـ لما نزل في انتظار المليكة ،
هل غرقت في فيافي العباب ؟
ام ان قافلة من عرائس هذي المياه ستصحبها ساعة الوعد ؟
ـ هل ازف الوعد ؟ هل مضت الليلة الملكية ؟
فلتستروا عريكم .
ـ تطلع الشمس فانصرفوا .. واحفظوا الطقس ..
والموعد الليلة التالية ..
« كل امواج احزاننا تتنبأ في عطفات الشوارع ان سوف تأتي .. »

* * *

لا تملوا الصلاة ، افهموا البحر :
يا ايها الخاطئون ، والهاربون ، والمخفقون ..
الصلاة ، الصلاة ..
انه البحر ، كهف الهزائم ، منشفة الدمع ، خدر الجريح
اغسلوا ما تبقى من الروح ،
ان الشحوب يكفن اوجهكم ،
والهروب يراوح بين الخطى والعيون
انني زارع موجة كل ليله
في مناقع روحي
وراض بأن اتكلس خدرا بزرقة ملح الشواطىء ،
راض بأن أتفرقع نوحا يذوب بهمهمة الموج .. ،
اني سأرفع رايتي الثلج ، والبحر يرحم ،
يقبلني لاجئا ..
وسأقسم اني اقيم الطقوس ، وارعى الشعائر ،
اقسم بالغرق المستديم .
هذه ليلة تالية

* * *

سنة تالية
والرفاق على حافة الوصل ،
لكنها لم تغادر براقعها الموج ،
لم تنكشف للرؤى
وايقنت ان العروس مغاضبة فرحلت ولم تكحل العين بالدمع أو بالضياء
ومكثت ازواح بين التمائم والوعد ،
بين الشهادة والانجذاب ...
انخطفت على بحرها سادنا يخزن الموج في صدره لليال عجاف
ليسفحها في صحارى التوحد نهرا
وموال عشق ، ودمعا ..
ايها العاشق المستريب
انكويت ـ وقرآن عشقك ـ
قبل التلاوة ، بعد التلاوة ..
.. بري يسن لظهري سيفا ،
وموج الشواطىء يقذف في الوجه بعد العناء الزبد .
أتهاوى ـ وجفني ملح ، ولم اكتحل بخيال المليكة ..
منذ قرون ولم تأتنا ليلة القدر ـ
اتهاوى ولكنني شاخص في الحصار
واقسم ـ رغم الطوالع ـ ان لا اجدف ، ان لا اموت
وارقب منعطفات الشوارع ،
أشرع وجهي للشمس والريح ،
منتظرا ليلة آتية ..
ـ انها سوف تأتي « عروس البحار الغريقة » في ليلة القدر والوعد ـ
حدثنا البحر ..
لست مستيقنا أأراوح في بقعتي ام الى الخلف ؟
ادرك ان سوف تحملني موجة الغصة المزمنة ..
ـ كما حملتك ـ وارحل .
ابحث فيما تبقى من الوجد والعمر .
عن ليلة السعد والوعد ،
عن عرسنا ـ قيل لا مستحيل ـ
ولكنني
يا صديقي سأبكي .

الجزائر ـ عنابة

يوسف صالح يوسف

الطائر المفقود ...

كان الفقر ابي .... وامي حياة كلها شقاء .... اصدقائي صحون ومكنسة وعلب بويا سوداء وحمراء ... سيدي ، بيت برجوازي يلعب البوكر مع غيره من بيوت الاثرياء .

***

وحيدا كنت استلقي في غرفة الخدم ... الغرفة الزريبة كما يحلو لنا ان نسميها نحن خدم اسماعيل بيك ابو الذهب . فزميل المهنة عثمان ، كان قد خرج لبعض العمل حسبما اوصاه السيد صاحب البيت ، واما سعدو ذو الشعر الاجعد والبشرة السمراء ، فقد ذهب الى حظيرة الخيول ، ليجهز لكل واحد منها وجبته اليومية من البرسيم المجفف والذرة الصفراء .

كنت قد انتهيت من اعمال التنظيف في ساعة مبكرة ، نظفت الطابق العلوي والسفلي وعرّجت على الممرات الخارجية ، سقيت الورود ولمعت حذاء اسماعيل بك ، وعلى مثل ما اعتدناه في كل صباح، جلست في غرفة الخدم بانتظار جرس يرن لتبدأ اوامر السيد صاحب الضياع والسطوة ، وما اكثر الاوامر التي تصدر عن اسماعيل بيك وما أسرع ما انفذ وينفذ غيري من الخدم .

كنت استلقي على نصفي الايسر ، ويدي اليمنى تقلب صفحات مجلة على ما يبدو تتعلق بالزراعة والمزارعين .

ضوء الشمس يتسلل من نافذة علوية مستطيلة تلامس سقف الزريبة ، ليغمر مساحة ضيقة من الحائط الغربي الذي تعشش فيه رطوبة قاتلة .

دخلت عليّ الخادم عطاف ، التي لما تجاوز العقد الثاني بعد ، والتي استقدمها اسماعيل بيك من مصر خلال زيارته الاخيرة ، لتخبرني بوجوب مقابلة اسماعيل بيك لامر ما حيث صحا من نومه .

عشرات الاسئلة كانت تتدافع وتتصادم وانا اصعد درجات البهو الكبير الى الطابق العلوي ، لماذا لم يستعمل اسماعيل بيك الجرس الكهربائي ؟ لماذا يطلبني انا بالذات ؟ بل لماذا يصحو من نومه باكرا وعلى غير عادته ؟ لماذا ... ولماذا ؟

وامام باب غرفته لبثت قليلا اعدل في هيئتي ... ألملم ما خرج من قميصي من تحت بنطالي البني المتآكل ، لاحزمه من جديد وبقوة في جوف البنطال ، بحزام اسود اشبه ما يكون لونا بلوح مدرسة اسود عليه بقع طباشيرية منذ زمن .

انها المرة الاولى التي اهتم فيها بهندامي اذا ما قابلت اسماعيل بيك .

طرقت الباب بخفة .. سمعته يطالبني بالدخول ، فتحت الباب عن الرجل يجلس خلف مكتبه ... يرتدي بيجامته المخططة بخطوط زرقاء ، ويدخن غليونا ...

انه على العكس من الاخرين تماما ... كلما طعن بهم السن يزدادون اقترابا من الخالق .. اما هو فلا ... تراهم يصومون في مثل هذا اليوم ، اما هو فلا ... انه من طينة اخرى ... صلصال اخر .

اطلق الرجل غيمة كثيفة من الدخان .. استوى جيدا فوق الكنبة ... صوّب الي نظرات حازمة قلقة وعيناه معلقتان بيني وبين القفص المعلق بمحاذاة النافذة الشرقية .

ـ اسمع يا فريد ... اريدك ان تعلم ان بابو قد ضاع . لقد افتقدته في الليلة الماضية ... مساء امس ، بعد خروج المدعوين، انت الوحيد من الخدم الذي يدخل غرفتي .. بل انت اخر من غادر المنزل في الليلة الماضية ، اريدك ان تعثر عليه وتعيده الى القفص .. هل تفهم ؟

مثل جماعة الفوهرر هتلر كان اسماعيل بيك حينما القى علي الامر ، انتصب واقفا وضرب على المنضدة امامه بشدة والغليون يتدلى من فمه الصغير ، على اني قلت ونظراتي القلقة تتنقل في ما بين القفص واسماعيل بيك ذي السحنة الجدية .

ـ عفوا اسماعيل بيك ... انا ...

حينئذ قال الرجل غاضبا :

ـ كفى ... ساضطر لطردك من العمل ، بل لن تأخذ اجرا نتيجة اتعابك عن هذا الشهر ... معك يومان ... تذهب وتفتش ... لا اريد ان اراك الا وبابو في يدك .

تجمدت في مكاني من هول الصدمة ، مرت لحظات مشحونة بالقلق، لكنني سمعت الرجل يصرخ بي ويأمرني بالخروج وكأني كلب اجرب ، احتضنته بنظراتي الباكية ، اغلقت فمي ، وبلعت ريقي وخرجت .

على غير هدى كنت ادب بين بيوت الاثرياء ، تحاصرني آثار الثراء من كل جانب ، تلسعني كلمات اسماعيل بيك ، تبعث في نفسي قرفا لا اعرف منشأه ، لا بد وان بابو يعيش في احد هذه البيوت ، لقد ألف حياتها ، انه الاخر برجوازي ... تماما يختلف عن الدوري ... الذي يلازم في الغالب بيوت الفقراء ... حتى بين الطيور لا بد من طبقية ...

اغمضت عيني .. تنهدت ... بكيت ... جعلت اعدو وانا اصرخ، بابو ... بابو ... بابو .

***

كانت زوجتي قد ذهبت بالامس الى مطحنة القماش المتنقلة ، التي تزورنا في الغالب في كل شهر مرة ، المطحنة الدائمة التنقل بين احياء الفقراء ، والتي تحيل قطع القماش الى مادة اشبه ما تكون بالقطن ، لكنه قطن من نوع رديء يصنع من بقايا الملابس التي عافها اصحابها واستغنوا عن خدماتها .

لقد عقدت النية ان تصنع لحافين للصغار ... صناعة محلية تتقنها ويتقنها معها الوف النساء من بنات الفقراء ، وما اكثر ما يتقن من الصناعات .

طرقت الباب الخارجي الصدىء السيء المظهر طرقتين خفيفتين ، المصنوعة من الالومنيوم ... خرج الاطفال يلعبون العاب الصباح ... وضعت الخيط في ثقب الابرة وابتدأت المهمة التي عليها ان تنهيها قبل حلول فصل الشتاء .

لقد انتهت من صنع اللحاف الاول ... غشاء من اكياس الطحين البيضاء ... وحشوة من القطن المصنع محليا ،

عاد الاطفال ليرتعوا فوق اللحاف الجديد ، تارة يختبئون تحته، واخرى يفترشونه ليلعبوا لعبة الاطفال المحببة ـ حاكم جلاد ـ واشارات فرح غامر تغلف تصرفاتهم .

طرقت الباب الخارجي الصدىء السيء المظهر طرقتين خفيفتين ، فتحت زوجتي الباب ... قابلتني باستغراب وكذا اولادي .. قالت زوجتي ونحن نخترق باحة الدار الضيقة باستغراب .

ـ خير ان شاء الله ...

ـ ان شاء الله خير ...

ـ ماذا حدث حتى عدت باكرا هذا اليوم ؟ لم يرفع اذان العصر بعد .

ـ ليتك تعلمين ما الذي حصل .

ـ وماذا حصل ؟ هل طردت من عملك ؟

ـ ليت الامر يقف عند هذا الحد ... لقد مضى علي ساعات وانا افتش عن بابو .. بابو اللعين .

ـ بابو ؟ ومن هو بابو ؟

ـ الطائر الاثير الى نفس اسماعيل بيك .. يحبه اكثر مما يحب ابناءه ، لم يجده في القفص .. وكنت المتهم ، المتهم الاول .

ـ انت المتهم ؟ ولماذا لا يكون غيرك هو المتهم ؟ لقد مضى عليك في خدمته خمسة اعوام ، كنت خلالها مثال الخادم النشيط المخلص ... آه ... يا حسرتي .

قلت وانا ارقب عبث اولادي دون ان يعرفوا من الامر شيئا .

ـ لانني اخر من غادر منزلهم في الليلة الماضية اتهمني ..

ـ نخدمهم ونخدمهم ونخدمهم وفي لحظة يتهموننا باللصوصية... آه ... حكمتك يا رب .

ـ اللعنة على مثل هذا العمل ... لقد كرهت العمل في بيوت الاغنياء ، انني افضل الف مرة ان اكون جمالا يطوف الاسواق ، تلهبه اشعة الشمس ويقتله برد الشتاء ، على ان اكون خادما يعيش في القصور ويتهم باللصوصية ...

قالت زوجتي وهي تتابع عملها في خياطة اللحاف المستلقي بين يديها ...

ـ وليس لنا احسن من هذه المهنة .. يكفي انك تعود كل يوم وفي حقيبتك الكثير من اصناف الاكل ... والفواكه ...

اغمضت عيني .. وهززت راسي ... ثم تنهدت من اعماقي .. تذكرت المثل القائل ـ اللي يعرف يعرف .. واللي ما يعرف يقول كف عدس ـ وتابعت قائلا : انا من يقع عليه تامين قوت اطفاله ...

تمطيت على طولي .. تقلبت يمنة ويسرة .. ملايين الافكار تتزاحم داخل مخيلتي ...

استسلمت في النهاية الى نوم عميق .. رأيت خلاله احلاما مزعجة انتصبت على اثرها واقفا .. الملم اجزائي واثار رعب تسيطر علي ... فتحت الغرفة واندفعت خارجا ... حاولت زوجتي ايقافي لكنني لم انتبه لتوسلاتها ...

اقتربت من منتصف العاصمة ... غرقت بين جموع الناس في الساحة الممتدة امام الجامع الحسيني الكبير ..

الناس في الشوارع كالنمل ، بعضهم يحمل رزما يحرص ان لا تسقط من بين يديه ، واخرون يتمشون على مهل ، والتجار يقذفون بمحتويات حوانيتهم الى الرصيف ، مجرد اثارة للمستهلكين ليس غير ...

وحدت اشارة الضوء الخضراء بيني وبين زميل المهنة عثمان، كان عائدا من عمله الذي بعثه فيه اسماعيل بيك ، سرنا معا نحو تجمع سيارات جبل عمان ... حدثته خلالها بالذي حصل من اوله الى اخره .

اطرق عثمان قليلا وهو يحاول ان يلملم بعض الاشياء المختبئة في تلافيف دماغه ، اسقط على مسمعي خبرا كان لوقعه في نفسي اكبر الاثر .

ـ ان بابو لم يضع ... بل ان السيد وليد بن اسماعيل بيك قدمه هدية الى عشيقته الجامعية ابنة الحاج ابو سعود ... لقد رآه عثمان وهو يخرج من غرفة والده في الليلة الماضية وهو يحمل بابو بينما كان والده مع ندمائه مدعوي احدى كبار الشركات التجارية .

وحينها الح علي عثمان ان اتصرف بهدوء وروية مخافة ان يصل الخبر الى اذني وليد ، فيكون سببا في طرد عثمان من عمله الذي يعتمد عليه في حياته .

تركني عثمان ، وانطلقت السيارة تتسلق ناصية الجبل الشرقية الشمالية الحادة الارتفاع .

***

قال تلميذ يجلس في احد المقاعد الخلفية :

ـ وهل هو من الاسمنت ام من الطين ؟

اجاب الاستاذ وهو لا يخفي ابتسامة ممزوجة باليأس محاولا افهامنا :

ـ لا من هذا ولا من ذاك . تصوروا ... فقط تصوروا .. اعني ارسموا خطا في ادمغتكم ... خطا وهميا ... يمتد عبر اراضي اندونيسيا الكونغو والبرازيل وغيرها من الدول التي تشاهدونها امامكم على الخارطة .. هذا الخط اطلقوا عليه اسم خط الاستواء .

كان هذا يوم كنا صغارا في المدرسة ... الاستاذ يحاول ان يقنعنا بضرورة استيعاب المشهد ونحن بالمقابل كنا نرفض ان يطعننا الاستاذ بمعتقداتنا الطفولية من ان الاسم لا يدل الا على شيء موجود .

تركت المدرسة في السادس الابتدائي ... وتركت معها افكاري تلك داخل غرفة الدرس ، ولم احاول ايقاظها من جديد .

على ان الكون هو اكبر مدرسة ، وداخل المدارس تتولد افكار وتنمو اخرى .

الطبقية ... الطبقية المادية والاجتماعية ... الاغنياء والفقراء ... كبار التجار وصغارهم ... الخط الفاصل بين الطبقتين .. هل هو خط وهمي كالذي طلب منا الاستاذ ان نتصوره ام هو خط حقيقي ؟

الخط الفاصل بين الليل والنهار ، هل هو الاخر وهمي ام حقيقي ؟

عشرات التساؤلات بدأت تنمو وتكبر معي .

الوطواط ينطلق من وكره ليلا ليطوف هنا وهناك ، ولكنه ابـدا يعود ، والدوري هو الاخر ... ينطلق بحثا عن رزمة ولكنه ابـدا يتشبث باضرار بالارض التي بها نما وعاش .

والاثرياء والفقراء .. ماذا بالنسبة اليهم ؟

الم تاخذ عن الطير فكرة الطيران ..؟ وعن الاسماك فكرة السباحة وصنع السفن والغواصات ؟

ما المانع من آن انطلق لاغوص في عالم الاثرياء لاعـود حتى اخر النهار الى طبقتي الفقيرة ؟

هل انسلخ عن طبقتي التي اعتز بانتمائي اليها اذا ما تصرفـت يوما كواحد من الاثرياء ؟

وللاثرياء في ماكلهم سمات ، وكـذا في مشربهم ، حتى فـي تصرفاتهم ازاء بعض الامور ، في اعلانات الصحف ، انها صفة ملازمة لهم في حالات الوفاة والافراح وفقدان الاشياء .

كنت اعرف انه من الحماقة ان اصارح اسماعيل بيك بمكان بابو، لان هذا سيفتح بابا لكثير من التساؤلات سيكون الخاسر فيها عثمان، عثمان الخادم .

وازاء هذا كان علي ان اسلك طريقا فيها من سمات الاثريـاء وتخطيط الفقراء .

عزمت على ان اعلن عن فقدان الطائر بابو ... ولو كان ذلك على حسابي المتدهور ... وكان علي لاتمم خطتي ، ان تتصل زوجتي بلسان ابنة الحاج ابو سعود من اقرب هاتف .

ناولت وكيل الاعلان بعضا من مؤونة اولادي وخرجت .

قارب النهار على الانتهاء ، عقارب الساعة تشير الـى اقتراب موعد الافطار ، صوت المدفع معلنا الأفطار يحشو سمـاء المدينـة ، والاف الافواه تفتح لتلتهم طعام الافطار .

***

حملت احدى الصحف في صباح اليوم التالي اعلانا عن فقـدان الطائر بابو ... ذي اللون الاسود والمنقار الاصفر الـذي لا يأكـل الا طعاما خاصا ، وكان في الاسفل تحت الاعلان وضمن المربع المرسوم رقم الهاتف ووعد بتقديم جائزة ثمينه .

يممت صوب بيت اسماعيل بيك .. ضغطت جرس الباب الخارجي فاذا الخادم عطاف قد جاءت لتفتح الباب لادخل فاجد اسماعيل بيـك قد وقف امام الفيللة الضخمه على غير عادته في مثل هذه الساعه من الصباح .

قلت وانا احاول ان استجدي اسماعيل بيك ان لا يصرخ فـي وجهي :

ـ صباح الخير .

نظر الرجل الي بسخرية من راسي الى اخمص قدمي ، ثم اردف قائلا :

هل وجدت بابو ؟

ـ اقسم انني فتشت في كل زاوية ... سالت الكثيرين ... لم اعثر له على اثر .

امتقع وجه الرجل بسواد كثيف ، ضغط صدغيه الى بعضهما ، وبرز فكاه الى الجانبين في حركة الى اعلى واسفل وصاح بثورة عارمة:

ـ مطرود من عملك منذ هذه اللحظة ... لا اريد ان اراك .. هيا اخرج .

ـ ساغادر .. لكن بعد ان تعطيني بدل اتعابي وتعويضي .

ـ تعويضك ؟ ها ها ها ... تقول تعويضك ؟ يا للجنون .. انت مدين لي .. من يطعمك ويطعم عيالك ؟ انا الذي سيطالبك بثمن كـل ما قدمته لك من طعام .

ـ هه ... ماذا تقول يا اسماعيل بيك ؟ اطعمتني ؟ الطعام كـان ضمن اجري .. شرط بيني وبينك .

ـ كفى ...

حاول الرجل ان يضربني .. امسكت يده ... لكن مجيء عطاف حسم الموقف .

ـ سيدي ... تلفون ...

بصق الرجل واستدار داخلا الى بهو الفيللا الواسع ليحمـل سماعة التلفون .

كنت استعجل هذه اللحظة .. اللحظة التي تتقمص فيها زوجتي دور ابنة الحاج ابو سعود عشيقة وليد بن اسماعيل بيك .

لم تمض سوى دقائق قليلة واذا اسماعيل بيك يهرول نحوي :

ـ فريد .. فريد ... اسمع يا فريد .. تعال ... لقد اتصلت بي ابنة الحاج ابو سعود .. انت تعرف بيتهم بالطبع ؟ لقد اخبرتني انها وجدت طائرا تنطبق عليه اوصاف بابو ... اللون الاسود، المنقار الاصفر ... و ... اذهب اليها واحضره .. انه بابو ...

قلت وانا اتظاهر بالدهشة : لكن .. كيف عرفت بان الطائر لكـم .. اعني لماذا اتصلت بكم ولم تتصل بغيركم ؟

قال اسماعيل بيك متلعثما ـ آه ... لقد طلبت بالامس مـن وكيل الاعلان ان يكتب اعلانا بخصوص فقدان بابو ... اني احمد الله .. لقد اشار علي عثمان بذلك .

ـ عظيم .. عظيم جدا .. لكن ...

ـ لكن ماذا ؟ اذهب بسرعة واحضر بابو ... لقد طال انتظاري اليـه .

ـ على اي حال ... لي معك حديث هام حينما اعود .

***

قابلتني سوسن ابنه الحاج ابو سعود في البداية على احسن ما تكون المقابلة ، رحبت بي وفرح غامر يرتسم على وجهها وحركاتهـا ، ولعلها اعتقدت انني واحد من الخدم الذين يجيشهم ابنـاء الـذوات لقضاء اوطار انفسهم الشريرة .

ـ نعم ... مـاذا تريد ؟

ـ لقد بعثني اسماعيل بيك بخصوص بابو .

ـ لست افهم شيئا !

ـ الطائر الذي وجدته .. انه يخص اسماعيل بيك .

ـ لعلك تعني الطائر الذي اهداني اياه وليد ؟

ـ اجل اجل .. انه هو .

ـ وكيف عرف اسماعيل بيك انه عندي ؟ يا للمصيبة ...

ـ لو انك لم تتصلي به تلفونيا لما عرف مطلقا ... كان الـذنب ذنبك ... لكن الجائزة مغرية ... انا اعرف السبب الذي من اجله اتصلت به .

ـ لم اتصل به .. اقسم على ذلك ... وكيف لي ان اتصل ووليد لا يريد ان يعرف والده .

ـ لقد قال اسماعيل بيك انك قرأت اعلانا في الجريدة بخصوص فقدان بابو .. وعلى هذا اتصلت .

ـ لكني لم اقرأ صحف هذا الصباح بعد .

ـ لا داعي للانكار ... اسماعيل بيك يعرف ان الطائر هنا .. وانه موجود ، اليس كذلك ؟

ـ اجل ، انه هنا ... لكنني .. لست ادري !

ـ حتى تكسبي ود اسماعيل بيك عليك ان تعيدي بابو ... تصرفي مع وليد وكان شيئا لم يكن .

ـ حسنا حسنا ..

ـ هيا بسرعة .. انا في انتظارك .

- لكنه سيغضب ... انا اعرف طبائعه جيدا ..
- قولي بان الخادم هي التي اتصلت - بعد ان قرأت اعلان الجريدة .
- لن يصدق ... لن يصدق .
- اذا اتركي الامور لي ... سأحسن تصريفها ... هيا احضري بابو ...
- ارجوك ان تعلم وليد بالقصة كاملة ... ارجوك يا فريد .
- لا عليك يا عزيزتي ... هيا احضري بابو .

***

لقد لازمني استخفاف اسماعيل بيك منذ وجدت في هذا البيت، مثلما لازمني اسم والدي ، لم يسبق ان سمعت منه كلمة ثناء او شكر، ان المرة الاولى التي يشكرني فيها كانت اليوم ، اليوم فقط ، حينما عدت وبيدي امسك على بابو ...

قلت وانا اشعر بعوز كبير :

- اسماعيل بيك .. لي معك بعض الحديث ... هل تسمح ؟
- اجل ... تفضل .. تفضل .. تفضل .. قل ما تشاء .. الان سأسمع لك .

قلت وانا أتعمد الحذلقة المتناهية :

- ما معنى ان يرتدي الذئب ثوب الحمل الوديع ؟
- هه ... ماذا تقول يا فريد ...؟ لست أفهم شيئا مما تعني.
- هل سمعت بقصة يوسف الصديق ؟ قصته مع أخوته .
- الرعاع سمعوا بها ... بل وحفظوها عن ظهر قلب ... لكن ... ما علاقة هذا ؟ اعني .. ما لنا ولهذا ؟

قلت وانا اغتصب ابتسامة باهتة واخرج من جيبي ورقة بيضاء صغيرة ..

- هذا من ذاك . وناولته اياها .

أمسك الورقة بيد مرتعشة .. فتحها .. قرأها .. طواها بيده اليمنى ، حدق في ما حوله ثم أردف قائلا :

- فريد .. اذا انت الذي كتب الاعلان ؟ هذا وصل بقيمة المدفوع ؟
- على اي حال لست انت .. لست انت يا اسماعيل بيك كما ادعيت .

قال الرجل وهو يبلع ريقه والكلمات تتحلب من حلقه :

- فريد ... انت ... رجل ولا ككل الرجال . مثلك يساوي عشرات بل مئات من الرجال ... لولا فطنتك لما عاد بابو الي .. خذ هذه .

اخرج اسماعيل بيك من جيبه رزمة مالية لم اعرف قيمتها ولم آخذها ...

- لست أريد من مالك شيئا ... اريد حقي فقط ... راتبي وتعويضي .
- لا يمكنني ان استغني عن خدماتك . خذ هذه جائزة لك .
- ان اعظم جائزة تقدمها لي ، هي ان تعطيني راتبي وتعويضي .. اما الجائزة هذه فارى ان توزعها على باقي الخدم ... حتى يشعروا يوما واحدا بالعيد .
- معك حق ... وكم ترى مقدار ما سأعطيهم ؟
- اطرد شيطان الطمع من داخلك واعطهم حسبما ترى ..
- انك تكبلني يا سيد فريد .. لقد احرجتني ... سأخرج اليهم .
- اعطني انا الاخر راتبي ... هذا اخر يوم امكثه هنا ... ولا تنس تعويضي .
- سأعود بسرعة ... انتظرني ... لي معك انا الاخر حديث قبل كل شيء .

* * *

الليل في حارتنا شديد الوطأة ... يثقل كاهلنا ويرهبه، يفرض علينا حصارا ومنع تجول ... انه ضيف ثقيل على ارض انعدمت فيها الاضواء .

كل البيوت تغلق عيونها في ساعة مبكرة .. وقلما تجد واحدا في الشارع الترابي الوحيد بعد الثامنة مساء .

استلقيت على ظهري ... تمطيت ثم تثاءبت ... ثم تمطيت على طولي . جعلت أحدق في فراغ الغرفة القاتم الا من ضوء المصباح الهزيل الذي تتراقص شعلته تحت ضربات ريح باردة تتسرب من شقوق النافذة الخشبية .

ثمة افكار غريبة عذراء تطرق نوافذ دماغي وبعنف ، نقابة للخدم، الخط الوهمي بين الطبقتين ، احداث اليوم ، انتصاري على اسماعيل بيك ... وانتصاري للخدم ، تعريته امام نفسه ... وغيرها كثير .

النسمات الباردة تبعث في النفس شعورا بالراحة والاطمئنان ، وهدوء الحارة يعطي المرء فرصة بنوم هادىء عميق .

اغمضت عيني ... واستسلمت لشيطان النوم الذي هاجم عيني بقسوة .

في الليل وبعد منتصفه ... سمعت صوتا خفيفا ... ادرت دولاب المصباح ليغمر ضوء الشمعدان الغرفة ، رأيت فارا يعبث داخل علبة الحلوى التي احضرتها معي ولم يكمل اكلها الاطفال .

عدوت نحوه وبيدي تمسك بالمكنسة ... فر هاربا .. رجعت الى فراشي .. لكن الصوت علا من جديد تحت الخزانة الصغيرة .

سفكت من الليل كثيرا وانا ابحث عنه .. لم اجده ... استسلمت للنوم من جديد .

وفي الصباح .. كنت اعبر الميدان الممتد بين الجامع الحسيني الكبير ومقهى السنترال ، استوقفتني اشارة الضوء الحمراء، تلفتت الى اليمين ... رأيت عثمان ... سرنا معا ... لكن الطريق اختلفت بنا ، من جديد ...

سار عثمان صوب تكسيات جبل عمان ... اما انا فجعلت ابحث عن محل تجاري يبيع انواع السموم ، علني اعثر على سم للفار المزعج الذي يحاول ان يسرق حلوى اطفالي .

عمان

عبد الكريم السبعاوي

بين الفينة والفينة

ينقصف القلب كغصن
يتفرفط عنقودا في الريح
فأتمالك
اختبىء وراء البسمة تنفغر من الاذن الى الاذن
اتعلق في حبل الصمت واتأرجح
لكني بين الفينة والفينة
أسقط في بئر الحزن

* * *

ها انذا ابصر اوسع من احداقي
وارى الكون
ينهار ، فاوقن ان قيامته توشك
وارى الابيض
وارى الاسود
واميز بينهما
لكني بين الفينة والفينة
يختلط عليّ اللون

* * *

ها انذا اغلق جرحي في وجه الداخل والخارج
اتمترس خلف عذاباتي الليلية
لكن الحصن
ينهار وتندلع النار
وتصهل خيل الروم على الاسوار
فانافح عن بيت المقدس ،رجل باع الله واخلص
في البيعة ،
لكني بين الفينة والفينة
اتخاذل .. ويداخلني الوهن

* * *

يا امرأة من وهج الحنطة ، من عبق الليمون
كيف اقايض ذكراك بحفنة تمر ويهون
اجمل ما في العمر .. وأين
اهرب من صورتك المنقوشة فوق بياض العين
وفوق سواد العين
انت انا وانا انت
ولكني بين الفينة والفينة
انظر في المرآة فانكر وجهي
يتملكني الذعر
فأصرخ من ؟
من ؟

* * *

لو ان الكلمة تسع المعنى
لو ان المعنى يسع النبضة
لو ان النبضة تسع الانسان
لكن القلب تقلب .. والنسيان
يلوذ باطرافي
وانا اعرف اسمي بالامس
واعرف اسمي اليوم
ولكني لا اعرف اسمي حين يصيح الديك
سيقولون يهوذا
ويقولون يسوع
وسأرفع فوق صليبي
لكني بين الفينة والفينة
سأرى وجه حبيبي
يشرق بالدمع
واسمع قلب حبيبي
ينبض في صدر الكون
فاغفو .. وتسير الريح
بما تتشهى السفن .

ندوة الآداب والاجيال الجديدة

تابع المنشور على الصفحة - ٣٢ -

ومستعمرات البرتغال وروديسيا وجنوب افريقيا وفلسطين والاراضي العربية المحتلة . ولقد تحقق النصر في بعض هذه المعارك ولم يتحقق في بعضها الاخر . وهكذا حقق الادب الذي انتج في هذه الفترة اصابة قوية لاسلحة المقاتلين في سبيل الحرية في جميع هذه المعارك الماضية وهو يواصل ذلك في المعارك التي لم تزل مشتعلة . »

* * *

وكانت كلمة اناتولي سوفرونوف ، تحية في بدايتها ، الى الفيليبيين ، وعرضا للعلاقات الثقافية والتاريخية ، بين الاتحاد السوفييتي والفيليبيين واشارة الى انجازات الادب السوفييتي وعلاقته بالآداب الافريقية الاسيوية ، ثم قدم سوفرونوف عرضا سريعا للموقف الدولي السياسي تمهيدا لبيان موقفه من العامل الثقافي في الساحة السياسية :

« ان احد الجوانب الهامة في عصرنا هو ظهور البلاد المستقلة النامية في آسيا وافريقيا على المسرح العالمي . لقد اصبحت الشعوب التي اخرجها المستعمرون من اطار التاريخ لعدة قرون - اصبحت تلعب الان دورا فعالا في شئون العالم . وانهارت الامبراطوريات . وتدخل دول آسيا وافريقيا الفتية مرحلة جديدة في تنميتها عندما يتحول النضال من اجل التحرير القومي الى معركة من الاستقلال الاقتصادي والسيادة الثقافية ضد الاستعمار الجديد وسياسة العدوان . وتتدعم الاتجاهات المضادة للامبريالية في سياساتها وهي تنصرف لحل مشاكلها المعقدة . وتنبعث هذه المشاكل من الحاجة الى الظهور على المسرح الاقتصادي والثقافي العالمي خلال فترة زمنية قصيرة على اساس جديد ، اساس المساواة .

« وقد تنبأ فلاديمير لينين مؤسس الحزب الشيوعي السوفييتي ان « حركة معظم سكان العالم الموجهة اصلا للتحرير القومي ، سوف تولي ظهرها في المدى الطويل للرأسمالية والامبريالية » .

« لقد كان هدف الغزو الاستعماري نهب ثروة وعمل الامم المستعبدة . وكانت الطريقة الاستعمارية للعبودية النفسية هي تحطيم فيمها الثقافية وتنمية الشعور بالنقص لدى المضطهدين ، ولذلك مضى الجهد للحفاظ على اللغات والثقافات القومية والدفاع عنها جنبا الى جنب مع نضال التحرير القومي . وطبيعي ان يتسم الادب الآسيوي الافريقي بالوطنية الحارة والتمسك بالتقاليد القوميه ، ومما له دلالته كذلك ان افضل كتاب القارتين كان لهم دور مباشر في القتال من اجل الحرية ، وان كثيرا منهم ضحى بحياته من اجلها . »

« انه لمن المهم ان نقضي على الامية ونعمل على تسهيل طبع الكتب ونشرها على اتساع وباثمان معقولة . وسوف تخلق هذه الجهود الظروف الضرورية والدعامة الفنية لنشر القيم الثقافية الجديدة وصياغة النظرة الجديدة لدى الشعب .

« ومع ذلك ، يتوقف الامر كله على نوع القيم المعنية . وفي الوقت الراهن نجد ان ملايين الاميين اصبحوا يعرفون الادب ، وناتج هذا ما تسميه اليوم بالمعاصرة . وفي ظل هذه الظروف يصبح الاستعمار الجديد بثقافته الزائفة هو العدو رقم واحد للبلاد النامية وآدابها .

« ان الاستعماريين الغربيين الجدد يسخرون كل وسائلهم الاعلامية لانشاء امبراطوريات ثقافية غير مرئية وتتلاعب بعقول وافئدة الشعوب في المستعمرات السابقة . انهم ينشرون عقائد الطبقة المختارة لمعارضة الاتجاهات الديموقراطية والافكار غير المنطقية لمحاربة الافكار العلمية من اجل نشر الياس والخنوع لقتل الارادة على القتال . والى جانب الادب الجنسي المكشوف يروجون للعنف والفردية الحيوانية ، كما يشن العدوان الثقافي الاستعماري الجديد بطرق اكثر خداعا ولا تقل عن سابقتها ضررا . وتهدف هذه الطرق اولا وقبل كل شيء ، نحو المثقفين والشبان في آسيا وافريقيا . وتتضمن هذه الطرق تزييف تاريخ وفلسفة الشرق والدعاية التي تهدف الى الاخلال بمثل الانسانية ومبادئها . وقد قالوا ان الفنان يعيش في عالم متساهل حيث يستطيع ان يفعل ما يريد وان يبقى بعيدا عن اية التزامات .

« وعندما عقد الكتاب المقدميون في آسيا وافريقيا مؤتمرهم الاول في طشقند ، طرحوا فكرة وحدة الثقافة العالمية التقدمية باجمعها . وتقوم هذه الثقافة على اساس الانسانية الفعالة ورفض اية مبادىء تدعو للعزلة القومية او الدولية او العنصرية . واهم واجبات الادب اليوم هي مزج النموذج الحديث للانسان بروح الوطنية وامداده بشعور الانتماء الى انسانية واحدة لا تتجزأ كي يكون مستعدا للنضال من اجل سعادة وكرامة كل الامم . ومن الطبيعي كذلك انه عندما تستخدم تجربة كل الاداب ، الشرقية والغربية ، بطريقة خلاقة في موقف ثقافي محلي ، وتمزج بالتقاليد الادبية المحلية ، عندئذ فقط تساعد في عملية الاسراع بالتقدم الايديولوجي والجمالي في الآداب الفتية .

« ان الانسانية والاممية ، هما اكثر مطالب عصرنا الحاحا ، وهما ما يجب ان يقدمهما الادب التقدمي في مواجهة ايديولوجية الاستعمار الجديد البالية . »

وبذلك نرى ان موقف الوفد السوفييتي - في هذه الندوة كما في غيرها من المجالات - قاطع وواضح ومحدد ، بازاء القضايا التي اثيرت وتثار دائما . وهو موقف يكاد يقترب من العقائدية لفرط تحديده وهو ايضا ترسيخ وتوطيد للافكار السائدة ، وليس مناقشة لها ..

وكانت كلمة العضوين السوفيتيين اللذين اسهما في الندوة تنمية للافكار ذاتها . اما كلمة مندوب الكونغو ومندوب بلغاريا فقد كانتا - على سبيل القطع - تقعان خارج اطار الندوة تماما ، كانت احداهما عرضا تاريخيا انبائيا للادب في الكونغو ، والاخرى عرضا دعائيا وخطابا ديبلوماسيا عن الادب في بلغاريا ..

* * *

وبهذا انتهت الكلمات والاوراق في الموضوع الاول للندوة ، اما الموضوع الثاني فقد كانت ورقة عبدالله الركيبي اكثر الوثائق جهدا في الاقتراب من موضوع « الاجيال الجديدة » وكان عرضه للموضوع يتركز في ابراز العلاقة الضرورية بين الاجيال الجديدة والسابقة ، وكانت توصياته في نهاية الورقة موضع القبول من الندوة اذ تبنتها البيان العام للندوة - كلها تقريبا ومع تعديلات طفيفة .

وهذه مقتطفات منها :

« فالجيل الجديد من الكتاب يمثل الامل في الغد بالنسبة للاداب وللشعوب في هاتين القارتين ، ومن حقه على الجيل الحالي ان يجد منه الرعاية والتفهم ، ولما كانت فكرة التضامن بين شعوبنا هي الاساس في انشاء المكتب الدائم لكتاب آسيا وافريقيا ، فان تحقيق هذا التضامن ينبغي أن يسهم فيه الادب والسياسة والمواقف الايجابية التي تساعد على تجسيد هذا التضامن واستمراره ، الامر الذي يتطلب العمل الجاد والجهود المتواصلة لترسيخ القواعد التي بني عليها هذا التضامن .

« وفي اعتقادي فان القاعدة المثلى لهذا كله هي تمتين الصلة بين الاجيال في القارتين ، او بتعبير اخر علينا ان نعمق روح التواصل بين الجيل الذي سبقه في ميدان الانتاج الادبي حتى لا تجمد العلاقات او تنبت الاواصر بين من عاش مرحلة الغليان الوطني وبين الطليعة الناشئة وانا اصدر في هذا عن تجربة الكتاب في الجزائر .

« فالجيل الذي حقق وجوده وبلغ اوج عطائه عاش مرحلة تتميز بالنضال ضد الاستعمار ووقف بصلابة ضد الامبريالية خاصة في النصف الاول من هذا القرن ، وعاش تجارب قد تختلف في ملامحها وظروفها وسماتها عن تجارب الجيل الجديد من الادباء ، فهذا الاخير ظهر بعد ان تحققت اهداف معظم شعوبنا في الحرية والاستقلال وفي الاشتراكية ، ومن هنا فان ظروفه مختلفة نسبيا عن ظروف الرواد. ولعل همومه ايضا تختلف نوعا ما عن هموم السابقين عليه .

« ولعل الفرق بين الجيلين يتضح في ان الجيل الرائد كافح

الاستعمار السافر الذي غزا قارتينا بجيوشه واساطيله واستغل اوطاننا بالقوة وتحكم في شعوبنا بالحديد والنار وبمنطق القوي المتفوق. بينما الجيل الجديد فتح أعينه على رحيل هذه الجيوش الغازية ولكنه في الوقت نفسه ما زال يدرك ان هذا الاستعمار الذي انحسر مده ترك آثاره وثقافته الغازية وهيمنة فكره وسيطرة حضارته المتفوقة ، فيشعر انه يعيش معركة من نوع جديد ضد هذه الافكار كلها ويحاول مقاومتها فينتصر عليها مرة وقد يغض الطرف عنها مرة اخرى . وقد يفهم الجيل الرائد او قد ينصفه ان حكم الموضوعية في آرائه واحكامه . على ان الجيل الجديد يعيش هذه التجربة ويشاهد هذا الواقع وهو بين امرين: اما ان يجد الفرصة فيواصل النضال او تسد الطرق في وجهه فيخضع ويستسلم ويستكين للغزو الفكري الاستعماري في شكله الجديد وبذلك تهدم طاقته وتبدد جهوده وتخسر شعوبنا قوة حية بامكانها ان تسهم في تطور مجتمعاتنا وبلداننا ...

« ثم ان هذا الجيل « الجديد » يقوم بمحاولات مختلفة في مجال التعبير ويغامر في مضمار التجديد ويقوم بالتجريب سواء في طريقة البيان او تشكيل المادة وتطويع الاسلوب لافكاره الجديدة حسب رؤيته الخاصة للواقع الذي يتحرك من حوله . بل ان بعض المواهب التي تملك الاداة والكلمة تسعى للتعويض عن مضمون واسع يشمل الحياة والانسان ، لا في البيئة المحلية ولكن في بيئات اخرى كما سبق لي ان قلت .

« ومع ذلك فانا ادرك ان هناك مواهب اخرى ما زالت تتعلق بالاساليب المعروفة التقليدية ولكنها تستخدمها لتصوير الواقع والتعبير عن حركته وسيره وتعقده .

« وقد نلحظ مبالغة واسرافا واعتدادا بالنفس لدى البعض او رغبة في الظهور وتحقيق الوجود في شيء من السرعة والتعجل ، وقد نلحظ اندفاعا شديدا للامام شأن الشباب في كل جيل وعصر ، ولكننا ايضا ندرك ايمانا بالادب ورسالته ودوره في تقدم المجتمع . كما نستشف الصدق في الحس والتعبير من خلال ما ينشر من انتاج ادبي، قصة او قصيدة او مسرحية او مقالا او غيرها من اشكال التعبير الادبي والفني وحين يتوفر الصدق في الشعور والتصوير نتأكد الموهبة فان التفاؤل يحل محل التشاؤم بالنسبة للمستقبل .

« واذا كنا نلحظ ايضا نوعا من الصراع بين الجديد والقديم او نلمح اجتهادا في الرأي والاسلوب ، فان هذا يؤكد سنة الحياة التي تصفي ما له قيمة فيبقى ، وما ليس له قيمة فيذهب ، سواء كان ذلك في الادب او في غيره، وسواء كان الامر يتعلق بالجيل الجديد من الادباء او الجيل السابق او غيرهما من الاجيال الاخرى .

« ومن حق الشباب ان يثور ويجرب ، ومن حقه على الرواد ان يجد الرعاية لفائدة الادب والحياة والتقدم . من حق الطلائع ان يكون لها حق الجراة في التجربة ، ومن حقها ان تحترم تجاربها وتقدر وان تجد التعاطف معها والرفق بها ، وليس من حق الاخرين ان ينصبوا انفسهم مرشدين او ان يستعملوا روح الوصاية ويتخذوا منها ذريعة للتحكم في الحركة الادبية واحتكارها . ان التعاطف مع هذه الطلائع هو الذي يخلق الحوار بين الاجيال ويساعد على الوحدة والتواصل الذي نطمح الى استمراره لا بين الاجيال فحسب ولكن بين قارتينا ، وبين كل انسان يعيش واقعا متشابها مع واقعنا وظروفنا ومطامحنا ».

ولم يفت الكاتب ان يجد التطبيق الضروري لافكاره على تجربة الادب الجزائري فاشار الى ذلك اشارات موحية ..

ليس لي الا تعليق عابر على هذا البحث الذي ينضح فيه جهد الاقتراب من موضوع الندوة ، جهدا محمودا ، ذلك انني احسست ـ رغم كل النية الطيبة ـ بالنغمة الابوية ، والحس المستخفي بالوصاية بازاء ادب الشباب ، ولست في الواقع اعرف شيئا اسم « ادب الشباب » ، فمن اعظم الروائع الادبية ما كتبه « شباب » في العشرينات والامثلة كثيرة ومشهورة ، والادب اما « ادب » او « لا ادب » اما نتاج عظيم وجيد واما شيء لا يمكن وصفه باحسن النسبيات الا بانه (ادب سيء).

وقد كانت هذه النقطة بالذات من نقط المناقشة الحامية التي اثارها الدكتور سهيل ادريس في لجنة الصياغة للبيان العام ، وكان الكاتب اللامع الذكي الذي جاء الندوة من سنغافورة وهو الدكتور جوهبوه سينج ، في كلمته الحية المثيرة التي القاها في الجلسة العامة الختامية للندوة ، قد شارك الدكتور سهيل ادريس الرأي .

وردت الدكتورة سهير القلماوي على هذا الاتجاه بان المقصود هنا شيء مختلف تماما عما كان يحدث في القرن الثامن عشر او التاسع عشر ، وان القرن العشرين قد شهد شيئا جديدا هو كتابات شباب ما قبل العشرين من العمر ، وان لهم اسهاما خاصا ينبغي الاحتفاء به ورعايته وتقييمه ، وليس هو الادب الناضج الكامل الذي قد ينتجه الاديب الشاب العبقري ، بل هو ذلك النوع من الكتابات الذي يقع بين ادب الاطفال وبين الادب المكتمل الذي تحققت له خصائص العمل الفني الجيد ، وان ثمة حاجة حقيقية للعكوف على مثل هذه الكتابات وتشجيعها واتاحة السبل للكشف عنها وتنميتها في الاتجاهات التي نراها صحيحة وسليمة . وهي فكرة خصبة بالطبع وان كان موضع المناقشة هنا هو ايضا تلك النغمة « الابوية » التي تستخفي وراءها. اما كاتب هذه السطور فيحس حرجا من هذه النغمة ، بل خطرا فيها، فما من فنان حق بحاجة الى وصاية او توجيه ، وفي ظني ان من اسرار الابداع الفني الحق والموهبة الفنية الاصيلة مقدرتها على مواجهة التحديات وعلى تحدي المواجهات ايضا ، اي بالتحديد مقدرتها على ان تشق طريقها ، بحساسيتها الخاصة ، وصلابتها الداخلية الخاصة، في غابات الواقع الخارجي التي تكمن فيها ايضا شراسة ضغوط « الاباء » « ورعايتهم » ، « وتوجيهات » القدامى ، مهما كانت ناعمة وطيبة النوايا .

★ ★ ★

لم يبق امامي الا ان اقدم الورقة التي كتبتها الدكتورة سهير القلماوي تحت عنوان « ثقافة الجيل الجديد » وهي تنصب اساسا على ادب الاطفال ، وعلى مقترحات بناءة تدخل في مجال « صناعة » هذا الادب للاطفال ، والاخطار التي يتعرض لها في عالم معقد تجيش فيه التيارات وتتضارب التاثيرات .

« تكمن اهمية هذه الندوة ، لا في موضوعها فحسب ، بل تتخذ اهميتها من كونها ضرورة ملحة لحل بعض المشاكل المتعقدة التي تواجه مستقبل تضامننا ، ان نضالنا يواجه العديد من القوى المضادة للانسانية وكذلك الكثير من الاسلحة الجديدة ، وعلينا ان نمحص ونعيد تمحيص اهدافنا وادواتنا والخطوات التي قطعناها بالفعل .والحقيقة الكبرى التي يجب علينا ان نعيها دوما هي ان نضالنا يجب ان يستمر لجيل قادم على الاقل .

« ومن اجل هذا الجيل الجديد نجتمع هنا ..في مانيلا .

« ان الطفل اليوم لا يستطيع مواصلة تحصيل العلم والثقافة الضرورية بنفس الطريقة التي اعتادها اجداده . لم يعد البيت مصدرا للمعرفة . اصبحت كل عمليات الانتاج تتم الان في المصانع . ولم يعد بمقدور الطفل ان يتعلم شيئا عن عملية الخبز والنسيج والتمريض والحياكة وغيرها مما اعتاد رؤيته او المشاركة في صنعه في قديم الزمان . ولم تعد الحياة خارج بيته ومدرسته محدودة او بسيطة . لم تعد واضحة او مفهومة . انه يخرج من كليهما، يتحرك، ويرحل الاف الاميال ويرى العالم ويقترب منه في الكتب وعلى شاشتي التليفزيون والسينما .

« ان للصغار شغفا دائما بالمعرفة ، يتعلمون بسرعة وغالبا

ما يسهل التأثير فيهم . وعلينا ان نهيء جيلا جديدا يعي مشاكل المواقف ، والفائدة والمكاسب التي يمكنه الحصول عليها عن طريق التضامن الذي يستطيع تحقيقه والنظرة الواضحة لمستقبل البشرية كما يمكننا ان نراه .

« ان طوفان المواد الثقافية الذي يصب في عقول شبابنا واطفالنا وقلوبهم ضخم وتقدم له الاشياء المادية المحيطه مساهمه كبيرة فيذلك عن طريق الالات التي يستخدمها والسيارات التي يركبها والاشياء التي يستعملها . وهذه الاشياء ان لم تكن منتجة محلية ، فانها تحمل معها فكرة تفوق دولة اخرى ، واذا كانت هذه الدولة في العادة دولة امبريالية كان الانطباع غير المحسوس غير صحي على الاطلاق »

« واذا ما تحدثنا عن الثقافة ، وهي موضوعنا في هذه الندوة، فاننا ناتي الى اخطر النواحي في اعلام اطفالنا وشبابنا . ان الصراع بين التراث القومي والقيم القومية الموجودة وما نسميه بحق الثقافات الغازية صراع معقد وصعب . وعبثا نحاول ان نفرض على اطفالنا ما يجب عليهم ان يتقبلوه وما لا يجب . وان للاطفال شغفا بالمعرفة ولكن لهم طريقتهم في الاختيار ، وهم يحبون ممارسة ارادتهم الخاصة . وما يحصلون عليه في النهاية هو ما يروقهم ويجذبهم .

« كيف يتسنى لنا ان نجعل قيمنا وثقافتنا القومية واهدافنا في الحرية والسلام ونظرتنا الى هذا العالم الذي نعيش فيه جذابا ومشوقا بالنسبة لاطفالنا ؟ واذا ما نحينا ثقافه ميكي ماوس والرجل الوطواط وجيمس بوند وسوبرمان وما شابهها ، فماذا نعطي الطفل بدلا منها ؟ وهل يروق هذا البديل للطفل ؟

« اننا في مصر نواجه هذه المشكلة منذ عشر سنوات على الاقل. وقد دعونا اخواننا العرب لكي نعمل معا . وعقدنا ندوتين عربيتين ، محليتين احداهما عن برامج الاطفال في التليفزيون والاذاعة ، والاخرى عن كتب ومجلات الاطفال في العالم العربي . وعقدت ندوتان اخريان احداهما عن برامج السينما والمسرح المصريين للاطفال،والاخرى عن مضمون ثقافة الطفل العربية . وعقدت كذلك ندوات اخرى في بيروت والكويت وغيرها من انحاء العالم العربي لمعالجة المشكلة ذاتها .

« وقد نوقشت مشاكل اخرى الى جانب مشاكل التقليد وتدفق المواد الاجنبية ، ومشاكل اللغة ، والقيم والموضوعات القومية والدينية وفنون وسائل الاعلام .

« ومن واقع خبرتي في هذه الاجتماعات التي حضرتها ورأست معظمها ، كانت المشكلة الرئيسية هي كيف يمكن اعداد الخبراءالقادرين على خلق المادة الجذابة ونقلها الى اطفالنا والناشئة .

« ان الموضوع يحظى بابلغ الاهتمام في كل انحاء العالم .وتوجد دور نشر خاصة في الاتحاد السوفييتي مثل ديتسكايا ليتراتورا ، وفي ايطاليا نجد الكابيتول الى جانب ما يوجد بالفعل من فرق عديدة متخصصة تجتمع لتاليف دوائر المعارف وكتب المعرفة والافلام وبرامج التليفزيون والاذاعة لتوزيعها في كل ارجاء العالم . وتوجد بالفعل بعض الوكالات المتخصصة في الافلام العلمية للاطفال . ونحن نأخذ هذه ونستخدمها على نطاق واسع ، دون ان نفرق بينها احيانا ،ونعتقد انها آمنه دائما لانها علمية ، والتسهيلات التي تقدمها الدور الغربية لنقل هذه المواد لاطفالنا مشجعة بل انها مغرية .

« ماذا نفعل ؟ هل نواصل النضال من اجل العدالة والسلام،ونترك اطفالنا بلا استعداد لاداء مهمة المستقبل الشاقة في هذا النضال الصعب ونتركهم ليعيشوا امما مستغلة تطاها اقدام الامبرياليين الرهيبة ..

« ان علينا ان نقبل التحدي كله بما يليق به من وعي وجديه . ان باستطاعة كتابنا ان يحصلوا على التكنيك . ويمكن ان تتلاقى فرق العمل . يستطيع العالم القادر على التبسط ومعلم الطفل وعالم النفس والمدرب وخبير وسائل الاعلام الجماهيري ، يستطيعون جميعا الالتقاء بالكاتب والفنان لانتاج المادة الثقافية التي تنقل الى اطفالنا ، المادة الثقافية التي تساعد اطفالنا وشبابنا على معرفه دورهم القادم الذي يمنحهم ايمانا راسخا بامتهم ايمانا بان مواردها ملك لهم وانهم هم الذين سيستخدمونها ولن يستغل امتهم احد كما استغل الرأسماليون الطبقة العاملة بل كما لا يزالون يفعلون في بعض اجزاء العالم .

« يجب ان ينمو اطفالنا وشبابنا ليصبحوا افضل العلماء ، وافضل الفنيين في اي مجال لانهم سوف يخدمون عن جدارة النضال النبيل الذي ينبغي على جيلهم مواصلته .

« وينبغي ان نؤكد عزمنا في نضامننا ووحدتنا على تعليم وتدريب خبراء ثقافة الاطفال . ويجب دائما ان نعد افضل الفنيين في اي مجال ونقرب بينهم في عمل تسوده روح الفريق حتى يتاح لاطفالنا افضل بديل للثقافة غير الصحية التي يتعرضون لها حاليا .

« ودعونا، ابتداء من هذه الندوة فصاعدا ، ان نعبيء كل طاقاتنا لتحقيق هذا الهدف ، ولنعط لصغارنا الامل والوسيلة ليعيشوا في عالم افضل ، عالم لا تمنحه لهم ملائكة الخير والرحمة ، بل عالم يجب عليهم ان يبلغوه بنضالهم المتواصل وايمانهم المستمر بالانسانية والقيم الانسانية ، عالم العدالة والسلام » .

* * *

اما الورقة الاخيرة التي اعرض لها ، بمجرد الاشارة الوصفية ، فهي ورقة عبدالتواب يوسف من مصر ، وهي ورقة متخصصة فيادب الاطفال ، تاريخه وتطوره ودوره في البلاد النامية ، ودور اجهزة الاعلام بالنسبة له ، وعرض لاوضاعه وتاريخه في البلاد العربية ، وتناول لمضمونه من حيث ضرورة ابراز قيم « الالتزام » والقضايا الوطنية والانسانية والصراع ضد الاستعمار والامبريالية والعنصرية فيه ، وتوكيد لاهمية « الخيال » ودوران المواد الخيالية فيه ، وهو ينهي ورقته على النحو التالي :

« ان علينا ان ندرك ان العمل الواقعي ليس سوى ثمرة خيال ، واننا حين نقدم عملا واقعيا لا نقدمه كما هو وكما حدث تماما ، فالفنان ليس آلة تصوير تنقل ما امامها ، انما الفنان يقدم «رؤيا» واقعية سواء امسك بالفرشاة او القلم ، وهو لا ينقل ما يراه وما يجري تحت ابصاره بل يلتقط منه ما يعبر به عن وجهة نظره وما يراه وقعا للوجود على الوجدان ، وتصوير احاسيس الفلسطينيين لا يحتاج من الكاتب ان يكون فلسطينيا فقد دياره وبيارته وبيته ، انما هو يتقمص دوره ويشعر بمشاعره ويعبر عنها .. ان المهم هنا هو نقل التجربة .. وبالذات في مجال الاطفال .. سواء اتجهنا في هذا الى قصص البيولا ، اي قصص الحكم المروية على السنةالحيوان، او الى الحكايات الخرافية الشعبية او الى الاساطير القديمة او خلقنا اعمالا خيالية جديدة في مجالات ميتافيزيقية او علمية .. المهمفي كل ذلك ان يكون ما نرويه اطارا للتجربة متسقا معها شكلا ومضمونا ملتحما بطريقة مقنعة ومثيرة ، والخيال هنا هام وضروري لتاكيد ما هو واقع ، ولا بد منه لاختيار الاسلوب والشكل المؤثر والناقلللفكرة. ان للخيال هدفه وللواقع هدفه . وهما معا ضفيرتان نجدل منهما

حياة الطفل ونفسيه . أن النمو العقلي غير كاف اذا لم يصاحبه النمو الوجداني وكلاهما يحتاج منا الى جهود حقيقية ، تبذل في سخاء لبناء ابنائنا .»

وفي نفس هذا الاتجاه المتخصص قدمت الكاتبة سيريس الابادو من الفيليبين بحثها ، وقدمت لنا عرضا شائقا وتفصيليا لادب الاطفال في الفيليبين ، وهو بحث مكانه في الواقع ندوة متخصصة عن ادب الاطفال، بينما كنا قد رأينا ان ندوتنا في الفيليبين لم تكن هذه الندوة، او على الاصح لم تتخصص في هذا المجال ، واكتفت بان تتناول جوانب عامة عن ادب الاجيال الجديدة « وان تمس ايضا عناصر عامة في الثقافة والادب ، لا تقتصر على الاجيال الجديدة ، بل يصح علاجها في ادب كل جيل ، وان كانت الاضواء هنا ، بحكم الضرورة والواقع، تتجه الى مشاكل الادب فيما نسميه « بالعالم الثالث » .

هذه الاتجاهات هي التي عبر عنها البيان العام للندوة ، وهو وثيقة هامة ـ باي معيار ـ في تطور حركة الادب الافريقي الاسيوي :ـ

* * *

« البيان العام »

« ان افضل الابداعات الادبية والفنية يتجاوز حدود السن والزمان والمكان . ولكن الادب يعتمد في تراثه وتجدده على انتاج الجيل بعد الجيل . وانطلاقا من هذه الحقيقة اختير موضوع « الادب والاجيال الجديدة » ليكون الموضوع الرئيسي للندوة الرابعة للكتاب الافرو اسيويين المنعقدة في مانيلا في الفترة من ٣١ يناير الى ٢ فبراير سنة ١٩٧٥ استجابة لدعوة اتحاد الكتاب الفيليبينيين .

« وقد حضرت الندوة وفود ومراقبون من ٢٦ بلدا اسيويا وافريقيا بالاضافة لبعض الكتاب المعروفين من اوروبا واستراليا والولايات المتحدة الامريكية . كما مثلت منظمة الوحدة الافريقية في الندوة . وقد ناقشت الندوة دور الادب في تضامن السلم العالمي والنضال ضد الامبريالية والاستعمار والاستعمار الجديد والعنصرية والصهيونية . واكدت على اهمية الادب كعامل ايديولوجي اساسي في تحقيق الوحدة الوطنية والتحرر الوطني ، وحق تقرير المصير ونهضة الشعوب الافرو اسيوية . وفي هذا الخصوص اولت الندوة اهتماما خاصا لدور الجيل الصاعد من الكتاب والقراء والادب الذي ينتجه او ينتج من اجله .

« واكد المشتركون في الندوة على ان العمل الادبي يتصل اتصالا عضويا بالنضال الانساني الدائب من اجل الحرية والعدالة والحياة الكريمة . ومن ثمة فان كفاح المحرومين والمستعبدين في الاقطار الافرو اسيوية ضد قوى الامبريالية والاستعمار بكافة اشكالهما ، وضد التمييز العنصري والتعصب الضيق والنعرات الوطنية يجب ان يتضمنه الادب المعاصر الجديد ، ولا سيما الادب الذي تبدعه الاجيال الصاعدة او يبدع من اجلها .

« ان هذا النضال قد اتخذ اليوم ابعادا جديدة كجزء لا يتجزأ من نضال الشعوب الاسيوية الافريقية من اجل بناء مجتمعاتها على اساس عادل متكافيء لتاكيد سيادتها على مواردها الطبيعية ومن اجل تطورها الاقتصادي والاجتماعي لحماية ثرواتها القومية من الاستغلال الاجنبي وتدعيم روابط التضامن والتعاون بينها .

« ومن ثمة فقد ساندت الندوة المواقف التي اتخذتها حركة الكتاب الافرو اسيويين في :

* مساندة شعب فيتنام في نضاله البطولي ضد العدوان الامبريالي وشعب لاوس وكمبوديا في سبيل السلام العادل والدائم .

* مساندة نضال الشعوب العربية ضد الصهيونية المؤيدة من الامبريالية العالمية من اجل تحرير كافة اراضيها المغتصبة ، وكذلك نضال الشعب الفلسطيني بقيادة منظمة التحرير الفلسطينية ـ الممثل الشرعي للشعب الفلسطيني في نضاله من اجل عودته وتقرير مصيره وحقه في اقامة دولة علمانية ديمقراطية على ارض اجداده .

وفي هذا الخصوص تلاحظ الندوة ان حرب اكتوبر قد دللت على التحام التحرر العربي المسلح بالحركة العالمية المعادية للامبريالية .

« وتشجب الندوة التدخلات الاسرائيلية المسلحة المتكررة في جنوب لبنان وعدوانها العسكري والثقافي ضد مصر وسوريا ومخيمات اللاجئين الفلسطينيين .

* تأكيد تضامننا مع المناضلين في غينيا بيساو وجزر الراس الاخضر وموزمبيق وانجولا ونرجو لهم النجاح في زحفهم في سبيل الاستقلال الوطني الكامل .

* تأكيد مساندتنا للمناضلين في زيمبابوي وجنوب افريقيا وناميبيا في نضالهم ضد الاضطهاد العنصري غير الانساني الذي يجب ان ينعذب به ضمير البشرية باسرها وان يتحمل مسئوليته .

* شجب الجرائم التي ترتكبها العصابة الفاشية في شيلي والتدخلات الامبريالية في اقطار امريكا اللاتينية .

* تأكيد ضرورة التحالف بين حركات التحرر الوطني وشعوب البلاد النامية ، والقوى الديموقراطية والتقدمية في العالم الغربي والبلدان الاشتراكية .

« وقد رأى المشتركون في الندوة ان الكتاب في اسيا وافريقيا يجب ان يسعوا في سبيل تضمين العناصر التقدمية داخل تراثهم الادبي من ناحية ومن الناحية الاخرى أن يسعوا في سبيل اثراء ادبهم بالتجربة والتقنية المعاصرتين لمواجهة تحدي التقدم العلمي والتكنولوجي .

* تطوير روح المبادرة والعمل الايجابي والتفاؤل والفرح بالحياة بكافة الوسائل التكنولوجية وذلك من خلال الكلمة المطبوعة والمذاعة والمرئية في التليفزيون والسينما ومن خلال رفع المستويات الجمالية ورفع مستوى المضمون الذي تقدمه كافة الوسائل الاعلامية .

* توسيع مجال النشر والطبع والتوزيع وفي الوقت نفسه حماية التقاليد الادبية والادب الشعبي التي تناقلتها شعوبنا من جيل الى جيل .

* توعية شعوبنا بالاسباب الحقيقية والموضوعية التي تكمن وراء الفقر والحرمان الثقافي كنتيجة لسنوات السيطرة الاستعمارية المظلمة الطويلة التي لا زالت مستمرة حتى وقتنا هذا باشكال متعددة، وفي الوقت نفسه كشف النقاب عن الثروة الطبيعية والروحية لشعوبنا التي تعتبر الوريث الشرعي لهذه الثروة .

* تنمية روح التعاطف والتعاون بين كافة الشعوب ومواجهة المؤثرات الضارة التي تشيع الكراهية والعنف والانحلال .

* التأكيد من جديد على حق الكتاب في كل مكان في حرية التعبير الذاتي الخلاق البناء وادانة جميع محاولات قمع الحرية .

وتوصي الندوة بما يلي :

اولا ـ انشاء مجلة مخصصة لادب الاجيال الجديدة في القارتين

بحيث تقوم بنشر وتقييم كتاباتهم ، وكخطوة اولى تشجيع مجلة لوتس على تخصيص جزء لادب الاجيال الجديدة .

ثانيا ــ تشجيع ترجمة ادب الاجيال الجديدة لتسهيل تبادل هذه الترجمات بين البلدان الافريقية والاسيوية وخلق القنوات المتخصصة القادرة على تحقيق هذه المبادلات .

ثالثا ــ تنظيم الندوات وحلقات البحث تحت رعاية اتحاد الكتاب في اسيا وافريقيا ، لتمكين الكتاب الشباب من الالتقاء ومناقشة مشاكلهم وتبادل تجاربهم وخبراتهم .

رابعا ــ متابعة التوصيات والقرارات التي تم اتخاذها في المؤتمرات التي عقدها اتحاد الكتاب الافرو آسيويين والتي تتعلق بالكتاب الشبان ولا سيما المتعلقة بالجوائز والمنح الدراسية والزيارات التي تنظمها البلدان الافريقية والاسيوية والاشتراكية .

خامسا ــ انشاء لجنة خاصة لادب الاجيال الجديدة في اطار المكتب الدائم للكتاب الافريقيين الاسيويين .

سادسا ــ تكليف المتخصصين الاسيويين الافريقيين في الادب ومختلف الميادين العلمية اعداد وتطوير المادة المناسبة للاطفال والاجيال الجديدة .

« ومن هذا المنطلق ترى الندوة ان الادب الحق الاصيل ، سواء أكان ادب القدامى او ادب المحدثين وأيا كان قالبه الفني وادائه التكنيكية يتضمن كل الكتابات التي تثري العقل البشري . ويزود الاجيال الجديدة بمرآة للذات وهو شريعة للايمان العقلي بالانسانية والسلام والحرية والعدالة ، ومناخ للحساسية والشعور المرهف بالالام الانساني والمعاناة الانسانية ، وصرخة مدوية للقتال ضد القسوة والقمع والقهر ، وكنز من الاغنيات الرقيقة التي تشدو بالمحبة والحنو والجمال والحق » .

قرىء هذا البيان العام في الجلسة الختامية للندوة ، التي انعقدت في قاعة الاجتماعات في فندق « نابونج فيليبينو » اي « القرية الفيليبينية » وهو الفندق الباذخ الذي اقمنا فيه وعقدنا فيه ندوتنا على مبعدة دقائق من المطار . وبالتصفيق الجماعي تم اقرار البيان العام ، والقى ادريان كريستوبال كلمة هزت الشاعر ، دعانا فيها الى « ان نمضي ونكتب ! فهذه هي مهمتنا الحقيقية » . وكان قد اشار الى الامسية الشعرية التي انعقدت في قلعة سنتياجو ، بين جدران الاطلال الباقية من طغيان الاسبان ووحشية اليابانيين . تحدث كريستوبال عن القصائد التي القيت وخص بالذكر منها قصيدة معين بسيسو التي اسماها حوارا بين الحب والموت ، ومرة اخرى في الجلسة الختامية اثبتت فلسطين وجودها عندما قال كريستوبال : « ان الكتاب الفلسطينيين يعرفون الموت والحب كما لا يعرفهما الا القلائل منا » .

القاهرة — ادوار الخراط

النشاط الثقافي في العالم

تشيكوسلوفاكيا

حديث تشيكوسلوفاكي ـ لبناني

في أواخر السنة الماضية ، زار تشيكوسلوفاكيا بدعوة من اتحاد الكتاب التشيكوسلوفاكيين ، وفد من اتحاد الكتاب اللبنانيين مكون من الشاعرين الدكتور ميشال سليمان والاستاذ فؤاد الخشن . وقد ناقش الوفد اللبناني ووقع اتفاقية ثقافية مع اتحاد الكتاب التشيكوسلوفاكيين، تنص على التعاون والتبادل الادبي والثقافي بين الاتحادين ، وما يتصل بذلك من تعريف كل من شعبي البلدين على ادب الشعب الاخر .

وفي اثناء هذه الزيارة حصلت بين ممثلي اتحاد الكتاب اللبنانيين وبين ممثلي اتحاد الكتاب التشيكوسلوفاكيين عدة جلسات دار فيها النقاش حول النشاطات الادبية في كل من لبنان وتشيكوسلوفاكيا . وكان ذلك في دار اتحاد الكتاب التشيكوسلوفاكيين ، وقد حضرها من الجانب التشيكي السيدة سودروفا المسؤولة عن قطاع العلاقات الخارجية في الاتحاد التشيكوسلوفاكي والسيدة مازيلوفا ، والادباء : بلودك ، والدكتور ستنفل ، والدكتور بيلاش ، والدكتور زادنيك بلوهاش ، والدكتور ج. اوزفالد المستشرق ومرافق الوفد اللبناني،وهو يتقن العربية والفارسية الى جانب عدة لغات اوروبية .

وجدير بالذكر ان الدكتور بيلاش هو شاعر معروف ، ونائب مدير دار النشر المعروفة باسم « الكاتب التشيكوسلوفاكي ».

والدكتور الكسي بلوديك ، روائي يتحدث في بعض رواياته عن جوانب من الحياة العربية ، وخاصة روايته « فابنك » التي بطلها مهندس تشيكي عمل في بناء مصفاة النفط في حمص بسوريا ، وهي مرتبطة باحداث العالم العربي وآسيا ، كما انه صاحب رواية بعنوان « كاتب الفرعون » وهي تاريخية تتحدث عن حقبة من تطور مصر زمن الفراعنة . وقد حضر الدكتور بلوديك المؤتمر الثاني للادباء العرب في دمشق .

والدكتور ستنفل وهو ، روائي يتقن اثنتي عشرة لغة ، وقد زار لبنان ومصر ، وامضى وقتا غير قليل في منطقة الشرق الاوسط .

والدكتور زدانيك بلوهاش وهو كاتب وروائي معروف .

وقد تحدث الادباء التشيكوسلوفاكيون في مستهل الجلسة عن اتحادهم ، فقالوا بانه جديد ، وقد تأسس سنة ١٩٧٠ . ذلك لان الاتحاد السابق قد حل بسبب تخلفه عن القيام بمسؤولياته اثناء الازمة الحادة التي عصفت بتشيكوسلوفاكيا سنة ١٩٦٨ وما تلاها . وتأسس اتحادهم الراهن وهو يقوم بالفعل على اتحادين : تشيكي وسلوفاكي ، يجدان تعبيرا اعلى لهما في مجلس قيادة موحد ، ويتكون من ثمانية اعضاء هم : الدكتور يان كوزاك رئيس الاتحاد التشيكي ورئيس اللجنة المشتركة ، والاساتذة دونات شانير الرئيس التنفيذي للاتحاد ، والفنان الوطني جوزف ريباك وهو نائب رئيس اتحاد الكتاب التشيك، والدكتور او لدريخ رافاي رئيس تحرير « المجلة الادبية الشهرية ».

اما الاعضاء السلوفاكيون فهم : الفنان الوطني اندري بلاوكا رئيس اتحاد الكتاب السلوفاكيين ، ويان سولوفيتش وهو كاتب مسرحي ، والسكرتير العام التنفيذي لاتحاد الكتاب السلوفاكيين ، والدكتور بافل كويش وهو شاعر ونائب وزير الثقافة في سلوفاكيا ، والدكتور فلاديمير رايسل رئيس تحرير مجلة « النظرات السلوفاكية » .

وعقب هذا الحديث الموجز المعرف بتكوين اتحاد الكتاب التشيكوسلوفاكيين تحدث الكتاب التشيكوسلوفاكيون عن شروط الانتساب الى اتحادهم ، وهي تتمثل في ان يكون الكاتب وطني النزعة، وله اثران ادبيان يؤهلانه للانتساب للاتحاد اثر مطالعة تقوم بها لجنة مكلفة من الهيئة الادارية ، وتناقشها الهيئة في جلسة او اكثر من جلسة احيانا .

ثم جرى حوار بين الوفدين : اللبناني والتشيكوسلوفاكي ، تناول بعض وجوه الحياة الادبية والفنية . وهذا اهم ما جاء في تلك الجلسة:

د. ميشال سليمان : يسعدنا في هذا اللقاء الطيب ان نتعرف على بعض الاتجاهات الادبية التشيكوسلوفاكية الحديثة . ولا بأس ان نبدأ بالشعر ما دام ممثلا بشعراء تشيكيين كبار امثال الدكتور بيلاش .

د. بيلاش : انها فرصة سعيدة ، ان نجتمع هنا في دار اتحاد الكتاب التشيكوسلوفاكيين بشعراء اصدقاء من لبنان . كما يطيب لي ان اتحدث امامهم عن تطور الشعر في بلدنا . فقبل مدة قصيرة صدر كتاب هنا بثلاثة مجلدات يتحدث عن تطور شعرنا خلال الفسنة.والواقع ان شعرنا قريب من الاغنية . وله نغم خاص . فهناك ايقاع منظم ، وهو كثيرا ما يستفيد من القافية . الايقاع في الاصل كان على اساس المقطع اللفظي « سيلاب » وبمرور الزمن ، وخاصةفي القرن التاسع عشر ، انتقل الى الكتابة المقطعية التي يتمثل فيها كل مقطع بحرف . فلغتنا غنية بالمقاطع الكبيرة والصغيرة .

د. ميشال سليمان : لم تتوضح لنا كثيرا هذه القضية فيما يتعلق بالمقطع اللفظي ؟

د. بيلاش : اريد ان اقول بان شعرنا قائم على مقاطع ، وهي احدى خصائص الشعر التشيكي . وفي اواخر القرن التاسع عشر تأثر هذا الشعر بالشعر الفرنسي . وقد نجح شاعرنا « نزفال » في هذه التجربة التي تتناول الايقاع والنغم على السواء .

د. ميشال سليمان : وما موقف الشعر الحديث من هذه الاسلوبية التي اعتمدت مدة طويلة في الشعر التشيكوسلوفاكي ؟

د. بيلاش : لقد استفاد شعرنا كثيرا ، ويستفيد من الكلاسيكية الفرنسية . وشعرنا الحديث يستفيد من الحوار اكثر مما يستفيد من القافية . فالاهمية هنا للصوت النغمي وان عارض الكتابة . وفي السنوات الخمسين الاخيرة ، جرب شعرنا هذا الاتجاه . وكانت تصدر في مجلة خاصة به . لكن الطابع الاصيل للشعر التشيكي ظل قائما ومتصلا بما يناسب قيمه ومقوماته الاساسية . وهنا اهمية « نزفال » الذي تمكن بشعره ان يمنح الناس ملايين العيون .

وفي السنوات التي عرفت « بسنوات الازمة » كان في براغ تيار شعري قائم على التلاعب بالصور والكلمات . ولكن بعد مدة ليست مديدة ظهر ان هذا التيار ليس جديا ولا مجديا . لان الشعر عندنا ، كان في السابق كما هو حاليا ، يعيش مع الشعب . وثمة ارتباط وثيق بين الشاعر عندنا وبين القارىء .

د . ميشال سليمان : أنتم تمثلون دارا للنشر مهمة . فما هي الخدمات التي قدمتموها للشعر على صعيد النشر ؟

د . بيلاش : لقد اصدرت دارنا ستة ملايين نسخة من كتب الشعر ، خلال خمسة وعشرين عاما . وثمة مجموعات شعرية طبع منها بين العشرين والثلاثين الف نسخة . ويطيب لي ان اعلن لكم بان الشبان عندنا ، في حفلات الرقص او ما شابهها ، يقدم بعضهم للبعض مجموعات شعرية لانها تساعدهم في حياتهم العاطفية والخاصة .

د . ميشال سليمان : قلتم بان التيارات الشعرية التي تعيش على الصورة واللفظة لم تعمر طويلا ، وذلك لان الشعر يعيش مع الشعب . فهل معنى ذلك انكم تتبنون في شعركم مفهوم مدرسة فنية معينة .. الواقعية الاشتراكية مثلا ؟

د . بيلاش : أتصور ان الواقعية الاشتراكية ليست مدرسة تصح مقارنتها مع المدارس الادبية والفنية الاخرى . انها تعني عندي : فن المرحلة الاشتراكية . وهذه هي صفتها الاساسية . ففي عهد الجمهورية الرأسمالية ، كانت اكثرية الكتاب والفنانين ، شيوعية . وكان لدينا علماء الجمال الماركسيون المتازون امثال « نويمان » ، وبمناسبة الاحتفال بمرور ثلاثين عاما على قيام جمهوريتنا اخترنا مجموعتين من الشعر تنطويان على الخصائص التي تميز بها خلال مرحلتين ، وما يتصل بهما من تمجيد حار للتقدم الذي يتطور في هذا البلد . واهم ما في هاتين المجموعتين غنائية « نزفال » المتعلقة بالانسان والوطن ، « وحلم » جوزيف كانيار الذي يرسم من خلاله خلفية شعبنا عبر مصير طفل يولد وينمو في هذا الوطن .

د . ميشال سليمان : نحن نعلم ، واظن بانكم توافقون على ذلك ، ان قيمة الشعر العليا ، في معيار عطائه وتقييمه ، تكمن في جماليته . فما الجمالية عندكم ؟

د . بيلاش : في اثناء عملي ، كمسؤول عن دار للنشر تعنى اكثر ما تعنى بالشعر ، يترتب علي كثيرا ان اجيب على مثل هذا السؤال البالغ الاهمية . علما ان دارنا تضم عددا من النقاد الجماليين الذين يختارون ما يطبع وينشر .

واول ما افهمه بالجمالية هو المعرفة العميقة للشعر ، وقدرته على الكشوف . والمهم هنا اكتشاف الجديد الذي يعبر عن الحاح عاطفة الحياة ، وان يتعامل مع اللغة تعاملا صوريا استعاريا . ان لغتنا ، كاللغة العربية ، تستطيع ان تقول الشعر من تلقاء ذاتها . ومن هنا اخلص الى القول بان الجمالية الاشتراكية التي افهمها هي ان نعيش وقتنا ، لكي يكون التعبير عنه تعبيرا صحيحا ومقنعا .

الدكتور بلوديك يتدخل هنا قائلا :

ـ ان الجمالية تتضمن توظيف الاستعارات والصور في خدمة الانسان ، وتربيته بشكل ثوري جديد . (ثم يتابع الحوار فيقول :) لقد اتيح لي ان احضر المؤتمر الثامن للادباء العرب الذي عقد في دمشق ، حيث التقيت بالشاعر الدكتور سليمان . وقد اعجبت بالطريقة التي كان الشعراء والادباء العرب يلقون بها قصائدهم ، ومداخلاتهم .

اما انا ، فقد بدأت اهتم بالعالم العربي منذ ما اردت ان اكتب رواية عن مصر القديمة . وقد ذهبت الى مصر فعلا . ووجدت في وثائق تل العمارة اسانيد تتعلق بمصر وسوريا ولبنان . لكنني كنت مهتما بالعصر القديم . ووضعت روايتي بعنوان « كاتب الفرعون » . وقد زرت لبنان وسوريا فيما بعد عدة مرات . وعندما وضعت احدث رواية لي ، جعلت احد ابطالها عربيا من فلسطين ، يعيش في سوريا ولبنان ويزور تشيكوسلوفاكيا . وهو يقوم بدور الملق على الاحداث التشيكوسلوفاكية ، لانه اجنبي ويتمتع بنظرة اكثر عمقا من التشيكي . وقد التقيت ببطل الرواية هذا في مدينة حمص ، ابان بناء مصفاة البترول ، وهكذا ارتبطت قضايا الشرق الاوسط باوضاع تشيكوسلوفاكيا في روايتي التي عنوانها « فابانك » وهي تعالج الاحداث التي وقعت ابان حرب ٦٧ حتى العام ٦٨ في تشيكوسلوفاكيا .

فؤاد الخشن : يبدو انك مطلع على الواقع العربي الى حد كبير ؟

د . بلوديك : نعم . واني معجب بحضارتكم . واريد في المستقبل ان ادرج مشاكل الشرق الاوسط في مؤلفاتي . وعندي ان العالم العربي كثير الدينامية . ان له دينامية خاصة . وانا اعرف الهند ، فاذا قارنا مثلا العالم العربي بالهند ، نرى بان الاول اكثر دينامية من الثاني . كما انني اريد ان ازور المغرب العربي ، لان ثمة فوارق بين المشرق والمغرب ، واود معرفتها . واني اتيح المجال الان لزميلي الدكتور بلوهاش ليدلي برايه في هذا الموضوع ، فهو مهندس ايضا واديب .

فؤاد الخشن : يبدو ان العلاقة وثيقة عندكم بين الهندسة والادب ؟

د . بلوهاش : انا اخشى ان يكون ضيفانا قد اعتبرا ان النثر التشيكي في ايدي المهندسين ، ولكن المهندسين هم ايضا مهندسو العقول . فانا بالمناسبة مهندس معمار . وكنت اعمل في البناء قبل ان اتفرغ للادب ، ومن البناء جئت مدرسة الحياة الجديدة . فمهنتي الفنية مكنتني من التعرف العميق على نفوس العمال وطريقة تفكيرهم ، وعلى تفكير ومشاعر الذين يقضون اكثرية حياتهم خارج المدينة منصرفين الى العمل اليدوي .

انا لا اريد التحدث عن مؤلفاتي . الا انني اعتبر نفسي كسائر الكتاب ، ملتزما ، لا بالمعنى التربوي للكلمة ، ولكن بالمعنى الذي تشمله الكلمة من حياة معينة وواقع نظام . لقد تحدثنا عن الواقعية الاشتراكية ، وانا اعتقد مثل بقية الزملاء ان الواقعية الاشتراكية ليست مسالة شكل وحسب ، وانما هي مسالة تتعلق بموقف الاديب والشاعر من الواقع ، كما تتعلق بنظرته الى العالم .

د . ميشال سليمان : واذا نظرنا هنا الى مسالة العلاقة بين الشاعر والاديب وبين القارىء فماذا تكون النتيجة ؟

د . بلوهاش : اذا نظرنا الى هذه المسالة رأينا ان القارىء الحديث يبحث دائما عن المحتويات الاجتماعية الاساسية لدى الشاعر والكاتب . انه يريد المقارنة بين نظرته الخاصة وبين نظرة الفنان الى الدنيا ، الى الحياة ، والى بعض المسائل الاخلاقية والاجتماعية . واعتقد ان القارىء يشتاق الى الكتب التي يمكنه ان يعيش فيها اللحظات النادرة التي سيشاهد ويدرك من خلالها الحقيقة من وجهة عاطفية وفكرية ، كما يقول الناقد الكبير شيلدر ، فقد كان يسمي هذه اللحظات ثواني النفس ، اي اللحظات التي ترتقي فيها نفس الانسان من خلال الكتب الى مستوى نفسي وفكري اعلى .

د . ستنفل : ليسمح لي ضيفانا الكريمان ، والزملاء التشيكوسلوفاكيين بابداء رأي في الموضوع . فمن الاهمية عندي ان يطلع زملاؤنا اللبنانيون على تجاربنا الادبية وان نقوم نحن بدور مماثل ،

انا اكتب نوعين من الادب . الاول وهو اقل في تاليفي ،وهو روائي، واني اكتب في الوقت الحاضر رواية حول عمال المناجم . ومع اني لست مهندسا ، الا انني ربيت بين هؤلاء العمال ، فابي عامل منجم، واريد بهذه الرواية ان اعبر عن الحياة الراهنة التي يعيشونها ، واسم الرواية ((الموزع)) وهو صفة عاملة تعمل في توزيع الفحم على القطاعات المنجمية . وقد اردت بهذا الاسم تقديم المعنى الذي يتضمنه التوزيع الطبقي والاجتماعي عقب سنة ١٩٤٨ في بلدنا .

اما القسم الثاني من نشاطي الادبي فهو ما يسمونه بـادب الحقيقة ، المغاير لما يسمى بالادب التخيلي . او ما يسميه الانكليز ((نونفكشون)) . وقد تولد لدي من خلال اسفاري وعملي في اكاديمية العلوم ، اهتمام عميق بالحضارات القديمة ، دفعني الى التاليف في هذا القطاع للتدليل ان ثمة في الدنيا مراكز حضارية اقدم بكثير مما يقوله العديد من الكتاب الاوروبيين بان اوربا هي مركز الدنيا . وعلى سبيل المثال ، فانا قد زرت بلدكم الجميل لبنان وحملت عنه احسن الانطباعات . منها ان هذا البلد الصغير قد اسهم منذ الاف السنين في تطور العالم . اذن الحضارة سلسلة ، والتقدم مراحل لم تكن كلها من صنع اوروبا . وانما اسهم فيها شعوب اخرى وبلدان اخرى كثيرة. وهذا ما يجعلني اتناول احداث التاريخ الحضارية واعالجها معالجة علمية وتاريخية معا .

د . ميشال سليمان وفؤاد الخشن : نحن نعلم ان لكل ادب من اداب الشعوب طابعا مميزا في مرحلة تاريخية معينة . فهل لنا بمعرفة الطابع المميز لادبكم في المرحلة الراهنة ؟

د . بيلوش : طابع ادبنا المميز هو الروح الشعبية والديموقراطية التي تمتد عبر تاريخ ادبنا كله منذ القرن العاشر كخيط احمر يبلغ قمما ثورية ، خاصة في ((الحروب الهوسية)) ويصبح عنصرا قويا للكتاب المعاصرين ، لدرجة انه يستحيل ان ينشأ في بلدنا ما يسمونه بادب النخبة .

د . بلوديك : وسبب شعبية ادبنا هو انه ادب امة صغيرة كانت دائما مهددة بخطر امم مجاورة ، كالالمان مثلا . ولهذا كان كاتبنا ملتزما دائما بشعبه لكي لا يكون مستوحدا ومهددا في الوقت ذاته . كما انه كان ملزما بان ينطق بلسان الانسانية في مجال العلاقات بين الشعوب وهذه هي جذور ديموقراطية وشعبية ادبنا . واعتقد ان ادبكم في لبنان هو ، كما حدثتم عنه سالفا ، مثل ادبنا ، لان بلدكم عانى من الغزاة عبر التاريخ ، وصمد بوجه الاجتياح والاستعمار .

د . ستنفل : وانا بدوري اضيف الى ما قاله زميلاي قائلا : ان الصفتين المميزتين لادبنا هما الواقعية والنزعة الانسانية العميقة. واذا ما قارنا ادبنا باداب البلدان الاوروبية الاخرى ، كالمجر ، والمانيا ، وبولونيا وسواها ، وجدنا ان ادبنا عاش خاليا مما يسمى بالادب الارستقراطي الذي سيطر عصورا كاملة على اكثر بلدان اوروبا.

الولايات المتحدة

رسالة نيويورك من احمد مرسي

عام ليوناردو دافنشي

لا شك ان عام ١٩٧٤ ، كان عام ((ليوناردو دافنشي)) بالنسبة لصناعة النشر العالمية ، ففي شهر اكتوبر الماضي ، اصدرت دار ((جونسون ريبرينت كوربوريشن)) ، احدى الشركات التابعة لمطابع هاركورت بريس جونافيتشي الاكاديمية ، المجلد الاول من ١٢ مجلدا ((لمخطوطة اتلانتيكوس)) لليوناردو دافنشي ، في طبعة فاخرة ذات غلاف من المجلد المحلى بالنقوش المذهبة ، وهي تضم مستنسخات طبق الاصل من مذكرات وتخطيطات وتعليقات دافنشي التي جمعها احد الثقاة في القرن السادس عشر .

وفي شهر سبتمبر ، اصدرت دار ((ماكجرو ـ هيل)) (مخطوطات مدريد) وهي تضم دفتري مذكرات ظلا مفقودين حتى اكتشفتهما دار الكتب الوطنية في اسبانيا عام ١٩٦٥ .

اما قصة صدور ((مخطوطة اتلانتيكوس)) التي رصد لطباعتها فقط مبلغ مليونين ونصف مليون دولار ، فلا تخلو من عنصر الاثارة والتشويق على نحو ما نلمسه في قصص الجاسوسية .

فقد قام مالك المسودة في القرن السادس عشر بلصق ((رسومات الماكينات والفنون السرية)) التي ابتكرها ليوناردو دافنشي على رقائق من الورق كبيرة الحجم ، وفرغ فروخ الورق بحيث يمكن مشاهدة كل من وجه وظهر الوثائق (كان ليوناردو يخط رسوماته وكتاباته على اوراق شفافة ،في ظهر رسائله).

وفي اثناء عملية اللصق ، طمس عدد من مذكرات ورسومات ليوناردو ومن بينها رسم لكائن هرمافرودتين (يجمع بين عضوي التذكير والتانيث) له جسم رجل ورأس طير ، ربما كان قد اثلج صدر سيجموند فرويد بالذات ، لو كان قد وقع عليه وهو يكتب سيرة الفنان الذاتية !

وعندما كان بابا الفاتيكان الحالي بولس السادس، اسقفا لميلانو ، امر بترميم ((المخطوطة)) المودعة بمكتبة امبرو سيانا بميلانو . واختار لهذه العملية رهبان دير ((جروتافيراتا)) الكائن خارج روما ،والذي قام معمله باداء خدمات مماثلة للكنيسة وللدولة زهاء ٣٠ عاما .

وقد نقلت المخطوطة الى الدير صفحة بعد صفحة ، وكانت كل صفحة تنتزع من المجلد الاصلي وتودع داخل حقيبة من الصلب مبطنة بحجر الاسبستوس . وكان الرهبان ينقلون الصفحات في الخفاء الى روما، حيث يلتقي بهم رجال البوليس الذين يقومون باصطحابهم الى ((جروتا فيراتا)) .

واستغرق ترميم ((المخطوطة)) عشر سنوات ، ابتداء من ١٩٦٢. وقد شهد الدير المحصن اجراءات امن مشددة . ففي الليل ، عندما كان الاب جوزيفات كوريلو ، احد الرهبان المنوط بهم تنفيذ المشروع ، يضطر الى ترك الصفحات في المعمل بدلا من نقلها الى غرفة نومه ، كان يملأ صفحة صغيرة بغاز سام ويضعها عند مدخل المعمل . وفي الصباح ، يدخل الاب جوزيفات المعمل ،وقد لبس كمامة واقية ضد الغازات ، خشية ان يكون احد اللصوص قد تسلل الى المعمل واطلق الغاز السام ..

ومن اجراءات الامن الاخرى مسدس عيار ٢٢ ـ ولكنه لحسن الحظ لم يستعمل .

وبعد عشر سنوات من العمل في تنظيف صفحات المسودة و((نسج)) الصفحات القديمة المتآكلة ((بالياف من الورق الجديد (وهي عملية من ابتكار الاب جوزيفات))، تم ترميم المسودة باكملها ، ونقلت الى الفاتيكان للحصول على الموافقة البابوية .

وبعد ذلك نقلت ((المخطوطة)) مرة اخرى الى ميلانو ليصورها الناشرون . وفي ميلانو ، اكتشف ان الترميم قد كشف النقاب عن ٧٠ بندا ، ظلت مجهولة حتى ذلك التاريخ، من المذكرات والرسومات

والتذييلات الهامشية التي خطتهـا الفنان الكبير .

اما قصة الكشف عن « مخطوطات مدريد » فاقل اثارة ، ولكنهـا مع ذلـك لا تخلو من طرافة .

فقد اوصى ليوناردو دافنشي بنقل ملكية هذيـن المجلدين مـن مذكراته الى تلميذه فرانشيسكو ملنزى ، وفيما بعد ، انتقلت ملكيتها الى النحات بومبيوليوني الذي احضرهما الى مدريد ، حيث انتقلاالى المجموعـة الخاصة لمقتنيات الملك فيلب الخامس ،ملك اسبانيا .

وعندمـا نقلا الى دار الكتب الوطنية لاسبانيا في القرن التاسع عشر ، ارتكب خطأ عند توصيفهمـا بالارشيف ، واختفيا حتـــى تم اكتشافهمـا في عام ١٩٦٥ .

وفي مطار كنيدي بنيويورك ، وقعت عين فرانك تايلور ، رئيس تحرير دار ماكجرو هيل ، علـى نبأ هذا الكشـف ، وكـان قـد غادر طائرته منذ لحظات فقط عائدا الى نيويورك ، فاستدار في الحـــال واستقل طائرة اخرى متوجها الى مدريد .

وهناك بحث مع الحكومة الاسبانية ، التصريح له بنشرالمخطوطة. وقد اضيف الى المجلدات الخمسة « لمخطوطات مدريـد » ، مجلـد سادس يضم تعليق المترجم لاديسلاو ريني، ومجلدان اخران يشتمـلان على ترجمة المذكرات باللغـة الايطاليـة الحديثة واللغة الانجليزية .

تلك كانت قصة الكشف عـن مخطوطات دافنشي بكـل ما انطوت عليهمن عناصر الاثارة . وفي رأيي ان الاثارة الحقيقية انمـا تكمن فـي السعـر الذي تباع به النسخة الواحدة من هذه المجلدات . ان النسخة الواحـدة من كل مجلد من مجلدات « مخطوطة اتلانتيكوس » تبـــاع بعشرة الاف دولار . وبحسبة بسيطـة يتضح لنـا ان شراء المخطوطـة كاملة يكلف ١٢٠ الف دولار .

ومع ذلك ، فقد تدافع هواة الاقتناء اليابانيون ، على شراء هـذه المجلدات الباهظة . وهم ، مع ذلك ، لا يبددون اموالهم ، كمـا قـد يخيل لنـا ، لانهم يعرفون جيدا ان هذا الثمن الذي يدفع اليوم لاقتناء هذه المجموعـة من الكتب النادرة ، سيتضاعف مع مرور الوقت . فقد ثبت اخيرا ، ان الاستثمار في العمل الفنـــي هـو اضمـن انـواع الاستثمارات واكثرها ثباتا .

فهل سيأتي اليوم الذي ندرك فيه هذه الحقيقة ؟

اما « مخطوطة مدريد »،فيبدو ان ناشريهـا اكثر تواضعا .فقد قرروا أن تصدر في طبعتين ، طبعة فاخرة تبـاع بمبلـغ ٧٥٠ دولار ، والاخرى عادية ، ولا اقول شعبيـة ، لانهـا ستباع بمبلـغ ٥٠٠دولار.

* * *

افضـل ١١ فيلمـا

ليس شرطا في الغالب ان يقع الاختيار على عشرة افلام ، لتكـون افضل افلام العام ، ففي بعض السنوات ، قد يختار النقاد ثلاثة افـلام فقط ، وفي سنوات اخرى قد يكـون العدد ٧ افلام ، او ١١ فيلمـا كما كـان اختيار فينسنت كانبي الناقد السينمـائي لصحيفة النيويورك تايمـز لهـذا العام .

ويرى الناقد ان عام ١٩٧٤ ، ليس من تلك الاعوام التي سيسجلها التاريخ ولكنه ، مع ذلك ، كان عامـا طيبا للغاية ، وبصفة خاصـة بالنسبة للافلام الامريكيـة .

ان ابرز افلام العام ، في نظـر فينسنت كانبي، كانت جميعهـــا افلامـا اوروبيـة (٦ افلام من بين القائمة اجنبية)، ومع ذلك فأحـد هذه الافلام انتج في عام ١٩٦٦، وانتج فيلم اخر في عام ١٩٦٩، ويعني هذا ان الافلام الامريكيـة من انتاج ١٩٧٤ تنافس افضل الافلام الاوروبية التي تمثل في الحقيقة عقدا من العمل .

واذا كانت الافلام الامريكية لا تضم فيلمـا واحدا يمكن مقارنتـه بفيلم مثل « اماركورد » لفيلليني او « مشاهد من زواج » لبرجمان ، فهناك عشرات من الافلام الامريكية ، كمـا يقول الناقد ، من شانهـا على نحـو او اخر ،بان تدعم الامل فـي مستقبل الانتاج الامريكـي . وليس من قبيل الصدفة ان يشهـد شباك تذاكر دور العرض الامريكية، رواجـا ملموسا في نهايـة العام المنصرم . فقـد حققت افلام رديئـة مثل « محاكمـة بيلي جاك » و« مطار ١٩٧٥ » ارباحا طائلـة ، ولكـن جزءا من هذه الاموال سيأخذ طريقه الى ما يسمى في صناعة الافـلام « بافلام المشاهدين » ذاتالنوعية المحترمة مثل فيلم « الجحيم الاعظم ».

فمن الصعب أدراج هذا الفيلم في ايـة قائمة لافضل الافلام ، او قائمة لانجح الافلام ، ولكـن يمكـن ادراجه ضمـن الافلام الكلاسية ذات التأثيرات الخاصة ، ان اداء داستن هوفمـان الجيد يعطيفيلم« ليني» اهميـة شرعية ، وان كان هذا الاداء لا يرقى الى جعله فيلمـا لكـل العصور . ولا بد من التنويه بطموح فرانسيس فورد كوبولا في فيلمـه « العراب جزء ٢ » وكذلك جون كاسافيتس في فيلمه « امـرأة تحت السيطرة » لاداء جينا رولاندز،بالرغم من تشوش الفيلم نفسه. انجميع هذه الافلام ، ليست من الافلام التي تجعل المرء يشعر بالخجل .

اما الافلام التي اختارهـا ناقد صحيفة النيويورك تايمز كافضـل افلام عام ١٩٧٤ ، فهي بالترتيب التالي ، حسب الابجدية اللاتينيـة ،

ـ « اماركورد » : اخراج فيديريكو فيلليني ، سيناريو وقصـة فيلليني وتونينو جورا ، وانتاج فرانكو كريستالدي . ويصـور الفيلـم ذكريات فيلليني الجميلة والمؤثرة عـن شبابه في بلدة صغيرة فـي ايطاليـا الفاشية . ويجمع الفيلم بيـن اهتمامات كوميدياته الواقعية الجديدة المبكرة وبين الاسلوب الفانتازي الذي تتميز به افلامه الاخيرة. وهو من اجمل افلام فيلليني واكثرها اثارة للخيال .

ـ « الاراضي غير الطيبة » : اخراج وتأليف وانتاج تيرنس ماليك. وهو اول فيلم من اخراج تيرنس ماليك ، اسـتاذ الـفلسفة السابق برودس . ويعتبر هذا الفيلم من اكثر الافلام الامريكية التي انتجتفي العام الماضي ، اصالـة . وهو يعكس نظرة صافيـة للحضارة الامريكية في منتصف القرن العشرين ، من خلال جامع قمامة عمره ٢٥ عامـــا وفتاة عمرها ١٥ عامـا ، تصاحبه عبر البلاد اذ يرتكب جريمة قتــل صاحبة . والقصة مستوحاة من قضيـة تشارلي ستارك ويذر ، وتقع احداثها في الخمسينات ولكـن يبدو انها اقرب ما تكـون الى عالـــم العصر التليفزيوني ،حيث يفقـد السياق الزمني للمجتمع معناه ، اذ يصبح مجرد فترات استراحة تتخلل الاعلانات التجارية وهو فيـلـم صاخب ومخيف يتميز بروعة اداء مارتن شيـن وسيسي سباسيك في دور العاشقين ووارين اوتيس في دور والد الفتاة .

ـ « انشقاق كاليفورنيا » : اخراج روبرت اولتمان وسيناريـــو جوزيف والش ، وانتاج اولتمان ووالش . وهـو من افضل افـــلام اولتمـان التي اخرجها خلال هذا العام (فيلمه الاخر « لصوص مثلنا » فيلم جيد ايضا) وهو يعالج قضيـة القمار من خلال رحلة مقامريـــن مختلفين « آليوت جولد وجورج سيجال » من صالونات المقامرةوساحات السباق في لوس انجلوس الى كازينوهات رينو الشهيرة . وككل افلام اولتمـان ، تجاوز فيلم « انشقاق كاليفورنيا » تلك القصة البسيطة ، ليعالج موضوعات اخرى مثل الطموح والصداقة وقيمة حياة الطبقـة

المتوسطة الامريكية . وما الذي قد يحدث اذا حقق الانسان اهدافه التافهة ، بمحض الصدفة .

ـ « كلودين » : اخراج جون بيري وسيناريو ليستر وتينابان وانتاج حنا وينستاين ، وهو من افضل افلام الكوميديا الامريكية لهذا العام ـ وهو ينتمي في الحقيقة ، الى عالم الكوميديا السوداء .وفيلم « كلودين » مجرد كوميديا تليفزيونية حولت الى كوميديا اجتماعية ذات مغزى بفضل صدق محتواها وتجنب المخرج استخدام الكليشيهات البالية والاداء الرائع لدياهان كارول ، في دور الام التي تقطن هارلم.

ـ « ديزي ميلر » : اخراج وانتاج بيتر بوجدانوفيتش ، وسيناريو فريدريك رفائيل ، وهو ماخوذ عن قصة هنري جيمس . ويعتبر هذا الفيلم عرضا مصورا لعمل ادبي كلاسي ، ولكنه يتميز بجمال الصنعة وروح الفكاهة الراقية . وقد احسن اختيار سيبيل شيبرد لاداء دور ديزي الجميلة ، وكذلك باري براون وكلوريس ليتشمان وميلدريد ناتلويك .

ـ « هاري وتونتو » : اخراج وانتاج بول مازورسكي ، وسيناريو مازورسكي وجوش جرينفيلد . واضح من هذا الفيلم ان بول مازورسكي مخرج ومؤلف افلام « بوب وكارل وتيد واليس » و « قصة حب بلوم »، قد احرز حتى الان تقدما مطردا ، ولا شك ان فيلم « هاري وتونتو » من افضل افلامه . ويعالج الفيلم قصة رجل من سكان نيويورك عمره ٧٢ عاما في رحلته عبر امريكا مع قطته الضخمة المريضة . ويؤدي هذا الدور الرائع ارت كارني . ويتعرض الفيلم من خلال سياق قصة الرجل العجوز ، لتفكك وضياع الاجيال الشابة في امريكا .

ـ « لاكومب ، لوسيان » : اخراج وانتاج لوي مال ، سيناريو مال وباتريك موديانو . فيلم محكم ومثير للاسف يدور حول مزارع فرنسي شاب يتعاون بمحض الصدفة مع الجستابو اثناء الاشهر الاخيرة للاحتلال النازي لفرنسا . لا يحاول لوي مال ان يجد مبررا لسلوك بطله وترديه في الخيانة . ولكنه يقول ببساطة ، من خلال احداث الفيلم ، هذا هو الذي حدث فحسب .

ـ « الانسان ليس طائرا » : اخراج دوسان ماكافييف وسيناريو ماكافييف ايضا وانتاج « افلام آفالا » . وهو اول فيلم من اخراج المخرج اليوغوسلافي ماكافييف (١٩٦٦) الذي اشتهر في العالم الغربي بافلام الفارس التي تمزج السياسة بالجنس . وفيلم « الانسان ليس طائرا » هو احد فيلمين من انتاج الدول الاشتراكية ، يتميزان بالاصالة والتعقيد (الفيلم الاخر هو الفيلم الكوبي «مذكرات التخلف»). وتركز قصة الفيلم على مهندس انطوائي ، يتورط بدون روية ، في علاقة مع فتاة جميلة تصغره في السن وتعمل حلاقة في بلدة صناعية صغيرة . والموضوع الاساسي للفيلم ، مع ذلك ، هو تجربة تيتسو العظيمة .

ـ « مسرح جان رينوار الصغير » : اخراج وانتاج وسرد جان رينوار الذي كتب ايضا السيناريو . ويتالف من ثلاثة افلام صغيرة ، تتخللها اغنية من اداء جان مورو . ويعتبر هذا الفيلم بمثابة العرض الوداعي الاخير لواحد من اعظم المخرجين الفرنسيين . ويتميز اسلوب الفيلم بالرهافة والوضوح والحرارة الابدية التي لا ينال منها الزمن .

ـ « شبح الحرية »: « اخراج لوي بونويل ،وسيناريو بونويل وجان ـ كلود كاربيير وانتاج سيرج سيليرمان . ان العمر الذهبي لبونويل يمتد الى عقده الثامن ، اذ يعود المخرج الذي يبلغ من العمر ٧٤ عاما الى الفورم السوريالي الذي يتميز به فيلمه « العمر الذهبي » الذي اخرجه في عام ١٩٣٠ . وفيلم « شبح الحرية » عبارة عن مجموعة تبهر البصر من الحكايات غير موصولة الاطراف حول تناقضات السياسة والدين والحب وكل ما يتعلق به الانسان من مسلمات جمالية .

ـ « مشاهد من زواج » : اخراج وتاليف انجمار برجمان ،وهو ماخوذ عن دراما تليفزيونية يستمر عرضها ٥ ساعات من تاليف برجمان الذي اعاد صياغتها في ملحمة مسرحية يستغرق عرضها ١٦٧ دقيقة حول الخسائر والمكاسب التي تسفر عنها علاقة حب تستمر ٢٠ عاما. وقد تميز الفيلم باداء ليف اولمان الرائع .

النشاط الثقافي في الوطن العربي

مراسلو «الآداب»

رسالة القاهرة من سامي خشبة

العام ، والخاص ، والثقافة المصرية !

في كواليس مسرح « عمر الخيام » القاهرية ـ التي يعرفها لا شك كل سائح « عربي » يهبط القاهرة ويسأل عنها قبل ان يهبط ، وفي حجرة النجم الكوميدي الكبير ابو بكر عزت ، وفي « الانتراكت » بين الفصلين الاول والثاني ، جلس ابو بكر نفسه ، واثنان من نجوم الفرقة ، حسن حسني ومحمد نجم يتحدثون عن « النجاح الفني » . واتجه الحديث بسرعة الى الكفاءة التجارية التي يتميز بها عمل الفرق التمثيلية « الخاصة » التي لا تتبع الدولة ، والى الشلل الكامل الذي لا بد ان يصيب نفس مجموعة الممثلين والفنيين اذا حاولوا العمل لحساب اية جهة حكومية ، واساسا في السينما والتلفزيون . هناك ، لا شيء يتم بالصورة التي خطط له بها . لا احد يصل في موعده . لا «بروفات» تكتمل طبقا للاصول . لا مخازن للملابس او الديكور تفتح . لا مخرج او مدير للانتاج يحاسب اي مخلوق ..الخ..الخ . وبالتالي فان العمل الذي يمكن ان تنجزه « فرقة خاصة » او منتج يعمل لحسابه الخاص ثم يبيع انتاجه لمؤسسة السينما او للتليفزيون ، ويتم انتاجه في ثلاثة ايام ، يستغرق انتاجه اكثر من تسعة الى اثني عشر يوما لو انه كان من انتاج المؤسسة الحكومية اوالعامة، يحتاج العمل الواحد من المؤسسة الحكومية او العامة الى ثلاثة او اربعة أضعاف الزمن ، وربما الى ضعف التكاليف على الاقل ،التي يحتاجها العمل نفسه اذا أنتجه منتج خاص او فرقة خاصة .

ولا احد يعرف السبب : اجور « القطاع العام » المنخفضة ، ام استعداد « المنتج الخاص » لان يدفع بعض « الاكراميات » لكي « يمشي شغله » مقابل عدم وجود بند صريح لها « للاكراميات » في ميزانيات القطاع العام والاجهزة الحكومية ؟ تحدث النجوم الثلاثة عن اسباب جزئية كثيرة من هذا النوع ، وضربوا امثلة عن السرعة والكفاءة في انجاز التفصيلات الفنية اذا كانوا ينتجون عملا لحساب منتج خاص، مقابل التلكؤ والبطء والعجز (او التظاهر بالعجز) الذي تبديه نفس الاجهزة بنفس الاشخاص اذا كان نفس الممثلين ينتجون عملا لحساب المؤسسة او الجهاز الحكومي او العام . وايا كانت الاسباب «الجزئية» والتفصيلات ، وايا كانت النتائج المتعلقة بعمل فني معين ، فالظاهرة المؤكدة الخطيرة في « مؤسساتنا الثقافية » الان ، هي تفكك القطاع العام والاجهزة الحكومية المسؤولة عن انتاج « الثقافة » مقابل ازدهار « النشاطات الخاصة » المنتجة لـ « الثقافة » ايضا ، ازدهارتجاري على الاقل .. ولنحاول ان نبحث عن تفاصيل للموقف ، اكثر دقة .

واحب ان أشير الى انني استخدمت تعبير « مؤسساتنا الثقافية » في الفقرة السابقة ، حيث كان من المتوقع ان استخدم تعبير « حياتنا الثقافية » المألوف . ولكنني استخدمت ذلك التعبير عامدا ، لانني سأتحدث اولا عن « الاجهزة » التي تنتج الثقافة، والتي تصنع بانتاجها « حياتنا الثقافية » ، العلوية .. الحياة الثقافية للمدينة وللمتعلمين، وللقادرين ، ثم لاولئك الذين تتمكن هذه الاجهزة من الوصول اليهم عن طريق السينما والتليفزيون والاذاعة والمسرح والصحف ، واخيرا الكتب ثم المتاحف .

وبما انه ليس من المتوقع ان « يتهور » راسمالي فردي فيقيم متحفا (رغم ان هذا حدث في الزمن الخالي ، حينما اقام احدهم متحف الشمع ، الذي كان يجمع بين التسلية المثيرة ، ومحاولة الامتاع الفني عن طريق المفاجاة والادهاش ،واخيرا عن طريق الجمال والمعرفة)، وبما ان ناشر الكتب الراسمالي الفردي يتجه اساسا الى الكتاب التجاري الرائج ،ثم الى الكتاب الجامعي المضمون السوق ، ونادرا ما يغامر بالكتاب الجاد الذي يستهدف التثقيف الجاد او الامتاع الرفيع ، وبما ان اصدار المجلات الثقافية يحتاج الى رأسمال كبير نسبيا ، علاوة على ان المجلة الثقافية الجادة في مصر تعتبر مغامرة تجارية (باستثناء المجلات الثقافية الدينية) تشهد بذلك انهيارات التوزيع المروعة التي تعانيها الان مجلات عبدالعزيزالدسوقي ورشاد رشدي ويوسف جوهر التي تصدرها وزارة الثقافة ، وتخفي ميزانياتها وارقام توزيعها بالطبع ، بالاضافة الى الهبوط الملحوظ في توزيع مجلة « الكاتب » التي تصدرها الوزارة ايضا ، الى جانب انهيار المجلات « التاريخية » من نوع مجلة « الهلال » ، بما ذلك كله ، فان « القطاع الخاص » يزحف على « القطاع العام » اساسا في مجالات الانتاج الثقافي التي تجمع بين المشروع التجاري والعمل الثقافي الفني، في السينما والتليفزيون والاذاعة والمسرح . وكثير من الانتاج الذي يتم « تصنيعه » في مصر ، ينتج لحساب « ممولين » في دول وامارات الخليج العربي البترولية او المملكة السعودية (مثل استوديو عبدالله الطوخي او استوديو سميحة ايوب للتسجيلات الاذاعية)، ومثل التجمعات التي بدأت في الظهور الان لانتاج البرامج والتمثيليات والمسلسلات التليفزيونية لبيعها وبيع نسخ منها التليفزيون المصري وللتليفزيونات العربية الاخرى ،وقد ذكرت مجلة « روز اليوسف » في عددها بتاريخ ٢٢ ـ ٢ ـ ١٩٧٥ ، أن عددا من هذه التجمعات [illegible] في الهجرة الى بيروت وعمان والكويت ، للعمل هناكمباشرة ، لحساب تليفزيوناتهذه العواصم العربية، او لمجرد استخدام تسهيلاتها تجاريا وبيع الانتاج بعد ذلك ، كما ذكرت جريدة الاهرام في عدد يوم ٢٠ ـ ٢ ـ ١٩٧٥ ان بعض هذا الانتاج المصنع في تلك العواصم بأيدي الفنانين المصريين يعاد بيعه للتليفزيون المصري). اي ان الزحف على تلك المجالات الثقافية « التجارية » يشترك فيها ايضا راس المال«البترولي» او المدعوم بقروض البترول .. وليست ـ في اعتقادنا ـ هذه هي المشكلة . ان ما ينتجه القطاع الخاص ، رأس المال الخاص المصري ، لا يختلف كثيرا من حيث النوعية عما ينتجه رأس المال « البترولي » بأيدي الفنانين المصريين ، بل ربما كان اكثر جدية احيانا ، رغم هبوط المستوى الفني لما عرض منه في القاهرة وكان لي « حظ » مشاهدته .

وبالرغم من ان رصد الزحف « الخاص » على الثقافة ، لا بد ان يبدأ برصد كمية رؤوس الاموال ، ونوعيتها وانتماءاتها ، فان المجال النهائي للتقييم ، والمعيار الاساسي هو « نوعية » الثقافة التي يمكن ان ينتجها هذا الرأسمال . ونحن نرى الان صورا متعددة لمؤسسات « ثقافية » او مؤسسات للبحوث العلمية في مجالات العلوم الانسانية (علوم الاجتماع مثلا ، والاقتصاد ، والتاريخ ، والانثروبولوجيا ، ثم

الادب) ينفق عليها راسماليون كبار (يصنفون علميا بين قطاعات رأس المال المالي ، الامبريالي) ولكنهم ذوو ميول ليبرالية واخلاقية ، وينفقون على بحوث تلك المؤسسات ، وعلى جهودها العلمية في داخل اوروبا او في بلدان العالم الثالث ، حتى لو كانت هذه البحوث ذات منطلقات فكرية تقدمية او يسارية . كذلك نرى - في القاهرة حتى الان - افلاما سينمائية ذات اتجاهات « ثورية » أو نقدية عنيفة للمجتمعات الرأسمالية ، تنتجها شركات انتاج « امبريالية » . هذا هو منطق التجارة في عالم الثقافة احيانا . قد ينتج الرأسمالي عملا ثقافيا يتعارض او لا يتفق مع مصالحه ، او قد يمول انتاج هذا العمل ، ما دام يستفيد منه تجاريا في المدى القصير ، او ما دام هذا العمل « يرضيه » ثقافيا او يريح ضميره او يضمن له نوعا من النجاح السياسي في الانتخابات مثلا . ولكن الراسمالي « الاوربي » في هذه الحالة يعبر عن « تقاليد » ثقافية تسمح بهذا القدر من الليبرالية من ناحية ، وتتمتع بقدر كبير من « بعد النظر » من ناحية اخرى ، بالاضافة الى أن « المنتج الثقافي » في النهاية سيصب في تيار صاحب كبير يستطيع ان يستوعب كثيرا من التناقضات التي تسيطر على حركتها عوامل اخرى ليست الثقافة من بين اكثرها اهمية . ولكن ما يهمنا هو ان « المنتج الثقافي » في تلك الحالة ، سيكون معبرا عن مستوى « المثقف » أو « الفنان » او « الباحث » الاوروبي ، هذا المستوى الذي تضمن رقيه عوامل كثيرة ، تاريخية واقتصادية وتعليمية وثقافية ايضا . ان « الكم » الهائل من الاعمال الثقافية المستنيرة والانسانية ، والتقدمية واليسارية ، لا تمولها « الدول » في غرب اوروبا او امريكا الشمالية او امريكا اللاتينية ، بالطبع . وليس هناك « قطاع عام » في مجال الثقافة الا في حدود ضئيلة (مثل المسرح القومي في بريطانيا مثلا ، او المسارح التي تدعمها بلديات المدن في المانيا ، أو المسرح القومي الفرنسي ايضا ، بالاضافة الى محطات الاذاعة التي تخدم الاعلام اكثر مما تخدم الثقافة بمعناها الحقيقي) . كذلك فان « الاحزاب » السياسية ، او « النقابات » واتحادات النقابات العمالية ، لا تساهم في الانتاج الثقافي التقدمي عموما الا بقدر محدود ايضا (باستثناء فرنسا وايطاليا بالنسبة للاحزاب ، وبريطانيا بالنسبة لاتحادات النقابات العمالية) . ومعنى هذا ان القسم الاكبر من هذا الانتاج الثقافي « التقدمي » تموله وتوزعه وتستثمره « مؤسسات » ذات طابع رأسمالي صرف . ومرة اخرى اعتقد ان هذه المؤسسات تستطيع ان تقدم انتاجا ثقافيا رفيع المستوى من الناحية التكتيكية وتقدميا في اتجاهه في نفس الوقت ، اعتمادا على التقاليد الثقافية الليبرالية ، وبعد النظر التجاري الراسمالي ، وضمان حركة « المجتمع » بالسيطرة عليها بعوامل اخرى غير « الاعمال الثقافية » ، بالاضافة الى الاعتماد على « ميكانيزمات » ثقافة نهضت منذ خمسة قرون ، واستمرت تتطور حتى اليوم ، في مواكبة للتطور الاجتماعي الشامل ذاته .

فهل يستطيع « القطاع الخاص » ، رأس المال الفردي ، في مجتمع مثل المجتمع المصري ان ينتج اعمالا ثقافية ، في تلك المجالات التجارية التي ذكرناها ، رفيعة المستوى التكنيكي ، وتقدمية تساهم في تحرير عقلية ووجدان الامة وتحقيق اصالتها وتطورها ؟؟ هذه هي المشكلة !

ان السبب في طرح هذا السؤال هو ذلك الزحف الذي تحدثت عنه في البداية . وهو زحف تستسلم امامه « حصون » القطاع العام والاجهزة الحكومية العاملة في مجال الثقافة والاعلام الثقافي بسهولة عظيمة ، ودون قتال ، بل ان الامر يبدو وكان المطلوب بالفعل - اقتناعا او افتعالا - هو تسليم الانتاج الثقافي لرأس المال الفردي والقطاع الخاص .

في جريدة الاهرام ، الخميس ٢٠ - ٢ - ١٩٧٥ ، في حديث اجراه يوسف فرنسيس مع يوسف السباعي ، سال الصحفي الرسام السيناريست المخرج السينمائي وزير الثقافة :

« وما الهدف من عدم ممارسة مؤسسة السينما للانتاج المباشر ؟ » واجاب وزير الثقافة :

« كان الانتاج المباشر نقودا تهدر في ايدي بعض منتجي القطاع الخاص ، الذين يكلفون بالانتاج لحساب المؤسسة .. فلماذا احمل ميزانية فيلم ٤٠٠٠٠ جنيه تصل احيانا الى الضعف كأجر للمنتج وحده ؟ ان النظام الان هو الانتاج بضمان لقرض يعطى للمنتج في القطاع الخاص وتقوم المؤسسة بدور الموزع فقط . وهذا النظام احسن ضمان مادي لحماية المال . فعندنا الان ٣٠ الف جنيه في حالة دورة مستمرة وليست هناك أي خسارة .. وانما انتاج حقيقي واقتصادي » .

ولم يسأل يوسف فرنسيس عن طبيعة هذا الانتاج « الحقيقي والاقتصادي » وانما سأل عن اتاحة الفرص للشبان الذين لن يستطيعوا دخول هذه « المعمعة » ، وكان جواب وزير الثقافة : « ان الحل في انتاج الافلام التسجيلية .. لا اشترط ان تكون لها صفات تقليدية وانا اتحمس لاي فكرة ، او مشروع جيد .. وبالتاكيد افلام العبور التي شاهدناها مشرفة وهذا هو ما نريده من الفيلم التسجيلي ، القضاء على السلبيات ، لتسجيل امجاد مصر والدعوة الى المستقبل » .. ثم تاه بعد ذلك الحديث القصير في كلام عن فيلم « اريد حلا » ونقص دور العرض ، ومشاريع بناء دور عرض درجة اولى وتحويل اخرى الى هذه الدرجة .. الخ .. الخ . ولكن لا شيء عن طبيعة « الانتاج الحقيقي والاقتصادي » الذي يصنعه منتجو القطاع الخاص ، باموال القطاع العام التي يقترضونها ، والتي يعود القطاع العام فيوزع منتجات صاحبه الخاص ، فكأنه يشتغل له « مصرفا » ثم « وكيل توزيع » .

اما القطاع العام في المسرح ، فما زال ينتج ، وما زال يملك فرقه المسرحية ، صحيح ان هذا الموسم لم يشهد لهذا « القطاع » سوى ثلاث مسرحيات حتى الان ، يرجح المسؤولون في « هيئة المسرح » انها لن تزيد سوى مسرحية اخرى او اثنتين على الاكثر ، ولكن يبدو ان الموسم القادم سيشهد انكماشا اكثر ، وهناك دلائل كثيرة قد نتناولها في مناسبة اخرى .

اما التليفزيون والاذاعة ، فما زالا متماسكين حتى الان ، بل ان التليفزيون يتولى الان وظيفة « الخدمة الثقافية » الاولى ، بالنسبة للمسرح والسينما (او الاعمال المسرحية والسينمائية) من خلال ما يعرض من اعمال « الريبرتوار » المسرحي المصري الجادة ومن الافلام السينمائية - المصرية والاجنبية - مرة كل اسبوع لكل واحد من الفنيين الدراميين (وهذا لا ينفي ان نفس الجهاز يقدم ايضا اشياء مروعة الهبوط والتخلف ، الى جانب البرامج الاعلامية التثقيفية ذات المستوى الرفيع حقا) . ولكن المشكلة هنا هي انتاج الاعمال التليفزيونية والاذاعية ، ذات الطابع الدرامي او غير الدرامي ، التي يزحف عليها « القطاع الخاص » بدأبه المثابر العنيد ، وتخلفه التكنيكي وانحطاطه العقلي المخيفين .. وكما قلت من قبل ان هذا التخلف وذلك الانحطاط هما موضع السؤال .

عوامل كثيرة تفرض على الرأسمال الفردي في مصر (القطاع الخاص) اذا اشتغل بالتجارة الثقافية والفنية ، ان يعجز - في هذه المرحلة على الاقل - عن انتاج اعمال ثقافية مقبولة المستوى التكنيكي او حتى ذات اتجاه « انساني » عام ... عوامل تقف على رأسها العملية

التاريخية التي حددت الموقف الثقافي للبورجوازية المصرية بين تعليم حديث يلقن معلومات ولا يبلور وجهة نظر علمية الى العالم ، وبين ثقافة تقليدية غيبية تقف بصلابة ضد اي وجهة نظر علمية وتمنع تكونها ، وتقف احيانا ضد المعلومات العلمية الجزئية ذاتها ، وبين قيم اخلاقية وسلوكية ريفية موروثة تسهل عملية الجمع بين المعلومات الجزئية « المفيدة » وبين تعاليم الثقافة الغيبية « الواقية » من مغامرة التفكير في العالم من اجل الخوض فيه ومعرفته وتغييره . وتأتي بعد هذا العامل التاريخي عوامل اخرى « قائمة » (1) ربما كانت اهمها هي الامية وبطء حركة التصنيع والتحضير urbanisation وانعدام التقاليد الليبرالية وكبح حركة التناقضات الاجتماعية تحت شعارات كثيرة ، وكبح حركة البحث العلمي الاجتماعي والسياسي والاقتصادي .. الخ ..

واقول ان عجز الراسمال الفردي في مصر عن انتاج اعمال ثقافية مقبولة المستوى التكنيكي وانسانية - على الاكثر - في مضمونها واتجاهها ، هو عجز مرتبط بهذه المرحلة « على الاقل » ، على اساس ان تلك العوامل « القائمة » التي اضعها بعد العامل التاريخي الاول ، هي عوامل مؤقتة يمكن التصدي لها وتغييرها من خلال عملية ثورية شاملة ، في التعليم والتصنيع التحضير (تمدين الريف) وغرس تقاليد التحرر العقلي والاخلاقي واطلاق حرية التناقضات الاجتماعية والبحث العلمي في الانسانيات ، ثم ان هذه العوامل ، بالتصدي لها وتغييرها ، تنهي تأثير العملية التاريخية التي حددت موقف البورجوازية المصرية الثقافي المشتت والذي ادى الى فشلها الكامل طوال مائة وسبعين عاما عن « تحويل » المجتمع لصالح القيم البورجوازية الاصلية ، الليبرالية .

ولكن هذه البورجوازية المصرية ، بعناصرها البشرية على الاقل - ان لم يكن بمصالحها وتطلعاتها وانحرافاتها واطماعها - هي الموجودة في اجهزة القطاع العام . وتجربتها في هذا القطاع ، في مجال الثقافة ، وبالذات في مجال السينما والنشر منذ التاميم اشهر من ان يشار الى فسادها وكمية الخسائر المروعة ، المادية والفكرية والنفسية التي انزلتها بقضايا الامة ، وعلى رأسها قضية « التاميم » ذاتها . وهذا هو المأزق الذي تواجهه « مؤسساتنا الثقافية » ويواجهه كل من يفكر في مستقبل هذه المؤسسات . القطاع الخاص عاجز - بطبيعته وطبيعة طبقته - عن « انقاذ « الثقافة » المصرية في هذه المرحلة .. وعناصره قائمة في القطاع العام ، ولها سوابق من المؤكد انها على استعداد لتكرارها ، اذا سمحت للظروف بان « تنتكس » بها الى حيث يصبح التكرار ضرورة . فما الذي يمكن أن ينقذ هذه الثقافة ، من خاصها وعامها ، وفي اي مرحلة ؟! .

---

(1) ربما نجد بعض الاغراء هنا يدفعنا الى اضافة عامل فعال ، هو فرض التقلبات والاهواء السياسية واللاايديولوجية السلطوية على الحياة الثقافية . ولكن هذا العامل ادى الى حرمان العمل الثقافي والابداع الفني من اخلاقياته الخاصة القائمة اساسا على الالتزام الحر . وقد يكون هذا احد العوامل ، ولكنه يؤثر في الحياة الثقافية بشكل اعمق من تأثيره على المؤسسات الثقافية المنتجة .

قرأت العدد الماضي من « الآداب »

د . صبحي الصالح

اصدرت « الآداب » عددها الاخير (شباط « فبراير » ١٩٧٥) خاصا بقضايا التعريب . وضم هذا العدد ملف « ندوة التعريب » التي عقدت في طرابلس بليبيا بين ٢٥ كانون الثاني والثاني من شباط . وتعميما للفائدة عمدت « الآداب » مشكورة الى نشر معظم البحوث بنصوصها الكاملة ، والى تلخيص ما تعذر نشره منها ، والى سرد المقررات والتوصيات التي اتخذت بشأن التعريب وقضاياه .

ومع اني حضرت هذه الندوة العلمية الناجحة ، واسهمت في مناقشة ما اثير خلالها من المعضلات ، ومع أن بحثي فيها عن « العربية والتعريب » كان اول البحوث التي استهلت بها اعمالها ، ومع ان « الآداب » نشرت بنصي [illegible] التي [illegible] عقدتها ، عنيت من جديد بقراءة هذا الملف كاملا ، وقدرت أن التعليق على بعض البحوث يفيد جمهرة القراء من ناحية ، ويؤكد رغبتنا في مواصلة الاهتمام بالتعريب ، من ناحية ثانية .

لقد التقت عناصر الدراسات كلها في خط واحد جمعها ونسق بينها : وهو ايجاد الوسائل الكفيلة بوضع التعريب موضع التنفيذ . وكان بديهيا ان يحملنا التكامل الملحوظ بوضوح بين المقدمات والنتائج على الاكتفاء بمعالجة النقاط الاساسية ، واهمها الثلاث التالية :

أ ـ فلسفة التعريب .

ب ـ منهجية التعريب .

ج ـ الجزائر : نموذج حي للتعريب .

اولا : فلسفة التعريب

لا ريب في أن للتعريب فلسفته التي تبرز دوافعنا الحقيقية الى الاهتمام به . فان بدا لكثير من الناس ان ايجاد المصطلحات الفنية ـ التقنية هو شغلنا الشاغل ، فهذا صحيح بحسب الظاهر ، وهو ايضا على جانب كبير من الاهمية ، لكنه على صحته واهميته يظل « جزئيا » على هامش التعريب ، لانه في ضوء التحليل الفلسفي الشامل لشخصيتنا العربية (تاريخيا وثقافيا) يتقاصر بهمومنا وطاقاتنا دون استعادة تلك الشخصية : غايتنا الاساسية المستكنة في كل عمليات التعريب .

عرض لهذا الجانب الفلسفي الدقيق الدكتور انطوان المقدسي في بحثه : « التعريب في دلالته التاريخية : من الترجمة الى التعريب »(١) . وعنوان البحث قد يوحي باعتماد المنهج التاريخي سردا لمراحل التعريب واطواره وخطواته ، لولا التوقف عند امرين : احدهما الدلالة التاريخية ، وهي عبارة أشد التصاقا بالتحليل الدقيق للدال والمدلول ، والرمز والتعبير ، والاخر هو الانتقال من الترجمة الى التعريب ، اي من الذات الى المجموع ، او من الفرديات الى الكليات (٢) . وفي هذين الامرين تركيز واضح على الزاوية الفلسفية التحليلية التي لا تستقي من وقائع التاريخ الا ما كان منها يسلط الاضواء على تحركات الشعوب والاقوام ، وتطورات العصور والاجيال .

وكان لزاما علينا ان نتابع مع الدكتور المقدسي المراحل التي تعاقبت على اساليب اقدامى في نقل الكلمات الاجنبية الى لغتنا ، فقد ترجموها في منطلقاتهم الاولى بمنطوقها الحرفي او بما يشبه ذلك المنطوق ، ولم ينتقلوا الى طبعها بميسم العربية ، وانزالها على صيغها واوزانها ، الا في اطوار لاحقة تواصلت فيها الثقافات ، وتفاعلت خلالها الحضارات ، وتخطت على اثرها لغتنا العلمية والحضارية اشكال الترجمة البدائية ، لتنصهر انصهارا كاملا في جوهر الشخصية العربية ، تعبيرا عن ذاتيتها واصالتها . واثبتوا بصنيعهم هذا ـ كما ذكرنا في بحثنا (٣) ـ ان اللغة ، كل لغة ، ليست اكثر من اداة اتصال بالتجربة الانسانية واداة تحليل لها ، وان هذه التجربة نفسها عرضة للتغاير والاختلاف بين مجتمع واخر ، وبين بنية واخرى (٤) ، وان ما ننشده من كل لغة انسانية ، ومنها لغتنا العربية الفصحى ، هو تحديد رؤيتنا للحقائق والاشياء ، وللكون والحياة ، وللانفس والافاق ، وفاقا لما صرح به مارتينه Martinet في قوله الموجز الواضح : « انما نتوخى من اللغة ان نتمكن بوساطتها من تحديد رؤية كل منا للعالم الذي يحيط به » (٥) . وفي هذا المعنى نفسه يقول كاسيرر : « ان الانسان لا يدرك العالم ولا يفكر فيه بوساطة التعبير فحسب ، بل توشك رؤيته للعالم ان تكون محددة قبل بالتعبير » (٦) .

والنظر الى اللغة الانسانية على انها تحديد مستقل لرؤية العالم ، لا ينبغي ان يقلل من قيمة الترجمة بعد ان وضع لها علماء اللغة المعاصرون ضوابط ومقاييس دقيقة ، ولكنه في الوقت نفسه يردها الى حجمها الحقيقي ، واذا هي ممتنعة او متعذرة مهما تك حرفية في نقل المشاعر والاحاسيس (٧) ، بينما تبدو اقرب الى ايراد الدلالة المطلوبة عند نقل مصطلحات العلوم .

ومع ذلك ، لا مناص لنا من الاعتراف بان بعض اللغات اقدر من بعض على اقتراح المبادلات اللفظية المكافئة للمدلول المطلوب ، حين يثبت بالمقارنة الالسنية انها كالعربية غنية بالابنية والصيغ غناها بالاشتقاق والتوليد . ويطيب لنا هنا ان نوافق الدكتور المقدسي على « ان الكلمة العربية ، بحكم اشتقاقها في اغلب الاحوال من المصدر ، فعالة اكثر مما هي عليه في سائر اللغات ، فهي تركز النص حول محاور ، تستقطب كلا منها وتشده اليها ، حتى ليبدو وكأنه منظومة من الوظائف اللامركزية (ان صح التعبير) ، وهي وظائف يتباعد عنها ناظمها كلما اقتربت منه » (٨) .

ويزداد الربط بين اصالة العربية في نقل الفكر الانساني وبين استعدادها الذاتي لتعريب الالفاظ ثم تملكها بوساطة هذا التعريب ،

---

(١) الآداب ، ص ١٤ .

(٢) هذا تعبير سبينوزا في « الاخلاق :
C f . Spinoza , La Morale

(٣) الاداب (العربية والتعريب) ص ٥ .

(٤) Georges Mounin , Les problémes lhéoriques de la traduction , Gallimard , Paris 1963 , P . 58 - 59

(٥) Ibid . P . 50 .

(٦) Ibid , P . 44 .

(٧) Ibid . , P . 9 . 4ème Partie

(٨) الاداب ص ١٦ .

اذا مـا القينا نظرة على ما تفتحت لغتنا لاحتوائه واستيعابه من الفاظ اغريقيـة استخدمهـا فلاسفـة اليونـان لتفسير الكـون والحيـاة والانسان ، فقد عرف اسلافنا العرب من العلماء والمفكرين كيف يشقون الطريق الى خط فكري جديد،مستقل كل الاستقلال عن الخط الاغريقي وان كـان في البدايـة قد انطلق من ذلك الخط القديم : ذلك مـا نستنتجه باطمئنـان من وضعهم كلمـة « جوهر » للدلالة على«اوسيا»، ولفظ « طبيعـة » ازاء « نيس » ، و « عقـل » مقابـل « نوس »، و« مبدأ » للكلمـة الاغريقية « أرخه » على سبيل المثال .

وان هذه القدرة الذاتية على التفتح والاحتواء والتملك والاستيعاب هي التي اتاحت للمصطلحات العلمية الرياضيةان تحرزفي تصانيفعلمائنا تقدما كبيرا ،حتى مهدت السبيـل لنظريـات الفيزياء الرياضيـة ، ولنظريات المعرفة الديكارتية والكنطية : « فالعرب ـ كما قال الدكتور المقدسي بحق لم يقتصروا على حفظ التراث الاغريقي ونقله سليما معافى الـى اصحابه كمـا يزعمون ، بل الفـوا بيـن الخطين الكبيرين فـي تاريخ الفكر الانساني ، وهمـا الخط السامي العربي من جهة ،والخط الاغريقي مـن جهة اخرى ، وهذا التاليف هو الذي قامت عليه الثقافة منذ عصر النهضة الى المنعطف الذي يتكون اليوم مع الحداثة » (٩) .

ان عملية التعريب التي عادلت في نظـر اسلافنـا عملية«التعقيل» rationalistion وكانت برهانا على امكان التنسيق ،بل على وجوب التنسيق بين اللفظ والرمز ، وبين الرمز والاصل ،وبين الاصل والعقل ، وبيـن المبدل والبديل ، هي التي ينبغي ان تقنعنا بان امارة وجودنـا ووجود لغتنـا لا ترتسم في حياتنا العمليـة ارتساما سليمـا صافيا الا اذا « حدثنا » اساليبنا في تصوراتنا للحقائق والاشيـاء « تحديثا » يبرز شخصيتنا العربية التي لم تمت ولن تموت !

ثانيا : منهجية التعريب

ولكيلا يصطبغ بحثنا بالطابع الفلسفي ، او مـا يشبه ان يكـون فلسفيـا تحليليا ، مع انه في الاساس لغوي محض او« فيلولوجي » philologique بل يوشك ان يكون قائما على عملية التركيـز النطقـي Logocenfrisme نؤثر الان ان نتحول بملحوظاتنا كلها الى الاسلوب التطبيقـي او المنهجي . وتسعفنـا في هذا الصدد ثلاثـة ابحاث كان اولهـا اغزرهـا مـادة ، واعمقهـا فكرة ، واكثرها عملية ، واخلقها بالتعليق والتعقيب .

عناوين هذه الابحاث ـ التي نشرت في عدد « الاداب » الاخير ـ في التأليف على وجه التعريب :

١ ـ توحيد المصطلحات أو وحدة الثقافة ، للدكتور محمد رشاد الحمـزاوي .

٢ ـ الترجمة والتعريب بين الفصحى والعامية ، للدكتور مجيـد حلاوي والدكتور مجيد الماشطـة .

٣ ـ العربية والمصطلح العلمي ، للدكتور ابراهيم السامرائي ،

ومنهجية التعريب توشك ان تفصح عن نفسهـا فيمـا سماه الدكتور الحمزاوي بتوحيد المصطلحات ، حيـن لـم يجد ضيرا في التسوية بينه وبيـن « وحدة الثقافة » . ومن هذا العنوان نفسه ـ وقد تردد بيـن عبارتيـن تؤديـان الى غاية واحدة ـ استشففنا لدى الحمزاوي رغبة واضحـة في التحول من « اعتباطيـة » التوحيـد الاصطلاحـي (كيفما يتهيأ ذلك التوحيد) الى « موضوعية » وحدتنا الثقافية التي هي همنا الاول والاخير . ولقد رأى الباحث ـ ونحن معه ـ ان افضل وسيلـة لمعالجـة هذه المشكلـة تنحصر فـي وضعهـا داخـل اطارهـا التاريخي واللغوي ، لعلنـا نتمكـن من تحليل مظاهرها واسبابها (١٠).

وبعـد ان جال الدكتور الحمزاوي جولة عاجلة باوائل المحاولات لتوحيد المصطلحات ، ابتداء بالمستشرق الايطالي نللينو في مجمع اللغة العربيـة بالقاهرة ، ومرورا باراء علي الجارم ، والشيخ محمد الخضر حسين ، والشيخ عبدالقادر المغربي ، والشيخ محمد رضا الشبيبي ، اكـد ان مصطفى الشهابي كـان اول من وضع القضيـة في اطارهـا الواسع ، اذ ارخ لكل المحاولات العربيـة الرسمية والفردية من ١٩١٩ الى ١٩٥٢ « ملاحظا ان الشعور بضرورة توحيد المصطلحات العلميةاصبح في البلاد العربية شعورا عاما » (١١) .

وما زال الحمزاوي يتقصى المساله في اطارها التاريخي متوقفاعند الذيـن افترضوا في اللفظ العلمي ان يكـون لفظـا لا عبارة ، وان يستخرج هذا اللفظ من مفردات اللغـة وان حكم على بعضها بانه مهجور او ممات ، ما دام في وسع الباحثيـن بسط دلالته الاصلية . وربمـا كـان ذا جدوى استشهادنـا ببعض الامثلة التـي دعا بهـا بعض المعاصرين الى التزام منهجية فـي صوغ المصطلحات الطبية (١٢) كمضاهاة الافراد اللفظي بمثله ، حين نترجم Aphasie بالصمات ، بدلا من العبارات المركبة التالية : تعذر النطق ، او احتباس الكلام ،او امتناع النطق ، وكمراعاة صلات الترابط الاشتقاقي والتصريفي والمعنوي بيـن المصطلحات ، حين نتحول بجذر Trophy الى الالفاظ العربية المقترحة لكل من الكلمـات الانكليزية التالية :

Trophic Nerve , Troqhic disturbance , Dystrophy , Atrophy , Hypertophy ,

واذا هي في العربية على التوالي : عصب الاغتذاء ، حثل ،سغل، ضمور ، ضخـم .(١٣) ونمضي مع الدكتور الحمزاوي وهو يأخذ على احاديي اللغـات معالجتهـم قضيـة المصطلحات عن طريـق الترجمـة المحضة كانها الوسيلة المثلى لتوحيد الثقافة ، تبنيـا منهـم للاصول العربية القديمة مهما تك قاصرة عن اداء المعنى المطلوب ، واستنادا منهم الى سلفية لغوية اشد خطرا على المصطلحات من مترادفاتها الحديثة المتكاثرة . واذا نحـن نسلم معه بأن موقفنـا من تحديد المراد بالتقـدم العلمي هـو السر الكامن وراء ما نشكـو منه مـن اضطرابمصطلحاتنا. ونسلم معه ايضا بان اختلافنا مثلا على ما يقابل لفـظ Pancreas أيكون البنقرياس أم الحلوة ام الغدة ؟ لم ينشا عن الترادف بقدر مـا نشأ عـن نزعات علميـة متنازعة : « النزعة الموسوعية التي تنظر الى الحديث من خلال القديم ، والنزعة الوطنية التي ترضى بالغموض على حساب القديم والحديث . فالنزعة الانشائية تكاد تكـون معدومة، فنحـن لا ننظـر للعلم الا مـن خلال مـا عـُـرف خوفا من هاويـة الفـراغ » (١٤) .

وننتهي مع الدكتور الحمزاوي الى اقرار مبدأ ، والى تقـديـم مقترحات ، امـا المبدأ فهـو ان انتشار اللغـة (اي لغـة كانت) رهن بمدى اسهامهـا في التسارع العلمي والتقدم الحضاري ، ومشاركتهافي تملـك معنى اللفظ قبل اقتراح صياغته ، مهمـا تكـن تلـك الصياغة، وذلك يعني ان كل تخلف توصم به لغتنـا مثلا ينحصر في الباحثيـن العرب لا في اللغـة العربية (١٥) ، ولا سيمـا اذا اخذت بعينالاعتبار

---

(٩) الاداب ، الفقرة الاخيرة من الصفحة ١٦ ، وانظـر استطرادا ما نقله الدكتور المقدسي هنا مـن اراء هيدجر في قضايا التفتحالذاتي والاحتـواء .

(١٠) الاداب ، ص ١٧ .

(١١) الاداب ، ص ١٨ .

(١٢) كالاستاذ احمد عمار في البحوث والمحاضرات ١٩٦٠ ـ ١٩٦١ ص ٤٥ ـ ٥٦ .

(١٣) الاداب ، ص ١٩ .

(١٤) الاداب ، ص ٢١ .

(١٥) الاداب ، ص ٦ (انظر بحثنا عن العربية والتعريب) .

الطرائق التي افترحناها لاشتقاق الالفاظ عند الحاجة اليها (١٦) .

واما المقترحات فنوردها بنصها الذي صاغه الدكتور الحمزاوي في ختام بحثه بايجاز :

ـ رصد ما يزيد على واحد في المئة من مدخول كل قطر عربي للبحث العلمي ولمكافأة الباحثين حتى يتفرغوا لمثل هذا البحث .

ـ ربط قضايا اللغة بالقضايا الاجتماعية والاقتصادية والادارية في الاقطار العربية .

ـ تكوين هيئة علمية عربية عامة تنسق برنامج البحوث خلال سنين معينة . ولا بأس في ان يشترك في تلك الهيئة اختصاصيون في علم الاقتصاد والاجتماع والنفس وخبراء انمائيون .

ـ وضع مراجع نقدية مفهرسة تعرف بالانتاج العربي في الاختصاصات المتنوعة .

ـ تكليف لجان مختصة لوصف التراث القديم والحديث وابراز قيمتهما العلمية .

ـ عقد مؤتمرات متوالية في البلدان المسؤولة عن اختصاصها واتخاذ القرارات الجماعية (١٧) .

وحين ننتقل بعد هذا الى بحث الدكتورين حلاوي وماشطة عن (الترجمة والتعريب بين الفصحى والعامية) (١٨) قد تأخذنا الدهشة للوهلة الاولى من احتمال التساهل بالفصحى ما دامت العامية توضع بجانبها في معالجة الازمات الناشئة في بلادنا تارة من الترجمة وتارة اخرى من التعريب .

ولعل هذه الفكرة التي تساورنا هي التي حملت الباحثين على ان يبادرا الى التصريح بلهجة حاسمة :« ان مسألة الترجمة والتعريب والعامية والفصحى تتداخل فيما بينها ، وكلها تشير الى ازمة اللغة العربية » (١٩) .

ونحن مع الباحثين هنا على طرفي نقيض ، فان مجرد ادراجهما العامية في اطار التعريب امر عجيب ! لا نقول هذا لاننا نربط العامية بالكلام والفصحى بالكتابة ، كما فعل محمود تيمور (٢٠) ، وان كنا نتفق معه على ان العامية لا ضابط لها ، ولا نظام ، وانما نقوله بكل وضوح لان العامية ـ في نظرنا ـ ليست ترجمانا دقيقا للغة العلم « التقني » الحديث ، ونحن في القرن العشرين نريد اللغة اداة لاكتساب المعارف المتجددة باستمرار ، ولا نريد ان تنحصر في فنون الادب والشعر تعبيرا عن خلجات الشعور .

من اجل هذا كنا وما نزال نقول : ان عملية التعريب ليست لعبة لفظية ، ولا زخرفة جمالية ، ولا انفعالات عاطفية ، ولا همسات شعرية ، ولا انغاما موسيقية ، ولا شعوذات سحرية ، ولا شطحات صوفية ،بل هي على العكس من ذلك عملية علمية ، منهجية واقعية (٢١) .

اما زميلنا الجليل الدكتور ابراهيم السامرائي فما ارتاب في انه كتب بحثه عن « العربية والمصطلح العلمي » (٢٢) في عجلة من امره ، لان عبارة « المصطلح العلمي » تطمع القارىء باشياء كثيرة ، نفيسة ، عودنا على نظائرها الزميل الكريم في بحوث له مشهورة . ولكننا الفيناه في عجالته هذه يحاول اقناعنا ، باسلوب تقليدي ، بان العربية كانت سيدة لغات العالم القديم خلال قرون متلاحقة ابتداء من القرن السابع الميلادي ، واننا اليوم نواجه في هذه العربية مشكلات لاننا لا نملكها كما كان اسلافنا يملكونها ، وان وسائل تعلمنا اياها متخلفة عن العلم الصحيح بوسائل التربية الحديثة ،وان التراجمة النصارى نقلوا اليها فلسفة الاغريق ومعارفهم حين وجدوا ان سريانيتهم لا تؤدي تلك الاغراض الجديدة (٢٣) . وضن علينا الدكتور السامرائي بتبيان ما يتوخاه في المصطلح العلمي ليأتي على المقياس العربي الفصيح ، الا انه عرض علينا بعض التوصيات التي ننقلها بنصها دون تعليق :

١ ـ يكون المصطلح من الالفاظ التي لا تنصرف معانيها الى مدلولات كثيرة .

٢ ـ ان يكون المصطلح من الالفاظ السهلة الميسرة في عدة بنائها من حيث الاصوات .

٣ ـ ان تكون بسيطة لا مركبة بقدر الامكان . وبذلك يستغنى عن الالفاظ المنحوتة والالفاظ المضافة .

٤ ـ ان يكون المصطلح من الالفاظ المعروفة ، فلا يلجأ الى الغريب الا عند الضرورة او في حالة ان اللفظ الغريب كان مصطلحا قديما معروفا .

٥ ـ ان يكون المصطلح قائما على المادة المرادة فلا يشترك فيه موضوع اخر .

٦ ـ ان يتجنب المعرّب عند اختيار المصطلح ، ويفضل عليه الكلام العربي (٢٤) .

ثالثا : الجزائر : نموذج حيّ للتعريب

انها لفرصة ميمونة حقا ان نجد الجزائر الفتية نموذجا حيا للتعريب ، كأنها ـ بعد سني الاحتلال الطوال ـ ادركت وحدها فلسفة التعريب ، وطبقت بقوة وحسم منهجية التعريب . ولقد قرأنا في هذا الصدد مقال الاخ الجزائري الاستاذ عبدالقادر حجار عن « سياسة التعريب في الجزائر » (٢٥) ، وتابعنا من خلاله اوضاع العربية في عهد الاحتلال ، ثم رأينا قضية التعريب ضمن المشاكل الوطنية المستعجلة على اثر استقلال الجزائر مباشرة ، وعلمنا ان هذه القضية طرحت في الجزائر من حيث الطرق والمناهج ومن حيث الامكانات البشرية والمادية ، وان الصعوبات التي واجهت المدرسة الجزائرية الفتية كانت ديمقراطية التعليم ، وجزارة الاطارات ، والمحتوى العلمي والتقني للمواد المدروسة ، وان هذه الصعاب كلها ذللت لدى المعلم والكتاب المدرسي ومواد البرنامج ، ابتداء من وزارة التعليم الاصلي والشؤون الدينية وانتهاء بالجامعة ، مرورا باجهزة الاعلام ، وجهاز القضاء ، وجهاز الادارة ، وحتى اطار الشرعية في السياسة والتوجيه .

وفي اعتقادنا ان الجزائر اذا ظلت تواصل مسيرها على هذه الصورة النشيطة الفذة سوف تسبق جميع الدول العربية لا الى مجرد العلم بالعربية بل الى استعادة الشخصية العربية بكل اصالتها وذاتيتها ، وبكل مزايا رسالتها الخالدة لبني الانسان .

وبعد ، فان هذه التعليقات السريعة على عدد « الاداب » الماضي الخاص بقضايا التعريب ، لا تدع مجالا للشك في ان الباحثين العرب باتوا يعرفون للغتهم مزاياها ، ويدركون كيف يستعيدون بوساطتها فكرهم العلمي العميق ، وكيانهم الذاتي الاصيل .

---

(١٦) انظر صور الاشتقاق في كتابنا « دراسات في فقه اللغة » الطبعة الخامسة .

(١٧) الاداب ، ص ٢٥ .

(١٨) الاداب ، ص ٢٦ .

(١٩) الاداب ، ص ٢٧ .

(٢٠) محمود تيمور : مشكلات اللغة العربية (القاهرة) سنة ١٩٥٦ (ص ٩ ـ ١٠) .

(٢١) مقطع من محاضرة لنا في النادي الثقافي بجبيل ، اغسطس سنة ١٩٧٠ .

(٢٢) الاداب ، ص ٣١ .

(٢٣) الاداب ، ص ٣١ ـ ٣٢ .

(٢٤) الاداب ، ص ٣٣ .

(٢٥) الاداب ، ص ٣٨ .